



# المذهبُ الإنسانيُّ في الإسلام

دراسات تأصيلية







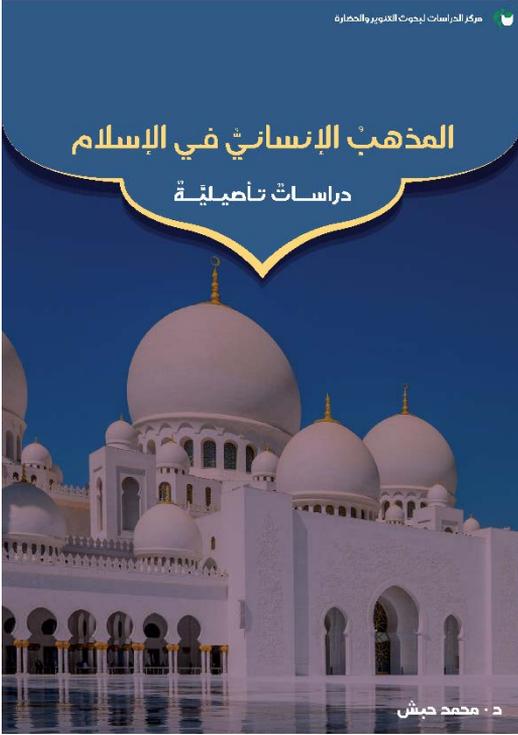
مركز الدراسات  
لبحوث التنوير والحضارة  
الشرقية

# المذهبُ الإنسانيُّ في

## الإسلام

دراساتُ تأصيليةٌ

د. محمد حبش



مركز الدراسات لبحوث التنوير والحضارة

# المذهبُ الإنسانيُّ في الإسلام

دراساتُ تأصيليةٌ

د. محمد حبش





## المذهب الإنساني في الإسلام

الطبعة الأولى 2021

جميع الحقوق محفوظة

المؤلف: د. محمد حبش

هذه الطبعة من إصدار مركز الدراسات لبحوث التنوير والحضارة

دار متخصصة بالدراسات الإنسانية وإخاء الأديان

19- مدينة الشارقة للنشر - شارع الشيخ محمد بن زايد - الشارقة - الإمارات

هاتف: 0097165545544

habash2005@gmail.com

[www.mohammadhabash.org](http://www.mohammadhabash.org)

First Edition 2021

All Rights Reserved

Mohamad Habash

This edition is issued by the Studies Center for Civilization and Enlightenment Research.

The center specializes in human studies and brotherhood of religions

Address: 19- Sharjah Publishing City - Sheikh Mohammed Bin

Zayed Rd - Sharjah - UAE

Tel: 0097165545544

habash2005@gmail.com

[www.mohammadhabash.org](http://www.mohammadhabash.org)



﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا  
لَهُ، وَسَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [ص: ٧١ - ٧٣]



﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ  
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]



## تمهيد

نقدم للجمهور الكريم هذا الكتاب الجديد عن المذهب الإنساني في الإسلام، وهو مساهمات كثيرة قدّمتها في محافل مختلفة؛ للتأكيد على إحياء القيم الإنسانية في الإسلام، وضرورة تطوير الفقه الإسلامي إنسانياً ومواجهة الأحكام التي استقرت في الفقه الإسلامي مما يتناقض مع كرامة الإنسان ومساواته، وبخاصة في نظام العقاب ونظام العلاقات الدولية والتميز الاعتقادي وحقوق المرأة.

وفي الواقع فإنه لم يظهر في التاريخ اتجاه ديني ولا سياسي إلا وهو يتحدث عن الإنسان جوهرًا وغاية، وبذلك فإنّ المذهب الإنسانيّ اتجاهٌ فكريّ ومجمعيّ يمكنك رصده في المجتمعات البشرية كلّها، كما يمكننا الوقوف عليه بوضوح في النصوص المقدسة جميعها، وهو اتجاه يعدّ الإنسان محورًا وغاية، ويعدّ تحقيق سعادته معيارًا لصحة التدين وصحة التوجه السياسيّ.

وبذلك فإنّ من المؤكّد أنّ الحديث عن الإنسان محورًا وغايةً هو تحصيل حاصل، ولا توجد ديانة ولا شريعة تزعم أنّها ضدّ الإنسان، بل يقول الجميع إنهم يعملون لإسعاده وإنّ سعادة الإنسان هي غاية الدّين والسّياسة معًا، وفي الكتاب المقدس: {إِنَّمَا خُلِقَ السَّبْتُ مِنْ أَجْلِ الْإِنْسَانِ وَلَمْ يُخْلَقِ الْإِنْسَانُ مِنْ أَجْلِ السَّبْتِ}، وكذلك في الخطاب الإسلاميّ: ﴿أَسْتَجِيبُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]

ولكنّ الواقع يختلف جذريًا عن الشعارات التأسيسية والنصوص العامّة، وظهرت في الأديان كلّها مواقف تمييزيّة واضحة، وبخاصة ضدّ المرأة وضدّ المختلف دينيًا، ومواقف تنتهك الكرامة الإنسانية وبخاصة في نظام العقاب، وتعدّ هذه المواقف التمييزية على رأس الثوابت في العقيدة، وبخاصة في الإسلام الذي تدور حول

مقاصده هذه الدراسة، وبات على من يتحدث عن المذهب الإنساني أن يقدم أجوبة واضحة لمواجهة سبل النُصوص والممارسات المتناقضة كلياً مع محورية الإنسان.

تحاول هذه الدِّراسات أن تقدم البرهان على مركزية الإنسان في الإسلام وضرورة مواجهة المفاهيم التَّمييزية والعنصريّة التي اختلطت بقضايا الفقه الإسلامي، وكذلك الغلو في الدِّين الذي جعل الشريعة أقدس من الإنسان، وتحاول هذه الدراسة أن تقدم للمسلم روحاً جديدة تنهض به من تكايا الهمود والخوف إلى منابر الإقدام والعطاء، وتحاول أن تثب به على قدمين راسختين يعالج بالإرادة والعزيمة وهنّ الخوف والدُّل الذي فرضه عليه خطاب كهنوتي رهبوتي لا يرى في الله إلا جلاّداً ولا يرى في الإنسان إلا غيباً ضائعاً يحتاج للوسط باستمرار حتى يمشي على الصراط المستقيم.

إنّ استنباط القيم الإنسانية من مصادر الشريعة بات عملاً بديهياً وقد كتب فيه مئات من الباحثين على مستويات مختلفة، وهو اتجاه وجيه يعلي من القيم الإنسانية التي نادى بها الشريعة كالمساواة في العدالة وفرص العمل والتعليم والرحمة بالصغير واحترام الكبير ورعايته وتولي ذوي الإعاقة باحترام وعناية وبر الآباء وصلة ذوي الرحم والتكافل الاجتماعي وغير ذلك من القيم الإنسانية .

ولكنّ الموقف الفقهي السائد ظلّ عاجزاً عن مواجهة التحديات الرئيسة التي تتناقض مع حقوق الإنسان وتؤدي إلى القلق والفوضى في المجتمع الواحد لجهة غياب المساواة على أساس الدِّين أو العرق بعد أن أنجزت الإنسانية قيم المساواة، والتمسك في القضاء بالعقاب الجسدي بعد أن أنجزت الإنسانية نظم العقاب الإصلاحية وحرمت التعذيب بصوره كلّها، وكذلك لجهة اضطهاد المرأة وعدم الاعتراف

بمساواتها وحقوقها وحرمتها ونصب المجتمع وصياً على خياراتها، وهي وصاية لا تزال ضارية وصارمة وقد ظهرت في الشهور الأخيرة متوحشة ولا إنسانية؛ إذ تزايد القتل بدافع الشرف، ومع أن المجتمع كُله يستنكر هذه الجرائم ولكنه يجبن عن مواجهتها في مصادرها ولا يزال يبرر الرّجم كحدّ من حدود الله خالد إلى الأبد، في حين أنه يكتب أشدّ العبارات في رفض هذه الممارسة المتوحشة حين يقوم بها بعض الغاضبين.

ليس الهدف من هذه الدراسة تمجيد الفقه الإسلامي وإظهار المواقف الإنسانية في القرآن والسنة وهي مواقف كثيرة ومتعددة، ولكنّ الهدف الجوهرى هو تقديم إطار نظريّ للمذهب الإنسانيّ في الإسلام باعتباره اتجاهًا معتبرًا يختلف عن التيار التقليديّ في اتباع النصوص، والكشف عن دوره الاجتماعى الحيوى في تعزيز حقوق الإنسان في المجتمعات المسلمة والمواجهة المباشرة مع الأحكام اللإنسانية التي تسللت إلى الفقه الإسلامى وباتت ترسم صورة لا إنسانية تظهر آثارها في المجتمعات المسلمة على صورة مظالم يرتكبها الحكام وتنمّرًا يمارسه المجتمع، كما تظهر آثارها في المجتمعات غير المسلمة على شكل إسلاموفوبيا تتكرس وتتجذر مستخدمة أدلة وبراهين يتبناها التيار السائد في الفقه الإسلامى.

تريد هذه الدراسة أن تؤكد أنّ الإخاء الإنسانيّ هو هدف نهائيّ للإسلام، وأنّ ما تعانيه الأمة من خطاب التمييز والإقصاء، ونظم العقاب اللإنسانية ناشئ عن جمود الفكر وتوقف الاجتهاد، وأنّ الأُمَّة الإسلامية قادرة على التطور والتجدد، وأنّ النَّصَّ الدِّينى نفسه نصٌّ مرّن ومتطور، ويمكنه أن يستجيب لحاجات المجتمع الحقيقية وذلك وفق قواعد العقل المتينة التي يسميها الفقهاء قواعد أصول الفقه الإسلامى، وأنّ الفقه الإسلامى قادر على أن يتخلى عن كثير من الأحكام التي تكرست عبر

القرون، وأن يستجيب للروح القرآنية الكريمة التي تؤكد بوضوح على محورية الإنسان ووجوب تحقيق كرامته وهي حقائق أكدها النصُّ الأعلى، الذي يجعل اختلاف الألسنة والألوان والأديان والأعراق رحمة ونعمة، وآية من آيات الله، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]

## إشكالية الكتاب

تتركز إشكالية الكتاب في وجود تناقض حقيقي وجوهري بين الفقه الإسلامي وبين القيم الإنسانية، مع وجود مشترك كثير، وتعتبر الدراسة بأن الإنسان لم يكن دوماً غاية التشريع بل مارس الفقهاء تاريخياً إهمالاً واضحاً للإنسان لصالح اللاهوت.

وتؤكد الدراسة أن الفهم الحدي للعقيدة في الإسلام، والعقوبات الممارسة ضد المختلف اعتقادياً هي اتجاهات غير إنسانية، وقد فرضت فيها جملة من الحدود القاسية ضد خيارات العقل الحر، وضد الفطرة الإنسانية، تتناقض مع قيم الدين العليا وحقوق الإنسان.

كما أن طبيعة العقاب التي يطالب بها التيار السلفي في الإسلام على الجرائم الجنائية باتت أيضاً غير إنسانية، وأن العالم الإسلامي برمته قد تخلى عنها وتحول إلى العقاب الإصلاحي، وبات من الواقعي الاعتراف بأن الإجماع قد انعقد على التخلي عن العقاب الجسدي لصالح العقاب الإصلاحي، وهو توجه واضح نحو المذهب الإنساني في الإسلام.

فهل الهدف في الإسلام الشريعة أم الإنسان؟ وهل من الصواب أن ينفق المرء حياته وجهاده ودمه في سبيل عزة الإسلام أم في سبيل خدمة الإنسان؟

## فرضية الكتاب

تفترض هذه الدراسة وجود محددات كافية ومؤيدات معتبرة لقيام المذهب الإنساني في الإسلام ليس على سبيل الفكر والتأمل، بل على سبيل الفقه والتشريع، وتعترف بأن عددًا من الأحكام اللاإنسانية تسللت إلى الفقه الإسلامي، وأن تغييرها ومواجهتها مسؤولية وواجب، وهي أمر ممكن وحيوي تساعد فيه مصادر الشريعة، وتاريخ النبوة.

وتهدف هذه الدراسة بوضوح إلى إحياء المذهب الإنساني في الإسلام، وهي لا تزعم أن الفقه الإسلامي تاريخيًا قد التزم الوعي الإنساني، بل تسلم بالحقيقة المعروفة في الأديان كلها وهي أن اللاهوت تغول على الناسوت، وأن الروح الإنسانية قد تم تجاهلها وتغييبها بسطوة الكهنوت، ولكنه يصرُّ على أن من الواقعي تمامًا استخراج المذهب؛ لأنَّساني في الإسلام تأسيسًا على قواعده ومصادره المعروفة تاريخياً، من الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستحسان والاستصلاح والعرف والذرائع والاستصحاب وغيرها من المصادر، وإحياء دور العقل في التفسير والتأويل ضمن محورية واضحة للإنسان.

وبذلك يمكن القول: إنَّ هدف الكتاب هو الوصول إلى مذهب إنساني قائم على المصادر الإسلامية، يوفر قدرًا أكبر من الاجتهاد والمسؤولية ودورًا أقل لرجال الدين، ويعيد إنتاج فقه إسلامي يلتزم بمحورية الإنسان بعيداً عن شروط اللاهوت وقيوده.

## الأعمال السابقة

تزخر المكتبة العربيّة بكثير من الدّراسات التي تحمل عناوين الإنسانيّة وحقوق الإنسان والمذهب الإنساني، ومنها مثلاً كتاب (عباس محمود العقاد) الإسلام والحضارة الإنسانيّة، وكتاب الشيخ (محمد أبو زهرة) المجتمع الإنسانيّ في ظلّ الإسلام إصدار الدّار السّعودية للنشر والتوزيع، وكتاب الدكتور (محمود قمر) التسامح والإخاء الإنسانيّ في الإسلام، وبالعنوان نفسه الشيخ (محمد صدقي عامر) من مطبوعات وزارة الأوقاف المصريّة، كما صدر عن دار المسيرة ل(محمد عبد المجيد عبد العال) كتاب السلوك الإنساني في الإسلام وعن دار الديوان المغربيّة كتاب الإسلام والمشترك الإنساني ل(عبد الله بوصوف) أمين الجالية المغربية في أوروبا، وكتاب الإسلام دين الإنسانيّة لمولانا (محمد علي) إصدار المكتبة الأهليّة بمصر، وكتاب إنسانيّة الإنسان في الإسلام للكاتبة الأزهرية (آمنة نصير) عن دار الشروق، وكتاب موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام للكاتبة (خديجة النبراوي) نشر دار السلام، والعنوان نفسه أيضاً للكاتب (عدنان الوزان) عن مكتبة عين الجامعة السّعودية وقد ضمنه فصلاً خاصّاً عن ازدهار حقوق الإنسان في السّعودية، وكتاب (عبد المنعم الخفاجي) الإسلام دين الإنسانيّة الخالد، وكتاب الدكتور (محمد عمارة) الإسلام وحقوق الإنسان ضرورات لا حقوق إصدار دار الشروق، وكتاب الإسلام وحقوق الإنسان للدكتور (عبد الحسين شعبان) عن دار بيسان العراقيّة، وكتاب حقوق الإنسان في الإسلام ل(سعد الدّين الهلالي) وقد صدر عن مكتبة وهبة في مصر، وكتاب الدكتور (زكي الميلاد) الإسلام والنزعة الإنسانيّة إصدار دار الانتشار العربي، وكذلك كتاب الإسلام والإنسان للدكتور (محمد شحرور) وقد صدر عن دار السّاقية.

كما نشير إلى كتاب آخر بالغ الأهمية للباحثة النرويجية (آن ماري شميل) بعنوان **الإسلام دين الإنسانية**؛ إذ تقدم فيه الكاتبة التي اعتنقت الإسلام رؤية إنسانية تتصل بالمجتمعات الغربية وتعالج اهتماماتها، وقد صدر الكتاب عن جمعية كبار العلماء في مصر وقدم له الشيخ (عباس شومان).

ولا شك في أنّ الكتب الصادرة بهذا المعنى كثيرة وتدور قضايا هذه الدراسات عمومًا حول تأكيد اهتمام الإسلام بالجوانب الإنسانية في التشريع والسلوك، ولكنّها في الجملة لا تخرج عن الأسلوب التمجيدّي للشريعة الإسلامية والفقهاء الإسلاميين عمومًا، وتعمد إلى إظهار الجوانب الإنسانية النبيلة التي أنجزها الفقهاء الإسلامي، فيما تستخدم غالبًا الأسلوب التبريري للممارسات اللإنسانية التي تسللت إلى الفقه، ولا تواجه المشكلة بأسلوب فعّال، وتنتهي إلى تقرير أنّ المسألة عدم فهم أو في أحسن الأحوال سوء تطبيق، ولكنّها لا تجرؤ على المساس عمومًا بالمقدّس وتكتفي بالتأكيد على أنّه قابل للتأويل.

ولا يمكن بالطبع الحكم على هذه الكتب بحكم واحد كما فعلنا ولكننا نشير إلى السياق العام الذي كتبت فيه، والمعروف من أساليب هؤلاء المؤلفين الكرام، ويلزم التأكيد على أنّ جوانب جديدة بالاهتمام قدّمها الأساتذة عباس محمود العقاد وعمارة والهلالي وعبد الله بوصوف في دراساتهم في حقوق الإنسان.

وتجدر الإشارة إلى كتاب بالغ الأهمية للكاتب الفرنسيّ (مارسيل بوازار) بعنوان **إنسانية الإسلام**، ترجمة (عفيف دمشقيّة) طبع دار الآداب في بيروت، وقد قدم له الدكتور (عماد الدين خليل) في مقدمة تحليليّة إضافية ورصد فيه جهده في إثبات إنسانيّة الإسلام في العقيدة والفقهاء والأخلاق، وفيه يتحدث (بوازار) عن الإنسانية

في جوهر النَّصِّ الإسلاميِّ، معترفاً بالجنوح السلوكيِّ لدى الشعوب الإسلاميَّة عن تحقيق تلك القيم العليا في الإسلام، وبوصفه أستاذاً في القانون الدَّوليِّ فإنَّه يقوم بمراجعات دقيقة لأحكام الفقه الإسلاميِّ التمييزيَّة، ولكنَّه يظهر تفهماً عميقاً لاختيارات الفقه الإسلاميِّ التمييزيَّة في سياق الظروف التَّاريخيَّة التي صدرت فيها وبعد ذلك نسقاً متقدماً في الفقه الاجتماعيِّ بالمقارنة مع الممارسات والسلوكيات التي كانت أوروبا تمارسها في تلك المراحل من التاريخ.

ولكنني أشير إلى أهم كتاب في هذا الباب للمفكر السوري الكبير (صادق جلال العظم) وقد كتبه بالإنكليزيَّة ونقله إلى العربيَّة (فالح عبد الجبار) وصدر عن دار المدى بعنوان الإسلام والنزعة الإنسانيَّة العلمانيَّة 2007، وفيه يتناول الدكتور العظم مباشرة السؤال الواضح: هل يمكن أن يكون مصدر المذهب الإنسانيِّ إسلامياً أو نابعاً من التراث الخاصِّ وفق تعبيره، واختار على الفور الجواب بالإيجاب، مؤكداً أنَّ القيم الإسلاميَّة تحتل هذه الحقائق، وأنَّ المنطق الغربيِّ المتعاليِّ اللاتاريخيِّ والمسكون بوهم احتكار الحقيقة لا يصمد أمام التحليل العلميِّ، ويؤكد بشدة أنَّ قيم حقوق الإنسان والحريات عموماً وإن كانت أوروبية المنشأ وتنسب إلى عصر الأنوار ولكنها باتت اليوم تراثاً إنسانياً هائلاً يشترك فيه البشر جميعاً، وقد صارت تراثاً عالمياً تحميه القوانين الدَّولية.

ولكنه يؤكد بالطبع أنَّ الوصول إلى هذه الحقيقة في أيِّ تراثٍ خاصٍّ ومنه التراث الإسلاميِّ بالطبع لا يتم عن طريق اتباع أعمى للتراث بل يتم بوساطة انتقائيَّة (منهج اختيار) بصيرة واعية.

ويطالب العظم في كتابه بوضوح بمواجهة صريحة مع الاتجاهات اللاإنسانية التي تسلت إلى التراث، ويعلن إيمانه العظيم بقدرة الإسلام على التطور منهاجياً وفقهياً، ويعدد بوضوح الجوانب التي لا تحتمل التأجيل في الإصلاح الإنساني الإسلامي وهي لا تزيد عن خمسة مطالب يمكن من خلالها إحياء المذهب الإنساني في الإسلام:

1. الإلغاء القانوني والفقهني لنظام أهل الذمة بتوابعه السياسية كلّها التي أصبحت غير مقبولة على الإطلاق في عصر المساواة والحرية، ويؤكد هنا على انتهاء هذا الأمر من الناحية العملية في العالم الإسلامي كلّه؛ ولكن لا بدّ من مواجهة المصدر الفقهي لهذه الممارسات وإنهاء دعوات المطالبة بإحيائه من جديد.
  2. تطوير قانون العقوبات الجسدية والتحول إلى العقاب الإصلاحية، ويؤكد أيضاً أنّ الأمر قد تمّ من الناحية العملية ولكنه لا يزال مطلباً أساسياً لبعض جماعات الإسلام السياسي.
  3. التّخلي عن نظرة تصنيف البشريّة على أنّها العالم الكافر الراض للإيمان والمسكون بالقيم المظلمة والمتوحشة.
  4. وجوب تخلي الشيعة بالذات عن مبدأ ولاية الفقيه والاستمرار في النظام الجمهوريّ الشعبيّ الذي يتناقض كلية مع ولاية الفقيه.
  5. وجوب تطوير فقه المرأة والتخلي عن السلوكيات التمييزية التي تحدد المرأة بوصفها عورة يجب إخفاؤها وتغييبها، أو أنّها كائن ناقص لا يستحق المساواة.
- وفي الواقع فإنني أجد نفسي متفقاً تماماً مع كتاب الدكتور العظم، وربما نختلف في نقطة واحدة وهي أنّ الوصول إلى هذه الأهداف ممكن تماماً وفق مصادر التشريع

الأساسية، وأنّ مناهج الفقهاء الأصوليين قادرة على تحقيق هذه الأهداف دون مصادمة حديثة اعتقادية مع المجتمع المتدين.

وفي حفل تكريم الدكتور العظم قال (إيلارت هيرمس): "إنّ الإقرار بأنّ العالم العربيّ والعالم الغربيّ ينتميان إلى حقل إنسانيّ مشترك هو ما يتوخى الدكتور العظم إيقاظه في العالمين العربيّ والغربيّ، وهو ينشر هذه الفكرة وينود عنها بلا هوادة ولهذا بالذات فهو يمنح اليوم جائزة الدكتور ليوبولد لوكاش لعام 2004"

### الحاجة إلى هذا الكتاب:

وفي سياق الأعمال الكثيرة التي نشرت في هذا السبيل فقد أُكِّد ارتباط الإسلام في مقاصده وغاياته بالشأن الإنسانيّ، ولكن ما زال القلق كبيراً بشأن الممارسات اللاإنسانية التي تزخر بها كتب الفقه، وتمارسها دون هوادة جماعات السلفية بشقيها العلميّ والجهاديّ ومن يدور في فلكها في المجتمعات الإسلامية.

ولا تزال هذه الممارسات هي خطاب الوعظ الإسلاميّ الذي لا يزال يعارض بشدّة تطوير فقه الحدود وتطوير فقه المرأة، ويصرُّ على القسمة الثنائية الحديثة للمجتمعات الإنسانية على أساس من الانتماء الدينيّ وليس على أساس الحقوق الإنسانية.

وأعتقد أنّ ما قدمه (صادق جلال العظم) من مطالب حيوية يمثل قراءة صحيحة للمصالحة بين اللاهوت والإنسانية، وقد قدمها في هيئة مطالب اجتماعية محضّة، واضحة المعالم وبخاصّة أنّه كتب كتابه باللغة الإنكليزية، فيما تشتد الحاجة لتحرير هذه المطالب وغيرها من التناقضات بين الإنسانية والشريعة بوساطة أدوات الفقه الإسلاميّ ووسائله، وهي ما تريد هذه الدراسة إثباته وتقديمه للقارئ الكريم.

تقدم هذه الدراسة المذهب الإنساني في الإسلام بوصفه أولاً توصيفاً لمشهد لم يغب قط عن ساحة المجتمع الإسلامي وأنه كان ينحسر ويشند تبعاً للواقع السياسي والاجتماعي، وبوصفه ثانياً مطلباً إسلامياً حقيقياً، ومع أنّ الرسول الكريم لم يقرره في سنته ولكنه كان صاحب الرسالة وسيتبناه لو عاش في هذا العصر وأدرك التحول الهائل الذي طرأ على البشرية وأسس للقرية العالمية الواحدة.

إنّ ما نتوجه لتأكيدِه هنا أن العقوبات الجسدية على مثلاً قد طبقت في المجتمع الإسلامي بحماس ولم يكن تطبيقها خطأً تأويلياً كما يذهب الدكتور شحرور بل كان تطبيقاً ملتزماً بنصّ الكتاب والسنة، ولكن هذا النصّ القرآني والنبويّ ليس سمردياً في كلّ زمان ومكان بل هو قادر على التطور والاستجابة للمطلب الإنسانيّ في كل زمان، وهو قابل للنسخ في عصر الرسالة وبعد عصر الرسالة عن طريق النسخ بالإجماع الذي حققه الأصوليون، أو على الأقلّ بأدوات التقييد والتخصيص والتأويل والتشابه المنصوص عليها في أصول الفقه الإسلامي إذا لم نشأ أن نذهب إلى الجراءة الحيوية التي تبناها عدد من الفقهاء في رفع الصوت بإمكان نسخ القرآن عن طريق إجماع المجتهدين من الأمة بوساطة برلماناتها ومجالسها المنتخبة.

ولا نشكّ أبداً في أنّ صاحب الرسالة لو أدرك التطور الكبير الحاصل في علم الجريمة والعقاب لأعاد كتابة قانون العقوبات من أوّله إلى منتهاه بروح مختلفة ضمن أهدافه البعيدة نفسها التي تتمثل في قمع الجريمة وحماية الإنسان.

وهكذا فإنّ هذه الدراسة تبحث معالم المذهب الإنسانيّ في الإسلام، في نصوص الكتاب والسنة، وتقاوم الفقه التمييزي المنكر لكرامة الإنسانيّ، كما ترصد الجهود

المستمرة لفقهاء الإسلام في تعزيز الدور الإنساني في الإسلام، والمشارك الذي تلتقي عليه الإرادات الطيبة في العالم لبناء إخوان إنساني حقيقي.



## الفصل الأول: مصطلح المذهب الإنساني

كثيرون على قيد الحياة... قليلون على قيد الإنسانية

الدين الإنساني، أو الإنسانية Humanism: مصطلح نشأ في نهاية العصور الوسطى وعدُّ تمرداً على موقف الكنيسة التي فرضت لاهوتاً تمييزياً صارماً حكم المجتمع الإنساني على أساس التمييز الديني، وتعدُّ النزعة الإنسانية إحدى أهم الدوافع التي أدت إلى وقف تغوُّل الكنيسة في الفكر والاعتقاد والسلوك ودفعت باتجاه قيَم الحضارة الحديثة.

ويمكن عدُّ المذهب الإنساني جواباً حدياً على تساؤلات الكهنة التي استقرت منذ القرن الخامس الميلادي على يد القديس أوغسطين؛ إذ قُسم العالم إلى مدينة الله أو مدينة الشيطان، فكان موقف الحركة الإنسانية افتراض مملكة أخرى هي مملكة الإنسان، وعدُّ الدين حصيلة القيم العليا المركوزة في الفطرة وليس حصيلة النصوص. ويُعبّر بالمذهب الإنساني عن الاتجاهات الفكرية والسلوكية التي تجعل الإنسان محوراً، وتكرس مفاهيمها وأدبياتها وتشريعاتها وفق القيم الإنسانية المشتركة بغض النظر عن الدين أو الفكر أو الممارسة الشعائرية.

والإنسانية ليست إيديولوجية، ولا هي حزب سياسي ولا منظمة اجتماعية، الإنسانية تفكير حرٌّ وتوجه نحو الإنسان وبديل عن العصبية الإيديولوجية.

الإنسانية كما قال سقراط ليست ديناً إنما رتبة يسعى إليها الجميع، وهي تيار في الأديان وفي السياسة وفي النضال الاجتماعي، ولعلّ من أوضح مزايا هذا التيار أنّ الجميع يدعيه، ويختاره عنواناً وشعاراً، ولكنّ التيارات التي تتبنى اتجاهها إنسانياً بالفعل يتجاوز الانتماء الدينيّ أو القوميّ أو العرقيّ أو الأسريّ؛ وهي تيارات محدودة للغاية، ويجب الاعتراف أنّه لا توجد هيئة مخولة لمنح هذه الرتبة للناس أفراداً ولا جماعات، ولعلّ من الواقعيّ أن لا يكون، فالتيار الإنسانيّ أوضح من أن يسميه أحد وأكبر من أن تخصص له جوائز أو موارد، فالسلوك الإنسانيّ والبرامج السياسية والاجتماعية تتغير باستمرار، ومن الواقعيّ أن تحظى بهذه الرتبة وأن تفقدها أيضاً ثم تستعيدها، وكلُّ نفس بما كسبت رهينة، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً.

ومن البداهة أن نقول إنّ المذهب الإنسانيّ هو حال الإنسان منذ بدأ حياته على هذا الكوكب، وهو بكلّ تأكيد أوضح ما يكون في العائلة الإنسانية الأولى، ولا بدّ أنّه كان يتجلى في كلّ منعطف تاريخيّ من تطور الإنسان في العالم، وسواء أقرأنا العالم على نسق آدم وحواء أم إيزانا جي وإيزانامي أم أهورا مزدا وأهرمان أم إنسان نياندرثال أم التفسير الدارويني للحياة، فلا شكّ في أنّ الإنسان كان واعياً لطبيعة تشاركه في العائلة الإنسانية بوجه ما، ولا شكّ في أنّه كان يرتد في لحظات من التأمل والنظر إلى معنى الأسرة الإنسانية الواحدة، فالنّاس من جهة الأحساب أكفّاء، أبوهم آدم والأم حواء.

وحقّي لا نستغرق في التصورات الأسطورية فإننا نتحول إلى التراث الشفاهي والمكتوب من كفاح الإنسان في مجتمعاته الحضريّة الأولى، وسنجد دون تكلف إرهاصات الوعي الإنسانيّ في التجارب القانونيّة الأولى التي سطرها الإنسان ومنها شريعة حمورابي وتأمّلات أخناتون وتراث فلاسفة اليونان الأوائل وبخاصّة سقراط في

إيمانه بالعائلة الإنسانية، ودعوته المستمرة إلى تعزيز وعي الإنسان بالأسرة الواحدة التي تنتشر في هذا الكون.

ولا نحتاج أيّ تكلف لاستنباط هذا الوعي من نصوص الديانات الإبراهيمية الثلاثة، فالإنسانية هي جوهر صحف إبراهيم وموسى، وجوهر الرّسالتين المسيحية والإسلامية، ويمكننا أن نجتمع آلاف النصوص المقدّسة التي تحدثت عن العائلة الإنسانيّة الواحدة وقيّم الإخاء الإنساني في التوراة والإنجيل والقرآن، على أنّه يجب الاعتراف بأنّ هذه الكتب الجليلة تحتوي أيضاً على مجموعة من النصوص التّمييزية على أساس الإيمان، تلك النصوص التي تنكر إنسانيّة الآخر وتأمّر بالتّمييز ضدّه لمجرد رفضه قيّم التّوحيد في الإسلام أو قيّم الطّبيعة الإلهية ليسوع في المسيحية، ولا يمكننا الهرب من هذه الحقيقة، ولكن يجب التسليم بأنّ النصوص الدّينية عموماً قائمة على التّأويل، والكلُّ يتأول، ولا مناص من تأويل آيات التّمييز لصالح آيات المساواة أو العكس، وقد اختارت هذه الدّراسة تأويل التّمييزيّ من النصوص والحفاظ على روح النّصّ الإنساني الغالب فيها، وسناقش ذلك على مستوى النّصّ الإسلاميّ في الفصول اللاحقة.

وتعدُّ فكرة الإنسانية من أكثر الأفكار رواجاً في خطاب الأديان الشّرقية خارج العائلة الإبراهيميّة، ولا نحتاج لأيّ تكلف لنجد الخطاب الإنسانيّ بصورة العميقة المؤسس على مبدأ أسرة واحدة تحت الرّب أو تحت الكارما الطّبيعية الشاملة، في وصايا كونفوشيوس ولاو تزو وبوذا، وهم الحكماء الثلاثة الكبار الذين أنجبهم الشّرق قبل الميلاد، وإذا أضفنا إليهم وصايا الفيدات التي تعتبر النّصّ المؤسس للوعي الهندوسي وبخاصّة نصوص الريجفيدات وشارفاكا ومهاباراتا 1500 ق.م فإنّه من السّهّل أن نجتمع رصيماً هائلاً من المعرفة العميقة بالأسرة الإنسانيّة الواحدة، ولا بدّ

هنا من التّحفظ نفسه الّذي سبقت الإشارة إليه وهو أنّ هذه النّصوص على ما تطفح به من قيمّ الإنسانيّة والعدالة والمساواة فهي أيضاً تحتوي على نصوص التّمييز ورفض الآخر حين ينكر الإيمان والتشكيك بإنسانيته أيضاً، والحال من بعضه كما أشرنا إليه، ولكنّ مفهوم المذهب الإنسانيّ بالمعنى الاصطلاحي الّذي ساد في القرون الأخيرة يمكن التماسه مبكراً لدى فيلسوف روماني بارز هو شيشرون، فهذا الخطيب الرّوماني الشهير قدّم رؤية بصيرة وواضحة بالمذهب الإنسانيّ، ومع أنّه خاض نضالاً سياسياً مريراً، وارتكب فيه حماقات السّياسيين وتجاوزاتهم، وانتهى به الأمر إلى الإعدام 43 ق.م، إلا أنّه حافظ على خطاب متوازن في التأكيد على الأسرة الإنسانيّة والقانون الطبيعيّ الإنسانيّ الّذي تتفق عليه الفطرة وفي تأكيد ذلك كتب كتابين اثنين على نسق أفلاطون في المدينة الفاضلة، وارتقى بالقانون من فهم أفلاطون الذي كتبه للمدينة الفاضلة إلى فهم آخر يرتبط بالقرية العالميّة والمدينة الكونية التي يتناثر أبنائها في العالم كلّه ويختلفون في الثقافات واللغات والمفاهيم والألوان والأشكال، ولكنهم متفقون على سلسلة من القيمّ هي -وفق شيشرون- مبادئ المذهب الإنسانيّ أو المبادئ فوق الدّستوريّة كما باتت تعرف اليوم، وهذه المبادئ -وفق شيشرون- لا يصعب الاتفاق عليها في كلّ مدينة في العالم؛ لأنّها تمجيد الصدق والأمانة والحق والعدل والمساواة ورفض الظلم والاستبداد والخيانة والقتل والغدر والسرقه، وغير ذلك من القيمّ الإنسانيّة المشتركة التي لا سبيل إلى التنكر لها.

تحدث شيشرون عن القانون الحقيقي المطابق للطبيعة، وأكد أنّه واحد في روما وفي أثينا وفي إسبارطة وفي شيراز وفي الإسكندرية، وهو واحد اليوم وغداً وفي كلّ زمان ومكان؛ لأنّه مؤيد بالفطرة الإنسانيّة العميقة أو بما يسميه: "القانون الأسمى المنقوش

في طبيعتنا"، هذا القانون الطبيعي هو الذي يربط الإنسان بالألوهية، وهو ما يجمع الناس على القيم والفضائل فيما بينهم، وهو المستوى العميق للقانون الحقيقي بخلاف القوانين المكتوبة والدساتير المتبدلة، وهو القانون الطبيعي الذي يجعلهم ينتمون للمدينة ذاتها، وهذه المدينة ما هي إلا الكون الذي يديره الوجود الإلهي ويبعث فيه رؤيته وإلهامه وفطرته.

إنَّ العدل هو طبيعة الإنسان ومثاله الأعلى، وكذلك قيم الحرية والكرامة والمساواة والصدق والأمانة، ومن الطبيعي أن تسود هذه القيم؛ نظراً لارتباطها بعميق المشاعر الإنسانية وأثرها في السلوك الباطن للإنسان.

ولكن شيشرون واجه ما واجهه الفلاسفة الآخرون من سؤال بدهيٍّ، فإذا كان الإنسان على هذا القدر من الاستقامة والنزاهة وعميق المعرفة بالقيم العليا فما سبب هذا الفساد المستشري في العالم؟! وكيف يمكن التوفيق بين هذه الفكرة وبين الواقع؟! ويعيد شيشرون إنتاج الفكرة إياها بالاعتراف بأنَّ الفساد والانحراف خروج على الأصل وهو شذوذ يمكن محاصرته ومراقبته بالروح الجماعية للأمة الراضية لكلِّ خلل في القانون الطبيعي، ويجب أن نراهن على انتصار العدالة وانهزام الجريمة؛ لأنَّ مكان القيم العليا في النفس الإنسانيَّة أعمق وأوثق من طارئ الخطيئة والانحراف.

ولكنَّ مصطلح المذهب الإنسانيّ ارتبط منهاجياً بالفيلسوف والشاعر المسيحي الإيطالي بتارك 1374م باعتباره أوَّل من استعمل هذا المصطلح في نهاية العصور الوسطى، وهو إصلاح ديني داخل الكنيسة الكاثوليكية وقد خاض حياة مزدوجة سياسية ودينية، ومع أنَّه كتب في البداية عن الأخوة الإنسانية المسيحية، ولكنَّه انتقل بصورة واضحة إلى الأخوة الإنسانيَّة، معترضاً على قيم الكنيسة التمييزية في العصور الوسطى وربَّما كان بتارك أوَّل من أطلق على حكم الكنيسة في أوروبا

مصطلح عصور الظلام، وطالب بالعودة إلى الروح المسيحية الأولى التي تؤمن بالإنسان عضواً في أسرة الله، "أبي وأبوكم الذي في السموات".

وإلى بترارك يمكن أن ننسب المقولة الشهيرة: "وطني العالم وديني الخير"، مع أننا لا نملك دليلاً على ذلك، ولكنها تعدُّ اختصاراً لفلسفته، وبالطبع لم تكن هذه الفلسفة لتروق للخطاب اللاهوتي الكاثوليكي، وبذلك يمكن القول إنها كانت إرهابات لقيام المذهب الإنساني في أوروبا، وقد ظهرت هذه النزعة بوضوح أكبر في أعمال تلميذه ليوناردو بروني 1444م ولكن هذه التوجهات الإنسانية كانت تنوس بين القبول الشعبي البدهي للفكرة الإنسانية وبين اعتراض الكهنوت الذي رأى فيها عبثاً في الثوابت المؤسسة للإخاء الديني، ومساواة المؤمن بالكافر، وبذلك فقد اشتدت هذه الاعتراضات مع بحوث غاليلو وكوبرنيكوس وكبلر التي دفعت الكنيسة للتشنج في مواجهة التجديد الديني بأشكاله كلها ومنه التوجه الإنساني الذي يتطلب تلقائياً تعطيل قوانين الإيمان التي أقرتها المجامع، والمشفوعة دوماً بحرم المخالفين وتجريدهم من الإنسانية، وكذلك النصوص الواضحة التي تقرر التمييز بين المؤمنين وبين الوثنيين أو المنكرين لطبيعة المسيح الإلهية.

ولكن بترارك وبروني لم يستخدموا مصطلح دين الإنسانية؛ إذ عدّ ذلك تحصيل حاصل، فالإنسانية هي جوهر الديانة المسيحية والمطلوب هو الإصلاح لا التبديل، وقد سبق إلى هذا المصطلح توماس بين 1809م الذي دعا إلى الدين الإنساني، بمعنى بناء ديانة جديدة قائمة على تقديس الإنسان بدلاً من الديانات التي تقوم على تقديس الإله.

ومع أن توماس بين لم ينكر قيم المسيحية وأصرَّ على المنزلة الفريدة والفاضلة للسيد المسيح، ولكنَّه أنكر التثليث واتحاد البشريِّ بالإلهيِّ، وعدَّ ذلك كلَّه وثنيات ضارَّة بالتَّوحيد.

وفي كتابه "عصر العقل" يؤكِّد توماس بين أنَّه لا يهدف إلى تدمير الدِّين وإنما يهدف إلى منع الفساد النَّاتج عن صورهِ اللاعقلانية الَّتِي تقوِّض باستمرار النظام الاجتماعي، وتفقدنا الأخلاق والإنسانية، وأكدَّ أن بإمكان العقل والفترة الوصول إلى القيم الإنسانية الرَّفِيعَة في الدَّاخل الإنسانيِّ العميق دون الحاجة إلى الكهنة، وختم مقدمة الكتاب بالقول: "إنني أومن بالله الواحد الأحد لا ربَّ سواه، وإنني آمل في تحقيق السعادة بعد هذه الحياة؛ أي: بعد الموت".

وفي خطاب أكثر وضوحاً كتب توماس: "عقلي هو كنيستي، والكنائس كلُّها لا تبدو لي أكثر من كونها بدع بشرية أقيمت لإرهاب البشر واسترقاقهم ولاحتكار السلطة وتحقيق المكاسب".

وكان معجبا بالمسيح بوصفه رجلاً فاضلاً ودوداً، وكان مقتنعا أنَّ الأخلاق والقيم اللتين بشرَّ بهما وطبَّقهما كانتا خيرتين إلى أقصى حدِّ، لكن حكاية كونه ابن الله ليست سوى خرافة مشتقة من خرافة شائعة بين الوثنيين، وأكدَّ توماس بين أنَّ الرجال المميزين كلُّهم الَّذين عاشوا في ظلِّ الميثولوجيا الوثنية قد كرروا الرُّغم بأنهم أبناء الآلهة، وحكاية أن المسيح ابن الله ليست جديدة ولا غريبة ولا مدهشة ولا فاحشة وإنما هي مجرد فكرة كانت موجودة بالفعل ومريحة و متمشية مع الدَّهنية الوثنية المتأصلة، أما اليهود الَّذين احتفظوا بالإيمان بإله واحد لا شريك له، فكانوا يرفضون دائماً الميثولوجيا الوثنية ولم يوافقوا قط على أن المسيح هو ابن الله.

وفي توضيح مذهبه الإنساني كتب: "لا يمكننا أن نوحّد أفكارنا كلها عن الله إلا من خلال الخلق، إنّ الخلق - الكون - يتحدث لغة عالمية - كونية - إنّ الكون كلمة الله التي توحى للبشر كلّ ما هو ضروري لمعرفة الله، إنّ بذل مزيد من الجهود لقراءة الكون أولى من بذل الجهود لتفسير النّصّ المقدّس، فالكون يأخذنا إلى اللغة الإنسانيّة الواحدة فيما يأخذنا النّصّ إلى وحدة الجماعة المؤمنة دون سائر النّاس. أتريد أن تتأمل قوّته؟ إنّها تتجلى في عظمة خلقه، أتريد أن تتأمل حكمته؟ إنّها تتجلى في سنن الكون التي لا يعترئها تبديل، السنن التي تحكم الكلّ الذي لا يحيط به أحد، باختصار أتريد أن تعرف الله؟ ابحث عنه في الكون في الآفاق والأنفس وليس في الكتاب المقدس.

ونكتفي بهذا القدر في سياق تعريف مصطلح المذهب الإنسانيّ، وسنعود إلى بيان قيمّ المذهب الإنساني في الإسلام وفي عصري النّهضة والأنوار الأوربيين.

### ولكن من هم هؤلاء الإنسانيون؟

حين تتألم لجرحك فأنت حي، وحين تتألم لجرح الآخرين فأنت إنسان.

يمكن القول ببساطة إنّهم الذين يعيشون للآخرين، يشعرون بهم ويحسون بمعاناتهم ويعملون على صناعة الشرائع بوجه أكثر عدالة للجميع، ويعترفون بالحقّ في الوجود للآخرين أفراداً أو جماعات أو قيماً ومثلاً علياً أو آمالاً وأحلاماً وطموحات، دون أن يتم انتهاك الحرية وحسن الجوار وقيمّ الحياة.

## ظهور الاتجاه الإنساني في الإسلام

وفي القرآن الكريم نصوص واضحة في محوريتة الإنسان ومركزيته، وستحدث عنها بالتفصيل، وكذلك لا يعسر اكتشاف الوجه الإنساني في خطاب الشريعة، ولكن علينا الاعتراف أنَّ المذهب الإنساني لم يتبلور في التراث الإسلامي التقليدي، وظلَّ الحديث عن الإنسانية والإنسان متناثرًا في ضفاف الأدب دون أن تنهض نظرية واضحة تحدد معالمه وتشير إلى قيمه وتكشف نقائصه ونواقضه، ولا يخلو من ذلك كتاب أو أدب أو تفسير أو رواية، ولكنَّ الوصول إليه لن يتم إلا بانتقائية شديدة وماكرة.

ويعدُّ عصر الخلفاء الراشدين عصرًا إنسانيًّا بامتياز؛ فقد أعلن الرّاشدون التناقض التام مع قيم الحضارتين السائدتين البيزنطية والساسانية، وبخاصةً ضدَّ الامتيازات الإمبراطورية التي كان يتمتع بها الحكام ويذلون بها شعوبهم، وهو العنوان العريض الذي حمّله الفاتحون حين كانوا يتحركون للعمل الحربي: **إِنَّ اللَّهَ ابْتَعَثَنَا لَنُخْرِجَ الْعِبَادَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى.**

ولا يمكن لأيِّ مؤرخٍ إلا أن يشيد بطبيعة الحكم الراشدي الزاهد في الدنيا ومتاعها، والراغب في إحياء قيم الإسلام، وما حقَّقه من إصرار على المساواة والعدالة، مع التسليم بأنَّ ذلك كان في إطار عفوي فطري وليس في إطار نظام قضائي وسياسي محكم، ولعلَّ من أقرَّ صور المساواة والعدالة التي يباهي بها المسلمون محاكمة (ابن عمرو بن العاص) وأبيه حاكم مصر في المدينة المنورة وضرب الجاني بالعصا وهو ابن عمرو بن العاص حاكم مصر وفتحها، وذلك؛ لإنصاف مواطن مسيحي شعر

بالإهانة، وفيها قال (عمر) رضي الله عنه: "يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا."

إنَّه من السهل أن نفهم السلوك الإنساني في الرعية من خلال هدي الرّاشدين، فقد عاشوا حياة زاهدة بسيطة، ولم يتخذوا حرسًا ولا قصورًا ولا بوابين، ولم يجمعوا ثروات طائلة، ولم يتورط أيُّ منهم في توريث الحكم لبنيه أو الرغبة في ذلك، وكذلك فإن الروح العامّة للعصر الراشدي كانت الانتصار للضعفاء ومحكمة الأمراء ولطم المستكبرين ومحاسبتهم واقتسام ثرواتهم، مع أنّهم كانوا من كبار الصحابة ومشاهير الإسلام.

على أن ذلك أيضًا لا يمكن أن يمر دون تكلف التبريرات والمعاذير لكثير من التّجاوزات الكبيرة التي وقعت في العصر الأوّل ضدّ القيم الإنسانيّة وخصوصاً في حروب الردّة التي وقعت في أيام (أبي بكر)، إذا ما تمّ تصديق الرواية الرسمية القائلة بأنّ الحرب كانت بسبب ردتهم عن الدين أو امتناعهم عن الزكاة، وهي تبريرات تؤكّد غياب المعنى الإنساني في التعامل مع الرعية؛ ولذلك كان اعتراض (عمر بن الخطاب) شديداً على هذه الحرب، ومع ذلك فهناك دراسات وجيهة تؤكّد أنّ الردّة كانت حالة انشقاق سياسي خطير، وأنّها هدّدت بانفصال الدولة ونفقتها.

ولا نذيع سرّاً إذا قلنا إنّ قيم المذهب الإنسانيّ باتت تتناقض حديثاً مع قواعد العقيدة الصارمة التي كرّسها التيار السلفي الإسلامي لتحكم العلاقات الإنسانيّة والمجتمعيّة، فقد كانت من الصرامة والقسوة بحيث تلقي بالآخر في الجحيم لمجرد الاعتقاد، بل إن مشاهير فقهاء العقيدة لم ينتظروا الجحيم الأخرى ضدّ المختلف اعتقاداً بل طالبوا بجحيم دنيوي، ومن المؤسف أنّهم نجحوا في ذلك إلى حدّ بعيد وفرضت في

الفقه الإسلامي أحكام القتل والتعذيب في الردة والزندقة وترك الصلاة وإنكار ما علم من الدين بالضرورة، وكذلك الجزية والقتال على المختلف دينياً وهو النقيض التام للمذهب الإنساني.

كذلك فإن المعاني الراشدية كلها قد انحسرت مع بدء العصر الأموي، وتحول الخلافة إلى ملك وسلطان، وعودة التقاليد البيزنطية والكسروية إلى المجتمع، وقيام الخلفاء الأمويين بجراحة هذه التقاليد وتكريسها نظماً وقوانين ملزمة، بل وإضفاء المعنى الديني عليها وهو المعنى الذي مكّنه من قتل الحسين واستباحة المدينة وقصف الكعبة بالمنجنيق ثم تبرير ذلك كله بحقّ الملك على الرعية ووجوب السمع والطاعة، وهي قيم تتناقض بالمطلق مع قيم العهد الرّاشدي، وتؤكد منطلق تحول الخلافة إلى الملك العضوض الذي يتناقض مع القيم الإنسانية الأولى.

ويمكن عدّ طلائع القدرية في العصر الإسلامي الأوّل إرهاباً بظهور المذهب الإنساني فقد دأب هؤلاء المفكرون الأحرار على تحدي السلطة الأموية في توجيهها السياسي والاجتماعي، وتحللها من الالتزام الإنساني، ورفض هؤلاء الأحرار الفكرة التي كرّسها الحكم السياسي من وجوب الطاعة للأقدار فيما كتبه الله من حاكم ورعية، ومضى هؤلاء المعارضون إلى كسر القيود التي ترهق كاهل الإنسان بوصفه آلة أحكمتها الأقدار وكتبت مصيرها المحتوم منذ الأزل، ولم يعد أمام الإنسان إلا تنفيذ النّصّ المسرحي المكتوب الذي لا يملك الحيدة عنه، وهو فهم يتناقض تماماً مع الحرية والإرادة، وهو في الواقع أكبر الأسئلة في علم الكلام التاريخي، وكان من أبرز هؤلاء (الجمع بن درهم) و(جهم بن صفوان) و(غيلان الدمشقي)، وكلّهم ممن قام حكام بني أمية بتصفيتهم بتهمة الهرطقة، ولكنهم سجلوا حضوراً واضحاً ومؤثراً في المطالبة باعتبار أكبر للإنسان في السياسة والمجتمع والدين.

وفي تطور لافت قام هؤلاء المفكرون الأحرار برفض فكرة القدر كليها وأعادوا الاعتبار للإنسان نفسه ليكون سيّد قدره، ومسؤولاً عن أدائه في الأرض يعمل بما يتخير من قيم، ويقف أمام الله تعالى يتحمل مسؤولية ما اختار، ولم يعد هؤلاء المفكرون نصوصاً كثيرة في القرآن تؤيد توجيههم الإنساني؛ إذ اعتصموا بعشرات الآيات التي تشير إلى مسؤولية الإنسان، وأن الأقدار ليست مكتوبة في الأزل بل ستكتب شهادتهم، ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١]

﴿إِنَّا نَحْنُ مُخِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]

﴿كَأَلَمْ نَكْتُبُ مَا يُقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]

﴿سَنَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]

وغيرها من الآيات التي تدل على أنّ اللوح والقلم فكرة غير منطقية بالتلقين الديني التقليدي، وأنّ الأقرب إلى كرامة الإنسان أن يكون حرّاً ومسؤولاً وليس محض آلة عمياء تقع عليها الأقدار.

ولا يعجزنا التقاط المواقف الإنسانية في سلوك الخلفاء وكلام الأدباء في التاريخ الإسلامي، ومن أشهر فلاسفة المذهب الإنساني في الإسلام (أبو العلاء المعري) و(الجاحظ) و(عبيد الله بن العنبري) و(ابن سينا) و(الفارابي) و(ابن رشد) و(ابن عربي) و(جلال الدين الرومي)، على أنّه لا يعجزنا التقاط النهج الإنساني من كل إمام في التاريخ الإسلامي، ولكن لن ينتج من ذلك كلّ مذهب مكتمل الأركان واضح البنين.

## المذهب الإنساني في عصر النهضة الأوروبي

الإنسانية ألا تتمّ التضحيةُ بإنسان في سبيل غاية

ألبرت شفايتزر

ويمكن القول: إنّ تبلور المذهب الإنساني ظهر في أوروبا في عصر النهضة، حين بدأ الأحرار الأوروبيون حملة غضبٍ ماحقٍ على ممارسات الكنيسة في العصور المظلمة التي كانت تصدر باسم الربّ عبر تراتبية كهنوتية معقدة لا مكان فيها للإنسان بل هي محض إبلاغ عن قرار اللاهوت الذي لم يتورع في الحكم على المختلف دينياً بالحرق والقتل والتعذيب في صور بشعة مريرة لا تزال تداعياتها وتفاصيلها تملأ كتب التاريخ، في أشدّ صور احتقار الإنسان وإذلاله.

وقد شهد القرن السادس عشر بالفعل الثورات الغاضبة ضدّ السلوك اللاإنساني للكنيسة، وظهرت اللوثرية والكالفنية والزونجالية وغيرها من حركات التمرد الديني إلى جانب الحركات الإنسانية التي كانت لا تعتمد خطاباً لاهوتياً، إضافة إلى حركات الإصلاح داخل الكنيسة نفسها وعبر عدد من البابوات المتنورين الذين حاولوا أن يوقفوا بطش اللاهوت ضدّ تيارات الإنسانية.

ويمكن الإشارة خصيصاً إلى دور فلورنسا الجوهري في ازدهار المذهب الإنساني فقد كانت فلورنسا في القرن السادس عشر مركز استقطاب كبير للثقافة والفن والمعرفة،

وفيما تفوقت جنوة ونابولي والبندقية في التجارة الدَّولية؛ فقد ازدهرت فلورنسا بوصفها مركزًا للآداب والفنون وظهر فيها الفلاسفة الكبار وكذلك الفنانون والشعراء الذين أغنوا المجتمع الأوروبي لقرون عدَّة.

وتركز التوجه الإنساني في فلورنسا إلى رفض أثر اللاهوت في التحكم بالإنسان وطالب مفكرو عصر النهضة بعودة سلفية عميقة تتجاوز الألف عام الأخيرة التي خضعت فيها أوروبا لسطوة الكنيسة ودعوا إلى إحياء الحضارة الرومانية واليونانية القديمة التي كانت قائمة على ديمقراطيات دينية توفر للإنسان الاختيار والانتقاء، وتفرض جوًّا تنافسيًّا محوره الإنسان، وتتشارك فيه الآلهة بنشوة وحماس للوصول إلى تفاعل إنساني حرٍّ في صناعة الحياة بعيدًا عن قيود اللاهوت.

وقد توضحت معالم هذا التوجه فيما بات يعرف **بمجلس فلورنسا**، وهو المجلس الذي ضمَّ علماء القسطنطينية الذين فُروا منها قبل سقوطها بيد العثمانيين ومعهم نفائس المعرفة وكنوز الكتب القديمة وقد تحررت من سطوة الكنيسة وباتت متاحة لكلِّ قارئ، وقد انضم إليهم المفكرون الإنسانيون العلمانيون الذين يشاركون البروتستانتية غضبها على اللاهوت ولكنهم لا يشاركونها التزامها بالنصِّ المقدس.

وتركزت معالم المذهب الإنساني في فكرة مركزية وهي التحول إلى التفكير في الإنسان بخلاف التوجه الكنسي الصارم الذي كان يأمر باستمرار بالتفكير في الإله.

وفي فلورنسا قامت أكبر حملة ترجمة لثقافات الأمم وكنوزها الفكرية، وظهر أكبر الفنانين والمبدعين والأدباء من أمثال (بترارك) عميد الأدب الإنساني و(مونتيني) و(روفائيلو) و(مايكل أنجلو) و(ليوناردو دافنشي) وغيرهم من أعلام عصر النهضة

الذين سخروا الفن والثقافة لخدمة التوجه الإنساني العابر للأديان والثقافات والمذاهب.

ولا بدّ من القول بأنّ النزعة الإنسانية في تلك المرحلة كانت بشكل ما نضالاً ضدّ الدّين، وكانت تمثل تمرّداً أساسياً ضدّ الكنيسة، وهو ما يختلف عن التوجه الذي نقصده في دراستنا هذه، ويشرح الدكتور (عماد الدّين عبد الرزّاق) النزعة الإنسانية "الأنسنّة" لدى ظهورها في أوروبا بأنّها "اتجاه فكريّ عام يشترك فيه عددٌ من المذاهب الفلسفية والأدبية والأخلاقية والعلمية"، ولقد ظهرت واكتملت بوضوح في عصر النهضة.

وتمثل النّزعة الإنسانية وهو تيار ثقافي ازدهر في أوروبا وينظر إلى العالم بالتركيز على أهمية الإنسان ومكانه في الكون. وللنزعة الإنسانية جذور وأسلاف في الفكر اليوناني القديم، إذا رجعنا إلى تلك البدايات نجد أن (طاليس) و(أكذينوفان) فيلسوفان يونانيين بدلاً من الأساطير القديمة، ومن ثمّ يمكن القول بأنهما أوّل الإنسانيين اليونانيين. كذلك (بروتاجوراس) أحد السفسطائيين والذي أكّد في مقولته الشهيرة "الإنسان هو مقياس الأشياء". ولقد تطورت تلك النزعة حتى وصلت إلى مرحلة النضج والاكتمال في عصر النهضة الأوروبية، وركزت على الإنسان وتحريره من ريقه وأغلال وقيود العصور الوسطى وسيطرة الكنيسة، الإنطلاق بالإنسان إلى آفاق رحبة، ومن خلال تلك الأفاق تنطلق قدراته وإبداعاته وعقله، فالنزعة الإنسانيّة ليست نسفاً فلسفياً محدداً وجامداً، ولا هي تعاليمٌ مغلقة على نفسها، بل حوار

دائم شهد وجهات نظر مختلفة وما يزال، وتظلُّ النزعة الإنسانية مع كلِّ هذا تعبيراً عن وجهة نظر شخصيَّة، مركزها ونقطة انطلاقها هي الإنسان<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> صحيفة المثقف الأسترالية عدد 2021/7/7 مقال للدكتور عماد الدين عبد الرزاق.

## المذهب الإنساني في عصر الأنوار الأوروبي

"ولو كانت سعادة البشرية تتوقف على  
قتل شخص بريء؛ لظلَّ هذا القتل عملاً  
غير أخلاقيّ"

إيمانويل كانت

وفي عصر لاحق ظهر فلاسفة عصر الأنوار الذين تبناوا التوجه الإنساني في فهم الدين والسياسة، وأسهموا في خروج أوروبا من العصور المظلمة إلى العصور الحديثة، وأعادوا الاعتبار للإنسان بوصفه محور الدين والفلسفة والحكمة، وبوصفه غاية السياسة والحكم والحرب والسلام، وقد ظهرت النزعة الإنسانية بوضوح فيما كتبه (رينيه ديكارت) و(إيمانويل كانت) و(سبينوزا) و(جان جاك روسو) و(فولتير)، وعبر عنه بوضوح شعراء تلك المرحلة وأبرزهم بالطبع (شكسبير) في معظم أعماله الأدبية وخصوصاً في مسرحيته (كاتلين) و(تاجر البندقية)، وكذلك أعظم شعراء ألمانيا (يوهان جوته) الذي كتب في الرُّوح الإنسانية للأديان وأفرد فصلاً خاصاً للحديث عن الرُّوح الإنسانية في تعاليم النبيِّ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في وقت كانت فيه المجتمعات الأوروبية أسيرة الحروب الصليبية الطاحنة التي لا ترسم الشرق الإسلامي إلا شيطاناً ماكراً عدواً للمسيح، وانطلاقاً مما كتبه هؤلاء فقد بدأ التفكير بوحي ديني مختلف تحت عنوان الدين الإنساني.

أمَّا الدِّينَ الإنسانيّ، فهو في الواقع محاولات لترتيب قيم الدِّينِ المختلفة على محورية الإنسان؛ إذ تكون الشرائع في خدمة الإنسان، وليس الإنسان في خدمة الشريعة، وهذه القيمة مركزية وأساسية في القرآن الكريم ويمكن فهمها بوضوح من خلال متابعة قصة الخلق ومكان الإنسان فيها؛ إذ تدل الآيات الكثيرة التي شرحت قصة الخلق الأوّل أن الله أمر ملائكته جميعاً أن يخشوا لآدم ساجدين، وهو سجد تسخير وطاعة يتعين من خلاله مكان الإنسان المتقدم ومركزته في الشريعة والحقيقة، وبذلك فإنّ الذاريات ذرّوا والحاملات وقرراً والعاصفات عصفاً وكلّ ما خلق الله من ملائكة مقربين قد سجدوا سجود طاعة وتسخير لآدم، ومن الجدير بالذكر: إنّ هذا التكريم هو الإنسان ذاته، وذلك قبل أن تنزل الكتب وتأتي الأنبياء وتظهر الأديان.

وقد تحدّث في الدِّين الإنساني عددٌ من الفلاسفة ومن أبرزهم: (لودفيغ فويرباخ) (1804-1872م). ومع أنّ (فويرباخ) يعرف عادة بأنّه فيلسوف المادية، ولكنّ المدّش أنّ دراساته كلّها تكاد تكون في الدِّين، ولكنّ موقفه المتشدد تجاه الكاثوليكية دفع كثيرين إلى تصنيفه فيلسوفاً للماديّة المناهضة للدين. أكّد (فويرباخ) أنّ الدِّين أقوى غرائز المجتمع، ولكن لا بدّ من تجاوز الفهم الحرفي للدين، ولا بدّ من تجاوز رؤية اللاهوتيين والكهنة الذين يقدمون الدِّين على هيئة وصفات ووصايا بعيدة عن الحاجات الإنسانية للمجتمع.

لقد أبدى فويرباخ إعجابه بالبروتستانتية لجهة أنّها ركزت على الإنسان، فرأت المثل والغاية والقدوة في يسوع، وعدّ ذلك رحيلاً من الميتافيزيق إلى الفيزيق، أو بمعنى آخر وفق تعبيره «إنّ الأنثروبولوجي هو سرّ حقيقة الشيولوجي».<sup>2</sup>

<sup>2</sup> الخميسي، عبد اللطيف، فلسفة الدين وجدل اللاهوتي والأنثروبولوجي عند فيويرباخ، نشر مؤمنون بلا حدود، عدد كانون الأوّل/ديسمبر 2015م.

لقد كان يرى أنّ الثيولوجيا هو أسلوب الكنيسة التاريخي لبناء القيم الإنسانية في المجتمع، ولكنّ اللاهوت تحوّل إلى غابة من الطقوس والإكليروس غارق في الميثولوجيا، تتركز أهدافه في الغيب ولا تلتفت إلى عالم الشهادة، وهو يرى أنّ هذا هو جوهر الثورة البروتستانتية على تغول الكهنوت. ويتحدث عن جوهر العبادة الذي يحدده اللاهوت في البحث عن الله، فيما يرى (فویرباخ) إنّ البحث عن الإنسان، وأنّ يسوع نجح في تنزيل القيم السّماويّة إلى قيم إنسانيّة أرضيّة، وقد اكتفت البروتستانتية بهذا، وتجاوزت شروط الكهنوت كلّها، فأصبح البحث عن الله هو البحث عن الإنسان نفسه، وأنّ التوجه إلى الله ليس إلا التوجه للمرأة؛ إذ يبدو الإنساني التفاضيل جميعها في النهاية، وأنّ الإنسان يبحث عن ذاته في البداية في ذات خارجه عنه، ولكنّه حين يكتشف ذاته يتضاءل اتصاله بالغيب تدريجيّاً، وتغدو المسألة بناءً للذات الإنسانية، وحين تكتشف الثور الذي في قلبك فستعلم أنّه في كلّ قلبٍ نور، إنّ الدّين في حقيقته هو سلوك الإنسان نحو ذاته، وهكذا يتحول إلى قراءة الذات الإنسانية السّاميّة من خلال تجارب الصّلاة والرّوح.

والحقّ أنّ هذا المعنى سبق إليه (هيغل) أيضاً (1770-1831م) فقال: "لا يجب أن يقتصر الدّين على العقائد الجامدة ولا ينبغي تعلّمه من الكتب ولا يجب أن يكون لاهوتياً بل بالأحرى أن يكون قوة حية تزدهر في حياة الشعب، في تقاليدته وأعماله واحتفالاته، وعليه ألا يكون أخروياً بل دنيوياً إنسانياً، وعليه أن يمجّد الفرح والحياة الأرضية وليس الألم والعذاب وجحيم الحياة الأخرى"<sup>3</sup>

<sup>3</sup> رجب، محمود، الاغتراب سيرة مصطلح، ص119.

ويميز (هيغل) بين نوعين من الدين: الدين الموضوعي وهو اللاهوت، والدين الذاتي الذي تحوّل إلى حياة دينية تشرق فيها معاني الدين لتعزز الإيجابية والأمل في الحياة. ومن المؤكد أنّ (فویرباخ) و(هيغل) كذلك معترضان أشدّ الاعتراض على احتكار الخلاص أو احتكار الحقيقة الذي يتبناه اللاهوت، وأنهما يؤسسان لدين يقوم على الإنسان أصلاً، ويفرض الزيادات اللاهوتية، ويعمل ليعيش النَّاس في طمأنينة ومحبة وسلام.

بل يمكن القول إنّ اعتراض (فویرباخ) ليس على احتكار الخلاص بل على فكرة الخلاص نفسها؛ إذ يجب أن يكون الخلاص شأنًا دنيويًا محسوسًا، وليس شأنًا ميتافيزيقيًا يرسمه الكهنة بعيداً عن حاجات الإنسان وقوانين العدالة.

وإذ نشير إلى التعليل الفلسفي للدين الإنساني الذي قدّمه (فویرباخ)، وهو تعليل يقترح في النهاية نمطاً من وحدة الوجود تشبه تلك التي تبناها الصوفيّة في الإسلام وبخاصّة (ابن عربي) و(ابن سبعين)، فإننا نشير إلى أنّ الجانب الأكثر وضوحاً في محورّية الإنسان هو الجانب الاجتماعي بعيداً عن اللاهوت؛ إذ يكون الإنسان في سعاده واستقراره وتحقيق ذاته هو الهدف الحقيقي للأديان.

«إنّ نقد فویرباخ للإيمان، في المعتقد الديني المسيحي، هو بناء جديد لأخلاق النزعة الإنسانية الجديدة، من هنا فالإيمان ليس له إذن أيُّ معنى فاضل، إنّ الفضيلة لا توهب دينياً بل تؤسّس عملياً، ومن خلال الفعل الإنساني»<sup>4</sup>. إنّ الإنسان هو قاعدة الأخلاق التي هي أساس أفعاله.

<sup>4</sup> الخميسي، عبد اللطيف، فلسفة الدين وجدل اللاهوتي والأنثروبولوجي عند فویرباخ، نشر مؤمنون بلا حدود، عدد كانون الأول/ديسمبر 2015م.

ومن المؤكد أنّ الاتجاه الإنساني يعدُّ مذهباً قوياً في كلّ دين، ويخوض الإنسانون باستمرار حوارات صاحبة مع التيارات التي لا تلتزم محورتيّة النص وتراجع بالإنسان إلى الوراء، وتقتصر في وعيها برسالة الدين على تنفيذ مقتضى حروفه ونصوصه.

وفي الهندوسية يمكن القول: إنّ الشاعر الهندي (رابندانان طاغور) كان من أبرز دعاة بناء الدين على المنطق الإنساني، واحترام الروح الكامنة في الإنسان باعتباره انبثاقاً من الخالق سبحانه، وتحليلاً لكمالته وإرادته.

«إنّ الهدف الأساسي للأديان ليس دخول الإنسان الجنة، بل دخول الجنة إلى الإنسان، والإنسانية هي معنى أسمى من الأوطان والقوانين والأديان، وسنكون متوحشين إذا وافقنا على التضحية بإنسان من أجل غاية، مهما سربلناها بالقداسة والنبل، ومهما يكن من شيء فلن أرتكب الخطيئة الخطيرة، خطيئة فقد الإيمان بالإنسان».<sup>5</sup>

ونشير أيضاً إلى موقف لافت ومهم للشاعر الألماني (يوهان فولفغانغ غوته) صاحب نظرية عالميّة الأدب أو الأدب العالمي، وقد قدّم رؤيته عن إخاء عالمي في حضن الثقافة والمعرفة، وتخيّل أنّ الآداب المختلفة ستجتمع كلّها في أدب واحد كبير تقوم فيه الشعوب بدور الروافد التي تصبُّ إنتاجها في هذا النهر الكبير أو الأدب العالمي؛ إذ كان (غوته) يؤمن بالإنسانية الواحدة، كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً، يتعاون أفراداً وجماعات على طريق الحكمة، ويسعى إلى الحقِّ والخير والجمال، ينأى بنفسه عن الهمجية، ويستمسك بالقيم السامية بالتسامح والمحبة والسلام. فالفن الحقيقي حسب الشاعر الكوني (غوته) هو الشيء الذي يستطيع أن يوحد بين البشر،

<sup>5</sup> طاغور، رابندانان، البيت والعالم، ترجمة د. شكري محمد عياد، ص8.

ويجمعهم على التفاهم والمحبة والاحترام والإنصاف، ويعد ديوانه (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي)، الذي أشاد فيه بطبيعة الإنسان وقواها؛ إذ يحمل طابع التفاؤل والإقبال على الحياة، ويدعو إلى المؤاخاة بين الأمم والشعوب.<sup>6</sup>

وبالطبع فإنّ ما نرويه هنا عن القيام الأوروبي ليس إلا مثلاً يمكننا البحث على منواله في قيام الأمم، فاحتكار الخلاص واحتكار الحقيقة هي إحدى أمراض الأمم الخطيرة التي ينبغي أن يواجهها الحكماء في كلّ زمان ومكان.

---

<sup>6</sup> عمارة، يحيى، مجلة تعايش، الإمارات، العدد ديسمبر 2019

## الفصل الثاني: المذهب الإنساني في الإسلام

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَا هُمُ فِي الْبَرِّ  
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى  
كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]

حين نتحدث عن مذهب إنساني في الإسلام فنحن نعترف مسبقاً بأن هذه القيم التي نؤكد عليها وتبناها ليست خياراً اتفاقياً بين الفقهاء، وإنما هي تيار إسلامي حقيقي يعتمد الإنسان محوراً في التشريع ولا يقبل المساس بكرامته ولا إنسانيته ويرفض التمييز بصورة كلِّها الممارسة ضده، وبخاصة ضد المرأة وضد المختلف في الدين، كما يرفض التعذيب بصورة كلِّها في نظم العقاب، كما يعدُّ القيم الإنسانيَّة أولى بالاعتبار من النصِّ الدينيِّ؛ إذ هي في العمق جوهر الدين ورسالته، فيما النصُّ حمَّالٌ أوجه، ويحتاج باستمرار إلى قراءة تأويلية، وتتغير الأحكام بتغير الأزمان، وأنَّ على النصِّ الديني أن يحتكم إلى القيم الإنسانيَّة وأن يتم تأويله بما ينسجم مع هذه القيم، وليس أن يتم تغيير القيم لتناسب مع ظاهر النصوص.

ولا شكَّ في أنَّ هذه المطالب التي نشير إليها ليست محل قبول من جمهور رجال الدين، وكذلك من فريق كبير من رجال الإسلام السياسي، على قناعتنا بحضور هذا الوعي بشكل عفوي وسلس في الإسلام الشعبي أو في المجتمعات الإسلامية ذات

الانتماء البسيط للإسلام ذلك الانتماء الذي لم يتأسس على دراسة العلوم الشرعية عن طريق رجال الدين في المدارس الدينية.

وأمام هذه الحقيقة فلا مندوحة من الاعتراف بأنَّ هذه الاتجاه المتطور في التعامل مع الشريعة في شقها الإنساني لا يزيد عن كونه مذهباً في الإسلام، وهو ليس مخلوفاً بالحديث عن جمهور الفقهاء، كما أنَّ جمهور الفقهاء ليس مخلوفاً بالتحدث نيابة عنه.

إننا نأمل أن يكون المذهب الإنساني في المجتمعات الإسلامية شريكاً في بناء الثقة بالإسلام والتصالح مع قيم الحضارة، والعمل بروح الزمالة والشراكة مع الاتجاهات الإسلامية الأخرى التي لا تقبل هذا التوجه الإنساني بصورته التي نقمها، وإن كان الجميع يقبلون دون تحفظ مصطلح الإنسانيَّة والإنسان وصفاً لكلِّ حكم شرعي، ولكلِّ ممارسة فقهية، بل ويؤكدون أنَّ أشدَّ القوانين العقابية قسوةً وشدَّةً وصرامة هي ممارسات إنسانية في المال، وفق عنوان يتكرر دوماً بأنَّ قطع يد واحدة سيؤدي إلى سلامة أيد كثيرة، وأنَّ قتل جانٍ واحد سيقمع الجريمة ويوفر للمجتمع الأمان، وهي قراءات ارتجالية عاطفية لا تؤيدها بأيِّ شكل الأرقام والحقائق العلمية الموضوعية الصادرة عن جهات الاختصاص والخبرة الموضوعية.

## ملامح المذهب الإنساني في الإسلام

- ويمكن تحديد ملامح المذهب الإنساني في المحددات الآتية:
- التأكيد على أنّ الإنسان سيّد الكون، وهو خليفة الله على الأرض
- التأكيد على أنّ الكون مسخر للإنسان، وأنّ الإنسان مدعو لتسخير الكون
- عدُّ حقوق الإنسان التي أقرتها الشريعة الدوليّة نصّاً مؤسساً للقيّم الإنسانيّة
- عدُّ الكرامة الإنسانيّة غايةً نهائيّة في كلّ تشريع
- تأويل نصوص الكتاب والسنة تأويلاً يحقّق محورية الإنسان وكرامته
- رفض كلّ تشريع ينطوي على إهانة الإنسان أو التمييز بين النّاس
- تعزيز المشترك الإنساني بين البشر على اختلاف أديانهم وألوانهم ومذاهبهم

وفي الواقع فإنّ الوصول لهذه الغايات لن يتم دون مواجهة مباشرة مع كثير من المسلّمات، ومن المؤسف أنّ هذه المسلّمات صُنفت في باب الثوابت ويات الحوار فيها يستلزم حتماً صراعاً مع الكهنوت الديني، الذي يصرُّ على أنّ النّصّ الديني غيب لا يمكن تعقله، وأنّ الله تعبّدنا بالسمع والطاعة، وأنّ الإنسان كتلة غرائز وهوى يتعين قمعها للحصول إلى النعيم المقيم، وأنّ القرآن الكريم طافح بالحديث عن بؤس الإنسان وضعفه وعجزه ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾<sup>٦</sup> وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ<sup>٧</sup> وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ<sup>٨</sup> [العاديات: ٦ - ٨]

وأنّ الإنسان خلق ضعيفاً وجهولاً وأكثر شيء جدلاً، وأنّه ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾<sup>٩</sup> [عبس: ١٧]  
وأنّه ﴿هَلْ أُنِىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَئِيكَ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾<sup>١٠</sup> [الإنسان: ١]

ومن كانت هذه حاله كان هالكاً يحتاج إلى الرُّشد، وتائهاً يحتاج إلى الهدى، وضالاً يحتاج إلى اليقين، وأنَّ الإنسان ليس محوراً ولا هدفاً، وأنَّ عليه أن يمثّل لأمر السماء كما يشرحه فقهاء الكتاب، وأنَّ علينا أن نتوقف عن الثقة بالإنسان، ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ يَدِينِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٦]

فالإنسان أوّله نطفة مذرة وآخره جيفة قدرة، وشأنه أن يخضع للأمر والنهي، فهو جاهل قاصر، وعسى أن يحب شيئاً وهو شرُّ له، وعسى أن يكره شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً.

لا يريد الكهنوت للإنسان أن يثب على قدمين، فالإنسان كما يفهمونه كائنٌ جاهل مغرور، سقط في الخطيئة وحرّم من السماء، وألقي على الأرض جاهلاً أبه، لا يفقه شيئاً إلا الخطيئة، يحتاج إلى مرشد وعصا، إنّه أعمى يحتاج إلى قائد، وجاهل يحتاج إلى معلم، وعاصٍ يحتاج إلى التوبة، وضال يحتاج إلى الهدى، وغاية ما ينفعه في الدنيا والآخرة هو الطاعة المطلقة لما يخبره به الموقعون عن ربِّ العالمين، الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

تتجه هذه الدراسة إلى رفض هذه القراءة المستعلية رفضاً تاماً، وتدعو لبناء فهم مختلف للإنسان محرر من نزعة الخطيئة وثقافة السقوط، قائم على حقِّ الإنسان في الحرية والاختيار، وحقه كذلك في الخطأ والتجربة، واحترام إرادته أني توجّهت، والاعتماد على ما أودع الله في ذات الإنسان من قيم ومثل وفضائل، والتأكيد أنّها قادرة على بناء الإنسان السويّ دون حاجة لثقافة التهديد والوعيد، والترهيب بسوء المصير، وبناء استقامته في الأرض على أساس الفضيلة والضمير وليس على أساس الخوف والذعر من المشهد الأخروي.

أمَّا الجانب الأكثر أهمية الذي يثيره هذا الكتاب فهو الوعي بدور الإنسان في الشريعة، ومناقشة الفكرة القائلة بأنَّ الشريعة نصوص منزلة يمنع فيها الاجتهاد، وأنَّ مكان الإنسان في الشريعة أن يقول سمعنا وأطعنا، وأنَّ التشريع برمته شأن إلهي ولا دور للإنسان إلا تفسير كلام الوحي وتنفيذه، وهذه صورة من أكثر الصور جدلاً في الوعي بعلاقة الإنسان بالأديان.

وتصرُّ هذه الدراسة أنَّ الإنسان في مسيره الحضاري قد أنجز تطوراً كبيراً، ومن الوهم أن نتصور التطور في الأفق البيولوجي وحده، أو في الإنجاز التكنولوجي، بل إنَّ التطور بات أوضح في الجانب الاجتماعي، وقد أنجز الإنسان تقارباً هائلاً من أخيه الإنسان، ونجح في إسقاط النظم التمييزية والعنصرية، وباتت شرائع العالم كِلِّه تنصُّ على أنَّه لا فرق بين أبيض وأسود ولا عربي وأعجمي ولا غني وفقير إلا بالعمل الصالح، وحققت الأمم المتحضرة قدراً مذهلاً من المساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتطورت القوانين بصورة مدهشة باتجاه التكافل الاجتماعي، ورعاية الضعفاء والبؤساء، وحماية المهاجرين واللاجئين وإنصافهم.

إنني مقتنع تماماً بأنَّ الإنسان في الدُّول المتحضرة يعيش اليوم عصراً ذهبياً في حقوق الإنسان، وسأسمع على الفور ردوداً قاسية على هذه الحقيقة بأنَّ الإنسان الغربي بنى حضارته ونجاحه على دمائنا ونهب خيراتنا، واستعمار بلادنا، ويؤسفني أنني لا أتفق في هذه النقطة مع الآخرين في قليل ولا كثير، فما علاقة النجاح بظلم الآخرين، ومتى كانت النرويج والسويد وسويسرا والنمسا والدمرك واستكتلندا وغيرها من الدول العليا في الحقل الإنساني محتلة لبلادنا ومستعمرة لأرضنا؟

إنَّ التعلل بالاستعمار بات يحمل مغالطات لا تنتهي، وعلى كلِّ حال فقد انتهى عصر الاستعمار منذ سبعين سنة، وهي فترة كافية للأمم لتطوي صفحات وتفتح صفحات، وقناعتي أنَّ الاستعمار يتحمَّل مسؤولية الفشل العربي بواقع عشرين بالمئة فيما يتحمل الاستبداد والقابلية للاستعمار أكثر من ثمانين بالمئة من المسؤولية.

ويتعين السؤال، أين نجد المذهب الإنساني في المصادر التشريعية في الإسلام؟

ويؤكد كاتب هذه السطور أنَّ المذهب الإنساني موجود في تفاصيل الشريعة وقيمها وغاياتها ومقاصدها، ولكنني أعتزف مسبقاً بأنَّ التراث الإسلامي حافل أيضاً بالمواقف المختلفة ضدَّ المذهب الإنساني، وليس في هذا أيُّ جديد فقد كتبت عشرات المرات أنَّ التراث الإسلامي ديوان كبير من الحكمة والفقه والاختلاف والاتفاق، ولا يمكن أن نستنتج من هذا التراث موقفاً واحداً منسجماً، ونحن ننتقي من هذا التراث أقومه وأحسنه وأعدله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وقد تجد النَّصَّ أو الفكرة في عصرٍ ما إنسانية وأخلاقية متسقة، وتبدو في عصر آخر بخلاف ذلك، وهذه طبيعة الأشياء، وافترض صلاح العبارة في كل زمان ومكان وهم وخطأ، وهي مغالطة منطقية كبيرة ينكرها النَّصُّ الديني نفسه الذي صرَّح في صريح القرآن الكريم بأنَّ في القرن نفسه ناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وظاهر ومؤول وعام وخاصُّ وهذه حقائق يتعامل معها الأصوليون وفق منهج منطقي معروف لا يجدون فيه أيَّ حرج، فيما أصبحنا في عصر الإطلاقات اللفظية وبات كلُّ اقتراب من المقدس مغامرة خطيرة قد تؤدي بصاحبها إلى الكفر مهما كان موقفه نبيلاً وغاياته سليمة.

ويمكننا أن نشير هنا إلى عدد من المقاصد الشرعية المعترية التي أسست للمذهب الإنساني في الإسلام، وهو ما نفضله في هذا الكتاب:

- موقف الإسلام الشجاع والجريء في رفض العبودية وتحرير العبيد والإماء، وسأكتب في هذا الأمر مطولاً، ويصّر كاتب هذه السطور أنّ النبي الكريم قاد حملة إنسانية هائلة لتحرير العبيد وأنّه أنجز التحرير الكامل للسبايا والعبيد، ومات وليس في جمهوريته عبد ولا أمة، وأنّ الممارسات التي وقعت في حياته كانت استثناءات ضيقة ختمت يوم الجعرانة بإعلان واضح صريح بمنع الاستعباد والاسترقاق بصوره كلّها، وأنّ الرّق بات حراماً في العصر النبوي والعصر الراشدي، ولكن من المؤسف أنّه عاد من جديد بعد الفترة النبويّة المباركة، بل إنّه ازدهر في قصور الخلفاء وبلاط السلاطين.
- المنهج القرآني المتكرر في بيان منزلة الإنسان في خلافة الله في الأرض وسجود الملائكة جميعاً وتسخير الموجودات للإنسان في مهرجان سماوي هائل كرره القرآن الكريم عشر مرات، مما يوجب اعتبار الإنسان محور الشريعة، ويلزمنا بضبط أحكام الشريعة كلّها على وفق ساعة الإنسان وحاجاته ومصالحه الحقيقية.
- النصوص العامّة في الشريعة التي أكدت أخوة الإنسان للإنسان ومنعت من التمييز بين البشر على أساس اللون أو العرق أو الثروة، وهي معروفة ومشهورة وقد اختصرها النبي الكريم في حجة الوداع بقوله: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لَأَدَمٌ، وَآدَمٌ مِنْ تُرَابٍ، أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" وليس لعربيّ فضلٌ على عجميّ إلاّ بالتّقوى"

- النصوص الخاصة في أمر الإخاء الإنساني في القرآن الكريم، وهي كثيرة جداً، وتشتمل الدعوة إلى الإخاء بين الإنسان وأخيه وسنأتي على تفصيلها في فصل خاص عن المذهب الإنساني في الكتاب والسنة.
- قرر علماء الأصول أنّ الإجماع والعرف والاستصلاح هي مصادر مباشرة للشرعية، قادرة على إنتاج الأحكام، وهي مصادر إنسانية في الجوهر تعتمد اختيارات الناس وتُقارب التشريع على أساس حاجاتهم ومصالحهم في لغة أصولية.
- التأكيد القرآني الواضح عشرون مرة على بشرية الرسول وبناء الإسلام كإله على أساس الكفاح البشري، وعدم تدخل الخوارق والغيبيات في تفاصيل السيرة، مع النجاح والإخفاق، والنصر والهزيمة، والشك واليقين.

## الإنسان أم الشريعة؟

يتكرر في النصوص الإسلامية ذكر الإنسان بوصفه خليفة الله في أرضه، ويمكننا رصد مئات المواقع التي ورد فيها ذكر الإنسان والناس وابن آدم وآدم في غاية من الاحترام والرعاية، وفي القرآن الكريم سورة باسم الإنسان وأخرى باسم سورة الناس.

وتذهب هذه الدراسة إلى التأكيد بأن دور الإنسان محوري في الغايات والتشريع، وأنّ الشريعة لا تكتمل إلا بدور حقيقي للإنسان، أو وفق تعبير إقبال بأنّ الإسلام حقق ولادة العقل الاستدلالي وأنّ العقل الاستدلالي كان آخر العهد بالنبوة وأوّل العهد بالإنسان.

الإنسان أولاً أم الشريعة؟ إنَّ الاتجاهين يتناوبان في الإسلام، ويمكننا ملاحظة تقدم الدِّين مرة وتقدم النفس مرة أخرى، ويمكن رصد أهمِّ دراسة مخبرية في هذا الجدل فيما قدمه الإمام الكبير (الشَّاطِئِيُّ) في الموافقات؛ إذ نصَّ على المقاصد الخمس للشريعة، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وفي جدل طويل ينتهي الشاطبي إلى أنَّ حفظ الدين مقدم على حفظ النفس.

ومع أنَّ الخطاب الإنساني غالب وظاهر على مستوى الشعار والنصوص العامَّة، ولكن الواقع يتخذ اتجاهًا متفاوتاً بشكل كبير، وتقوم كثير من شعائر الدين على التضحية بالإنسان، أو تعذيبه وإرهاقه، وهذا الأمر معروف في الديانات القديمة، يتم تقديم الإنسان نفسه قرباناً لله، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى عندما همَّ إبراهيم بالتضحية بابنه إسماعيل استجابةً لمرضاة الله، وهو أمر أبطله القرآن

بقوله: ﴿وَقَدَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]

وظهرت مناسك أقلُّ من القربان، ولكنها أيضاً واضحة في علو كعب الدين على كعب الإنسان، ومن ذلك شعائر الرهبنة والديارات في المسيحية، التي تستلزم تعذيب النفس وقمعها ومنعها من الزواج وتأسيس الأسرة، ومثل ذلك شعائر الجهاد والشهادة في الإسلام، وقد صرَّح الرسول الكريم أنَّ رهبانية أمتي الجهاد، ومن لازم الجهاد التضحية وبذلك يكون الدين أولاً والإنسان ثانياً.

بالطبع ورغم الاتفاق في رصد الظاهرة، ولكن لا يمكن القول إنَّ النتيجة التي انتهينا إليها هي محل اتفاق، فالجدل في الفقه الإسلامي والمسيحي مستمر في أن الرهبانية والجهاد والشهادة هي مظاهر أخرى لتكريم الإنسان وأتمَّها وإن أدَّت إلى عذابه أو موته فهي تحقق سعادته في الدَّار الآخرة، وهي تتجه في النهاية إلى حماية الإنسانية وتوفير عيش كريم للإنسان. ويتجه هذا الكتاب للحوار في هذه النقطة بالذات

والتأكيد على أنَّ حفظ النفس مقدم على حفظ الدين، وأنَّ الدين في خدمة الإنسان وليس الإنسان في خدمة الدين، وفي دليل قريب فإنَّ القرآن الكريم أجاز للإنسان أن ينطق الكفر عند الإكراه حفاظاً على روحه ونفسه، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، وقد قال الرسول الكريم ل(عمَّار بن ياسر) حين غلب عليه قومه وأرادوه على الكفر وما تركوه حتى نال منهم: "فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ".

وفي الاضطرار يحل للمسلم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ولا شكَّ في أنَّ تحريم هذه الأشياء من شعائر الله، ومع ذلك فقد أذن للإنسان في ذلك كله، حماية للنفس ورعاية للحياة.

على أنني لا أريد أن أستغرق في هذا الجدل، ومن واجبي أن أقول لك إنَّ كاتب هذه السطور يرى أنَّ حفظ الحياة مقدم على حفظ الدين، وستقدم الأدلة على هذه الحقيقة في هذه الدراسة.

## المذهب الإنساني في نصوص القرآن والسنة

أشار القرآن الكريم إلى الإنسان في مواضع كثيرة بوصفه خليفة الله في الأرض، وهذا أعظم تشريف وتكريم، وهو يرسم ملامح محورية الإنسان في الشريعة الإسلامية، وقد أفردنا الفصل الآتي للحديث عن هذا الموقف القرآني ودلالاته في تأسيس المذهب الإنساني في الإسلام.

ومع أنَّ القرآن الكريم وصف الإنسان بأنه خليفة الله في الأرض ولكنَّه فصلَّ القول في طبائع الإنسان وسلوكياته في آيات كثيرة، وقد وردت كلمة «الإنسان» في القرآن الكريم ستة وخمسين مرة، وهي كلمة لا ترد إلا في المفرد ولا يصح جمعها اشتقاقاً وتجمع على كلمة «النَّاس» وقد وردت بدورها في القرآن الكريم مئة وتسعة وسبعين

مرة، وهي تدور بين ما جبل عليه من خير وما يتناوله من طمع ومكر، ولكن المعنى الأشد وضوحاً للإنسان في القرآن هو أنه الوحيد الذي تحمل الأمانة ونهض بها:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]

ولا يختلف الإنسان في القرآن عن الإنسان في علم النفس الحديث فهو ينوس بين الأنا العليا والأنا السفلى والهو، أو بين مقاصد السمو وطباع النمو وغرائز الدنو، أو وفق تعبير القرآن الكريم بين النفس المطمئنة والنفس اللوامة والنفس الأمارة بالسوء، فهذا كلُّه ابن آدم، وهو مستودع أسرار الله تعالى وما أودع الله فيه من علم وحكمة ونور.

فهو الإنسان الذي خلق في أحسن تقويم ولكنه ظلوم كفار، ووصفه القرآن الكريم بأنه أكثر شيء جدلاً، وبأنه خلق من عجل، وبأنه في خسر وأنه لربه لكوند، وخلق هلوياً وإذا مسه الشترُ جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً، وخلق أطواراً في صور متتالية تعكس طبيعة الإنسان المتقلبة:

وَمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِنَفْسِهِ وَلَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ

وحتى في خلقه الأول فيشير القرآن إلى اضطراب في خلقه فقد خلق من ماء وخلق من تراب وخلق من طين وخلق من حمأ مسنون وخلق من صلصال كالفخار وخلق من نطفة وخلق من علق وخلق من مضغة، في صورة تعكس دياكتيكاً مستمراً يدور بين الأطروحة والتركيب والنفي ونفي النفي، حتى يمكنك القول إن الإنسان ليس حقيقة قارة بل جدل متلاطم.

وبعيداً عن الفلسفة فالمقصود هنا هو أنّ الإنسان جوهر الحياة وغايتها ومركزها، وهذا ما تؤكدُه نصوص قرآنية ونبوية، تنصُّ على حرمة دم الإنسان وحرمة روحه، ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]

وفي بيان منزلة الإنسان وردت الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]

ومقتضى الآيات بيان فضل الإنسان ومنزلته في الكون، وذلك قبل أن تنزل النبوات والوحي، وقبل أن يبعث الأنبياء، تأكيداً على المكانة الرفيعة التي يكرم الله بها ابن آدم بعيداً عن أيّ اختيار إيديولوجي.

وينصُّ القرآن الكريم على أنّ الكون مخلوق للإنسان ومسخر من أجله، ﴿وَسَخَّرْنَا لَهُمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا لَهُنَّ﴾ [الجاثية: ١٣]

ولا شكّ في أنّ عموم هذه الآية يمنحنا الثقة أن نتحدث عن مركزية الإنسان في الوعي القرآني، وأنّ الشريعة ينبغي أن تأتي على قدر حاجاته ومصالحه، وعلى وضوح هذه الفكرة وقوة الدليل فيها ولكن يجب القول إنّه لم يذهب أيُّ فقيه لتأصيل مصدر تشريعي حقيقي قائم على حاجة الإنسان باستقلال، بل ظلّت مصادر التشريع تنوس بين الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وحين ابتكر (أبو حنيفة) الاستحسان الذي يعتمد رؤية الإنسان واستحسانه مصدراً في الشريعة عاد فقهاء الحنفية أنفسهم تحت ضغط هائل من رجال الدين ليقمعوا فكرة الاستحسان ويجولوها إلى لون من القياس البارد على التّصّحّ حتى تكون مجرد قياس خفي يترجح على قياس جلي، بدلاً من كونها في الأصل عند أبي حنيفة ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس، أو هو دليل ينقدح في عقل المجتهد يعسر التعبير عنه.

أمّا في سياق المواقف التمييزية بناء على الدين أو العرق أو الجنس، فإننا سنجد للأسف نصوصاً تدعو إلى ذلك، وسنجد نصوصاً أخرى تنهى عنه، ولا مندوحة من الإنتقاء والاختيار، فنحن لا نؤوب إلى نصوص حاسمة، وإنما حمالة أوجه، وهذه طبيعة النصوص التربوية والأدبية بخلاف النصّ الحقوقي والقانوني الذي طبيعته الحسم والحزم.

وفي الحديث: "الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالٌ لِلَّهِ وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ"<sup>7</sup>

وفي تعظيم منزلة الإنسان في الإسلام قال الرسول الكريم: "لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ"<sup>8</sup>، وهو تعبير واضح في بيان منزلة الإنسان، ولكن السلف لم ينتجوا من ذلك مصدراً مستقلاً للشريعة، وكان بالإمكان تماماً أن تكون الإنسانية مصدراً كاملاً للتشريع، وليس مجرد صفة من صفات التشريع أو حكمة تتعلل بها الأحكام.

وفي الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ الْكَرِيمَ مَرَّتَ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ لَهَا، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهَا لِيَهُودِي! فَقَالَ: أَوَلَيْسَتْ نَفْسًا؟<sup>9</sup>

ومن النصوص العامة في التأكيد على منزلة الإنسان في القرآن والسنة:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]
- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَدَقْنَاهُمْ مِنْ طَلِيئَاتٍ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]

<sup>7</sup> رواه الطبراني في المعجم الكبير ج 10 ص 86.

<sup>8</sup> رواه الترمذي في سننه، ج 3 ص 68.

<sup>9</sup> أخرجه البخاري ومسلم، وهو في البخاري ج 2 ص 85.

- ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾  
[الجاثية: ١٣]

ومن النصوص العامّة في التأكيد على الإخاء الإنساني في السنّة الكريمة:

- "الإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره."
- "النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ"
- "وليس لعربيّ فضلٌ على عجميٍّ إلاّ بالتقوى"
- "لينتهينَّ أقوامٌ يفتخرون بآبائهمُ أو ليجعلنهم الله أهون من الجعلان "

وليس القصد بالطبع استقصاء النصوص في دلالاتها على مكانة الإنسان وفضله، بل البحث في محورية الإنسان ومركزيته في الأداء التشريعي، واعتبار الروح الإنسانية غاية وهدفاً تبنى عليها التشريعات وتشرع لأجلها الأحكام مستقلة.

وبالطبع فإنّ الرافضين لمحورية الإنسان سيجدون السبيل لتبرير هذه النصوص واستدعاء نصوص أخرى أمرت ببذل النفس والروح والجسد في سبيل قيم الشريعة، وإنّ التضحية بالحياة نفسها لتحقيق قيام الدّين هو عمل جهادي مبرور.

وتذهب هذه الدراسة أنّ الجهاد المشروع هو فقط ذلك الجهاد الذي يهدف إلى حماية الإنسان وتحقيق أمنه وكرامته، وعلى هذا يجب تأويل كلّ نصّ في القرآن الكريم، وهو المقصود بعموم الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ

لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]

وأنَّ الجهاد الذي جرى تاريخياً باسم نشر الإسلام تحت عنوان **جهاد الطلب** هو غلو في الدين وتفسير خاطئ لروح الشريعة وإكراه على الدين وهو مناقض لأهداف الإسلام ولو فعله من فعله من الخلفاء.

## المذهب الإنساني في سورة الفاتحة

سورة الفاتحة تتضمن أربعة أسماء للخالق، ومع أنَّ الأسماء الحسنى للخالق تتضمن الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والرحمة والانتقام، ولكنَّ الله خصَّ سورة الفاتحة بصفات من الرَّحمة فقط «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»، وكرَّرها مرتين في السُّورة ذاتها؛ لتغلب روح الرحمة والمودة سلوك المسلم، فيما تكون آيات الغضب والانتقام خاصَّة بظروف الحرب والقتال.

هذا الدين الإلهي يبدأ نصوصه بكلمة: «الحمد لله ربِّ العالمين» ويختتمها بنصِّ «رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ» وهو إيماء إلى القرية البشرية كلِّها على اختلاف أديانها وقومياتها، وما بين المقدمة والخاتمة ألف نصِّ من الإخاء والمحبة والتواصل بين الأنبياء وهو ما يجب أن يتصل بأتباعهم على الأرض، وهي عبارات واضحة أطلقها النَّصُّ القرآني بوضوح وشرحها الرسول الكريم في خطبة الوداع بقوله: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ رَبِّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنْ آبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لَأَدَمٌ، وَآدَمٌ مِنْ تَرَابٍ، أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ فَضْلٌ عَلَيَّ عَجْمِي إِلَّا بِالتَّقْوَى"

يروى أنَّ المنصور العباسي عندما أنجز بناء مسجده الجامع دعا العلماء من مختلف الأقطار للمشاركة في الحفل الهائل لافتتاح المسجد واختار (عبد الله بن

المبارك) ليكون إمام الصلاة، فهو أشهر الفقهاء انتشاراً وأكثرهم هيبه وأوفاهم مكانة وأكثرهم احتراماً وإجلالاً في النَّاسِ.

وفيما كان ابن المبارك في طريقه إلى المسجد، اعترض موكبه يهودي بائس يشتكي مظلّمته وأن بيته كان في جوار المسجد وقد ضُمَّ البيت للمسجد دون تعويض كافٍ، وحين وقف ابن المبارك في المحراب والخليفة من ورائه ومشاهير الفقهاء والوزراء والعلماء بدأ صلاته بالآية: **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله رب المسلمين!** وعلى الفور ردّ المصلون بتصحيح الآية «**رَبِّ الْعَالَمِينَ**»، ولكنَّ ابن المبارك أعادها مرتين: **رَبِّ الْمُسْلِمِينَ!** حتّى وقع الهرج في الصلاة وسط صخب واستغراب كبيرين، وقطع النَّاسُ الصلاة يتساءلون: ألا يحفظ هذا الإمام سورة الفاتحة؟! ولكن ابن المبارك التفت وقال: بل قرأتها على مذهب الخليفة ووزيره الفضل بن يونس! وحين تساءل الخليفة بغضب عن سبب ذلك أجاب ابن المبارك بهدوء: إنَّ أصحابك يا أمير المؤمنين ضموا أرضاً ليهودي إلى المسجد دون أن ينصفوه، ويبدو أنهم يرون الله رباً للمسلمين فقط دون سواهم!

وعلى الفور استدعى الخليفة اليهودي وأنصفه أمام الناس وزاده في مطلبه.

وهنا ابتسم ابن المبارك وقال: الآن أصبحنا أهلاً أن نقرأ الآية: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**»

فهل يدرك مشايخ الكراهية ماذا يصنعون؟ أم أنهم لم يصلوا بعد إلى سورة الفاتحة؟ واعترض بعضهم أننا ذكرنا وجوهاً عدّة لفكرة الرحمة والحبِّ والسَّلام في سورة الفاتحة ولكن تجاهلنا أنَّ السورة نفسها تلحن دينين كبيرين هما اليهود والنصارى؛ إذ اليهود هم المغضوب عليهم والنصارى هم المسيحيون!

ولك أن تتصور الهدف التربوي البائس الذي يحمله تصور أسود كهذا في نفوس جيل من الناشئة يفتحون عيونهم على الدنيا وهم مأمورون أن ييغضوا نصف سكان الكوكب بنصٍّ مباشر! فيما تتولى نصوص أخرى رسم الصورة السوداء المقيتة لباقي النَّاس!

فهل نحن أمام نصٍّ متناقض ينسف آخره أوّله؟ وهل نقوم بعملية تجميل زائفة لواقع غير جميل؟

لا نحتاج إلى أيّ تكلف لنؤكد أنّ الفاتحة التي يحفظها كلُّ مسلم وربما كلُّ مسيحي في بلادنا أيضاً ليس فيها كلمة اليهود ولا كلمة النصارى، بل فيها ذم لوصف سيئ يمكن أن يقع على المسلم السيئ والمسيحي السيئ واليهودي السيئ، فمن الذي جعل الكلمة مختصةً بهذه الأمم؟ وكيف تسرب ذلك إلى الوعي الجمعي حتى بات كثير منا يعتقد أنه أمراً محسوماً؟

النَّصُّ المذكور أنّ المغضوب عليهم هم اليهود وأنّ المسيحيين هم الضالون على الرغم من اشتهاره وانتشاره هو حديث منكر ساقط لم يروه أحد من أصحاب الصحاح وقد أعرض عنه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود فيما أورده أحمد عن رجل مجهول من بلقين لا يعرف اسمه ولا يعرف أحد عنه شيئاً.

وأورده آخرون من رواية (سمّك بن حرب) عن (عباد بن حبيش) وهو رجل متهم يعرف اسمه ولا يعرف له مولد ولا وفاة!

ولكنّ هذه الروايات الهالكة الساقطة التي تتناقض مع روح القرآن في التسامح والرحمة، وينكرها أكبر المحدثين، تتبناها منابر كثيرة ومؤسسات كبيرة في العالم الإسلامي منها مثلاً مجمع المدينة المنورة لطباعة المصحف الشريف؛ إذ قامت بذكر

ذلك صراحة في شرح الآية وبخاصة في نقلها إلى اللغة الإنكليزية واللغات الأخرى، فحطت مدلول الآية في أتباع دين بعينهم دون الاكتراث بمنطق القرآن الكريم الذي صرح عشرات المرات بأنه «لا تزر وازرة وزر أخرى»، وأن «كل نفس بما كسبت رهينة»، وأن «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عمّا كانوا يعملون».

وتكمن الفضيحة هنا في أنّ هذه النسخ هي الأكثر انتشاراً في العالم، ومهما كتبت في تصحيح ذلك فلن تستطيع إقناع الأفراد والمؤسسات التي تسلمت ثلاثمئة مليون نسخة مطبوعة منه بأكثر من 72 لغة في العالم وهي مجهزة بأكثر الأختام قوة ونفوداً في العالم الإسلامي، ومعظمها وزع (لوجه الله) وهي تنص صراحة أنّ الضالين هم أتباع عيسى والمغضوب عليهم هم أتباع موسى!

والأشدّ سوءاً أن يكون ذلك في ترجمة نصّ الفاتحة؛ لأنّ من شأن المترجم أن ينقل بأمانة وليس من حقه أن يضيف على النصّ أدنى زيادة مهما كان مقتنعاً بها، ولن يكون ذلك على الإطلاق في خدمة المعرفة ولا في خدمة الحقيقة، ولست أدري كيف يسوغ تفويض لجنة متعصبة مغلقة التفكير بإقحام رؤاها الخاصة على هامش القرآن الكريم ثم اعتماد ذلك كتفسير رسمي لنصّ القرآن الكريم ينشر باثنتين وسبعين لغة حول العالم؟!

في العربية: ﴿غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

لكن في الإنكليزية:

"Not those upon whom is the anger, nor the astray, He was neither a Jew nor a Christian"

وللأمانة فقد حذف المجمع مؤخراً هذه الترجمة البائسة بناء على احتجاجنا، ولكنها ما زالت على هامش السورة بوضوح في نفس الصفحة بالإنكليزية! بل إنها ما زالت في المتن على الصفحة الخاصة لـ(تقي الدين الهلالي) صاحب الترجمة المعتمدة للمجمع!

في القرآن الكريم لا يوجد حكم كلامي توصف به أمة من الأمم، وتكرر في القرآن الكريم لفظ: ثم يتولى فريق منهم، وإن منهم لفريقاً، ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، وهكذا تتكرر صيغة التبعية؛ لأن القرآن يرفض منطق الحكم الكلامي على الأمم والشعوب بدعوى أخطاء الآباء والأجداد.

الجواب في نظري في القرآن الكريم في كلمتين اثنتين لا تحتاجان إلى لفظ ثالث:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]

القرآن الكريم كان واضحاً غاية الوضوح عندما تحدث عن فساد طائفة من اليهود والنصارى من أهل الكتاب وبعد أن عدد خطاياهم وما قاموا به من قتل الأنبياء والمرسلين وبؤس جرائمهم ولكنه بعد ذلك نهى عن التعميم بشدة وقال بوضوح:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]

وبعد أن أثنى على الصالحين منهم أطيب الثناء نص صراحة بقوله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ

خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥]

كيف يمكن إذن يمكن أن يكون في القرآن حكم يصف أمة بحالها إلى آخر الدهر بالضلال مع أن القرآن نفسه ينص مرتين بصريح العبارة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ مِنْ أُمَّةٍ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]

وينص بصريح العبارة أن ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]

وردت كلمة الضلال في القرآن الكريم بصيغ متعددة تسعاً وعشرين مرة، وفي كثير من المرات كانت خطاباً للمسلمين من أتباع النبي الكريم: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١]

فهل يسوغ القول بأن الأمة كلها ضالة بدلالة هذا؟ بل إنَّ القرآن استعمل هذا اللفظ في وصف حال النبي الأكرم قبل أن يبدأ الرسالة بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]

فهل يسوغ القول إنَّ هذا وصف قرآني سرمدني للرسول؟

أمَّا لفظة الغضب فقد وردت اثنان وعشرون مرة تنصُّ على غضب الله على القتال والزَّاني والزَّانية والمنافق والمتولي من الزحف من المسلمين وغيرهم.

الضالون لم يعرفوا الحقَّ أصلاً أمَّا المغضوب عليهم فقد عرفوه وأصروا على استدباره، وبقراءة بسيطة يمكنك أن تكتشف أنَّ كلاً من الآفتين موجودتان في الشعوب كافة، بين المسلمين والمسيحيين واليهود والبوذيين والشننتويين والطاويين والشامانيين والهندوك والزرادشتيين والعلمانيين والأصوليين والاشتراكيين والليبراليين ويخلق ما لا تعلمون.

نعاني بالفعل من انتشار التطرف، ونستغرب كيف يحمل شباب من الجيل الجديد ثقافات سوداء مريضة ضدَّ البشرية، توفر لهم الطريق إلى التطرف، ولكن هل نملك الشجاعة للإشارة بوضوح إلى المؤسسات الكبرى التي تتورط من حيث تريد أولاً تريد بنشر هذه الثقافة البائسة.

## موقف فريد للرسول الكريم:

وأختار في هذا السياق رواية قصة طريفة في السيرة النبوية نرويها عادة في باب لطف النبي الكريم وإيناسه ورحمته، ولكنها من وجهة نظري تحمل بعداً إنسانياً فريداً وتؤكد أنّ الشريعة في خدمة الإنسان وليس الإنسان في خدمة الشريعة، وأن أحكام الشريعة كلّها مقيّدة بدورها في خدمة ابن آدم والإحسان إليه.

والقصة رواها (البخاري) وغيره عن (أبي هريرة)، وفيها: "بينما نحن جلوس عند النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، هلكتُ. قال: «مَا لَكَ؟» قال: وقعتُ على امرأتي وأنا صائمٌ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تَعْتَقُهَا؟» قال: لا، قال: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟» قال: لا، فقال: «فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مَسْكِينًا؟» قال: لا، قال: فَمَكَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبينما نحن على ذلك أتى النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعرق فيها تمر - والعرق المكتل - قال: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» فقال: أنا، قال: «خُذْهَا، فَتَصَدَّقْ بِهِ» فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعْلَى أَفْقَرِ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا - يَرِيدُ الْحَرْتَيْنِ - أَهْلُ بَيْتِ أَفْقَرِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَطْعِمُهُ أَهْلَكَ»<sup>10</sup>

والقصة بتفاصيلها تكشف عن وعي آخر للرسول الكريم بالشريعة، فهو لا يرى في الشريعة أوامر إلهية صارمة تعكس حاجات الرّبِّ ومطالبه وشروطه على عباده، بل يرى فيها محض أسلوب تربوي، ولم يشأ أن يرهق الإنسان في تلبية حاجات الخالق،

<sup>10</sup> رواه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة ج 3 ص 23.

فالله غنيٌّ عن العالمين والشريعة في خدمة الإنسان، ولم يشر إلى الغضب الإلهي واهتزاز العرش وضجيج الملائم الأعلى، بل تعامل بغاية الرفق والمودة، وانتقل بالحكم من خيار إلى خيار، والرَّجل يرفض الخيارات كلِّها، والرسول يضحك، حتى استوفى في النهاية جائزة مجزية وعاد فرحان جذلان وقد جاء ينتظر المحاسبة والعقاب.

بالطبع لا يشبه هذا الهدي في شيء سلوك رجال الدين الذين يحسبون هذا الرجل هازئاً بدين الله، متمراً متذمراً يستوجب عقابين اثنين عقاب المعصية وعقاب الجدل في دين الله، والتشكيك في فتوى رسول الله.

وأعتقد أن الاستلهام من هذا الموقف النبوي موقف صحيح في القدوة والاتباع، وأنَّ رجال الدين يملكون هذه القدرة على تغيير الأحكام، وهي ليست شيئاً خاصاً بالرسول، بل بكلِّ من يوقع عن الرسول، ومن الغريب أنَّ هذه القصة الواضحة تذيُّلٌ عادة في الوعظ بجملة تفسد ما فيها من مرونة ويسر ومودة، وذلك لمنع الاقتداء بها وعدِّها تصرفاً غيبياً تمييزياً لا علاقة له بالعقل؛ إذ أضيفت لفظة: إنَّها لك وليست لأحد من بعدك!<sup>11</sup>

وفي الحديث إشارة واضحة إلى إمكان تغيير الشريعة وفق مصالح الناس وحاجاتهم، وأنه لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان وتغير الأشخاص وتغير الأحوال، وأن الشريعة برمتها أسلوب تربوي لحمل الناس على الخير وتجنب الشرِّ.

<sup>11</sup> العبارة المشهورة أنَّه قال له بعد ذلك: إنَّها لك وليست لأحد من بعدك، لا أصل لها ولا سند، ولم أجدتها في كل كتب الرواية.

## مبادئ المذهب الإنساني في الإسلام

### مبدأ الأصل السماوي للإنسان

وليسمح لي القارئ أن أستطرد قليلاً لمشاهدة جانب من ذلك المهرجان السماوي الهائل الذي أعده الله لتكريم آدم ودعا إليه الملائكة جميعاً، والأهداف البعيدة وراء الحديث عن أسرة آدم ومعنى امتدادها في الأرض، والهدف التربوي الذي أرادته الآيات الكريمة من رواية هذه الميثولوجيا عشرات المرات في الكتاب والسنة، وقد رسمها هنا صديقنا الشاعر (زهير ظاظا) في سياق نظمه لديوان إقبال جناح جبريل عبر حكايته عن لقاء تخيلي جمع آدم بإبليس:

"في لقائه بآدم، يطرح إبليس أسئلة متتابة: ألا تشعر أنك تعرضت لخدعة سماوية؟ لقد وعدك ألا تجوع فيها ولا تعرى ولا تظماً ولا تضحى، ولكنني أراك اليوم تحمل قدرك البائس على الأرض، وتشمر زندك الأسمر تحصد بالمنجل وتحث بالمسحاة، وتذوق الجوع والحرق والقرف والمرض والعناء، يا لها من صفقة خائبة! وعدك النعيم وقدرك العناء.

لم يشأ آدم أن يمضي في حوار إبليس إلى حيث يريد فكاشفه مباشرة بالقول:

قال يا إبليس نحن اثنان في الجنة كنا أنت بدلت يقيناً وأنا بدلت ظناً

أنا يا إبليس لست صدفة تائهة في هذا العالم، أنا لست كما تقول المادّيّة البلهاء محض تركيب هيدروكربوني صديفي عاثر قذفت به رحي الديالكتيك السائبة وأدركته ظروف مناخية صدفية فانبعث يمشي على قدمين. أنا لست كذلك أيها الأبله، أنا آدم، خليفته في أرضه ووعدته في جنته، خلقتني بيمينه وأسجد لي ملائكته، وهذه الذاريات ذروا والحاملات وقرأاً والجاريات يسراً والمرسلات عرفاً كلهم جند من جندي سجدوا لي في مهرجان الله، وسخرهم لخدمتي، ويعلم ما لا تعملون.

إن سري حين نادى مهرجانه      أمر الكلّ فخرّوا فحباني صولجانه

وفي نظرة صارمة يلتفت آدم إلى إبليس ويسأله عن رسالة الإنسان ورسالة الملائكة، ولا يتردد أبداً في تفضيل رسالة الإنسان على رسالة الملاك، يسأله عن جدوى عالم الرغد والنعيم الذي يرتع فيها الملائكة في قصور السماء يأكلون من حصاد الآخرين كما شاء لهم القدر، فيما يكون الإنسان هو القدر الذي يحكم التاريخ:

ما الذي يفعله العباد في قصر السماء؟      بين ريحان وبخور وسجاد وماء  
هم من الخلد سكارى وأنا أحفر لحدي      أحمل الدنيا شريداً أعصر الصخر لوحدي  
وفي قراءة شامخة من عزيمة ويقين يلتفت آدم إلى محاوره، ويشير بسبابة أصبعه إليه  
في تحد كبير: هنا في الأرض تكمن رسالتي، أنا لست محض رجل تضحك له  
الأقدار، أنا هو القدر، وأنا سيّد هذا العالم، ورسالتي في خلافة الأرض هي التي  
أحمل وأفتخر:

أنا لما أعبد الله بجرماني وجوعي      لن ترى في الملأ الأعلى كمثلي في خضوعي  
قل لمن يسأل عني أنا شيخ الحضرتين      إن عبداً لوعته الأرض عبد مرتين

إنني أستسمح القارئ الكريم عذراً في الاستطراد وإيراد هذه الشواهد الشعرية، ولكنني أعتقد أنّها تتصل بالمقصود في وصف المهرجان السماوي الذي عقد لتكريم الإنسان، ورسم ملامحه الروحانية وتجلياته، وهو ما يجب أن تسعى له اليوم، وكل سعي في الإخاء الإنساني وبخاصة إخاء الأديان وكرامة الإنسان فهو هدف مباشر مقصود لهذه القصة السماوية الفريدة من قصص الخلق والتكوين.<sup>12</sup>

---

<sup>12</sup> حبش، محمد، إقبال فيلسوف التجديد الإسلامي، ص52.



## مبدأ الإنسان جوهر المشروع الإلهي للخلق

أسس القرآن الكريم للأسرة الإنسانية وما ينشأ عنها من الإخاء الإنساني، وذلك عند التركيز المستفيض والمتكرر في الحديث عن آدم، والد البشرية، وزوجته حواء وانطلاق المشروع الإلهي من جنة عدن ثم استئنائه في الأرض حين قال: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]

ويعتبر القرآن الكريم مسألة نزول آدم من السماء مسألة وحي وعقيدة، ويؤكد على مسؤولية ابن آدم في الأرض، ورسالته في إعمارها وبنائها وإنشاء مجتمعات عادلة ورحيمة وناجحة.

وتختلف الرؤية الإسلامية في مسألة الأصل الإنسانيّ اختلافاً واضحاً، فبينما ترى المادية التطورية أن الإنسان هو محض تركيب بيولوجي هيدروكربوني صديفي عاشر قذفت به رحى الديالكتيك فقام طفرة يمشي على قدمين، فإن الإسلام يرسم صورة مختلفة تماماً للإنسان وأسرته في الأرض، فيشير أنّ الله خلقه بيمينه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وسخر الكون في خدمته، وبذلك تكون الطبيعة والملائكة في خدمة الإنسان مسخرة له كما أراد الله، وتكون المخلوقات جميعاً وعلى رأسها الملائكة في خدمة الإنسان حتى يحقق رسالة الله التي أمره بها في هذا الكون.

وتنشئ هذه الرؤية الفلسفية مسؤولياتٍ حقيقيةً على الدولة الإسلامية تجاه العالم من حولها؛ إذ تتعامل مع البشر كلهم على أنهم أسرة واحدة، وأنّ في كلّ إنسان في هذا العالم قبس من روح الله وسر منه، وهذه رؤية إيمانية عميقة تفرض طابعاً فريداً في بناء العلاقات الدولية على أساس من الاحترام والثقة والإيمان بالخير الإنساني وهو أهم عوامل نجاح الدولة المسلمة في علاقاتها الدولية.

ومن المؤسف أن يقال إن هذه الرؤية خيالية وحاملة وأن السياسة لا تحكمها الأحلام بل المصالح، وفي هذه النقطة بالذات أجد أن كل ما يروجه الأسلوب الميكيفيلي في العلاقات السياسية بين الحاكم والمحكوم وبين الدولة والإقليم، وكل ما يبرر الانتهازية والغدر والظلم والمصالح الضيقة هو فكر مضاد للإسلام ومعاند لروحه الإنسانية مهما بدا أنه واقع سياسي فقد جاءت هذه الشريعة لتغير الواقع اللاأخلاقي وتنشئ مكانه واقعاً أخلاقياً نبيلاً يتفق مع القيم العليا للدِّين الخالص.

إن فكرة الأسرة الإنسانية، والأخوة بين أبناء آدم، يجب أن تظهر تجلياتها في دعم الإخاء الإنساني وتقليل الحروب ونشر السلام، وهي حقيقة عبّر عنها الرسول الكريم بعبارة لا يوجد ما هو أشد منها وضوحاً: "الْحُلُقُ كُلُّهُمْ عِيَالٌ وَاللَّهُ وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ"<sup>13</sup>

وتستند هذه الحقيقة إلى بيان القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] والتأكيد على الأسرة الإنسانية الواحدة يقتضي إحياء مشاعر الأسرة بين أفرادها وبخاصة بين أتباع الأنبياء، وهو المدخل التأسيسي لإخاء الأديان وكرامة الإنسان.

والتفاصيل التي ترسمها الآيات القرآنية كثيرة وقد تكررت القصة بصور متشابهة إحدى عشرة مرة، ونصّت بوضوح على المكانة الفريدة التي اختصَّ الله بها الإنسان، وهي التي شرحتها الآيات الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾

وقد أظهر الله تعالى هذا التفضيل للإنسان على لون فريد من الإكرام حين حشد مهرجان الملائكة إلى حفل هائل حضرته الملائكة جميعاً وأمروا دون استثناء بأن

<sup>13</sup> البزار العتكي، أحمد بن عمرو، البحر الزخار مسند البزار، ج 13 ص 332.

يسجدوا لآدم، في إرادة واضحة لتسخير الكون للإنسان، وبالفعل سجدت الذرات ذرواً، والحاملات وقرأً، والمقسمات أمراً، والنازعات غرقاً، والناشطات نشطاً، وكلُّ ما ذكر الله من الملائكة كانوا في ذلك المهرجان وسجدوا لآدم إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين.

إنَّ حضور قصة الخلق الأول لا يحتاج إلى تذكير أو برهان، وقد تكررت في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة، وكذلك في الكتب الأولى جميعاً ومن المؤكد أن الإنسان كان في عين الله تعالى جوهر العالم وسره وله أسجد ملائكته وفيه نفخ من روحه، وله أعطى الرسالة التي عرضها على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان.

إنَّ مركزية الحديث عن الإنسان الأوَّل خلقاً وانبثاقاً، ثمَّ كدأً وسعيّاً، ثمَّ خليفة لله في الأرض تسجد له الكائنات، يلزمننا بتصور الحقيقة الكاملة، وهي أنَّ الإنسان هو مشروع الله في الأرض، وهو الوعد الذي أخبر به الملائكة حين قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وحين دعاهم إلى السجود لآدم.

إنَّ اكتمال هذا اللون من الاعتقاد يلقي على الإنسان قداسة أرادها الله، فهو لم يعد كما نظرت إليه المادية الجافة مجرد طرو مناحي على المادة! إنه هنا سرُّ الله وروح الله ومشروع الله وحكمة الله! ولا شيء أشأم في وعي كهذا أن نتصور أن الإنسان مضى عكس إرادة الله واختار سبيل ضلالة وفشل، واهتدى بالديانات القائمة ولكنه وصل إلى جهنم، وأنَّ الله لم يصل إلى أيِّ غاية في هذا الخلق العاثر، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]

إن الإيمان بمشروع آدم كما خلقه الله يلزمنا أن نتساءل اليوم بعد مرور هذه القرون المتطاولة على النبوات والرسالات، أين هي حكمة الله في الأمر والخلق؟ وهل تخلق هذه المليارات المتعاقبة قرناً بعد قرن لتكون خطباً في السعير؟

إنَّ حسن الظن بالله والإيمان بحكمته في الخلق والتدبير لا يستقيم بوعي كهذا، وسيصاب المرء بتناقض لا ينتهي من حكمة سجود الملائكة للإنسان، بعد أن يصدمننا التراث بأن مشروع آدم وذريته قد فشل فشلاً ذريعاً، ولم تعد هذه الأسرة الآدمية ذات الأصل السماويِّ والهدف الرباني إلا سلالة من الأشرار الفاشلين، يخلقهم الله باستمرار ليكونوا خطباً للجحيم الموقدة! **بواقع 999 بالألف كما تشير رواية منسوبة إلى البخاري.**<sup>14</sup>

وفي الواقع فإنَّ هذا النَّصَّ المنسوب إلى الرسول الكريم لا يختلف كثيراً عن واقع الاعتقاد الذي تكرسه معاهد العقيدة الإسلامية السلفية، وفي حَسبة بسيطة نصل إلى نتيجة متقاربة، ولو سألت أيَّ أستاذ في عقيدة من مدارس السلف عن أهل النار فهناك جواب اتفاقي تقريباً؛ أنَّ غير المسلمين في النار سواء من أهل الإلحاد كانوا أم من أهل الأديان وهم ثمانون بالمئة من سكان الأرض، أمَّا العشرون بالمئة من سكان العالم وهم أهل لا إله إلا الله، فلا بدَّ أن نخرج منهم أيضاً عدداً من الفئات: مثلاً أهل **العقائد الباطنية**: من الشيعة والعلوية والنصيرية والدروز والقاديانية، وكذلك أهل **التوجهات العلمانية**: المطالبون بتحكيم شرائع أرضية، وكذلك **التاركون لشعائر دينهم** من الصلاة والصيام والحجاب.

<sup>14</sup> البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ج4 ص 138.

وهؤلاء دون أدنى مبالغة يزيدون عن نصف المسلمين، وبذلك فنحن أمام تسعين بالمئة من سكان الأرض يصنفون أعداءً لله ولرسوله، ولا يستحقون رحمة ولا مرحة، وحدهم جهنم وبئس المصير، وليس من شأن المؤمن أن يكرم من أهانه الله أو يوالي ما عاداه الله.

إنَّ تقديم الخلق والخالق للجيل الجديد بهذه الصورة سيؤدي بكلِّ تأكيد إلى صدمة عنيفة للإيمان، وسيتهي الأمر بكلِّ تأكيد إلى اعتقاد أنَّ الله خلق السموات والأرض وما بينهما عبثاً باطلاً، وذلك ما ينفيه القرآن الكريم بصراحة وحزم:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا﴾ [الدخان: ٣٨]

والحقيقة التي لا مرأى فيها أن تصويب إيماننا بحكمة الخالق لا يستقيم إلا إذا قبلنا قول العارفين الذين استغرقوا حياتهم في التأمل في الله ثم قالوا بشجاعة وصراحة:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَرَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]

ولله طرائق بعدد أنفاس الخلائق، وأن الأمم الناجحة في العالم اليوم كثير، وأن السبل إلى الله كثيرة وهي أكبر من أن يحدها شرع أو دين، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]



## مبدأ عيال الله

"الْحَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ  
وَأَحْبُهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ  
لِعِيَالِهِ"

روى عدد من أئمة الحديث هذه الرواية بصيغ متقاربة، ومن رواها البيهقي والطبراني والقضاعي والحارث والأصبهاني أبو نعيم وأبو طاهر السلفي وآخرون.<sup>15</sup> لم تكن رواية هذا الحديث تثير أيّ معنى استفزازياً في التاريخ الإسلامي، وكان مصطلح عيال الله يحظى باحترام كبير بوصفه مدخلاً دقيقاً للوصال بين عباد الله وبناء مساحة لقاء ووصال بين العبد وبين الرب.

ولكن هذا المصطلح ومع تنامي التيار السلفي أصبح يتعرض باستمرار لنقد شديد بوصفه أحد أشكال التشبيه بين الله وعباده، فالعيال ابن وأخ وأم وأب تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ويرى هؤلاء أنّ هذا الوصف مؤامرة على التوحيد يقصد بها التزلف للنصارى والأديان الشرقية التي تعزز مكان البشر أسرة واحدة تحت الله، فيما يتعين علينا أن نطالب بإله يعرفه المسلمون ويحده البشر كلهم، ويعتقدون فيه عقيدة الزيغ والباطل، وأن الإنسانية ليست أسرة واحدة وليست عيالاً لله، بل إن

<sup>15</sup> الطبراني سليمان بن أحمد، مكارم الأخلاق ص 387.

التوحيد يفرض الولاء للمسلمين والبراء من المشركين، والمشركون هنا هم البشرية كافة بمختلف أديانها ومذاهبها وعقائدها؛ إذ يتم اعتبارهم جميعاً عقائد زيع وضلال وشرك بتعين البراءة منها وبغض أتباعها في الله.

ويرى هؤلاء أنه يجب رد مثل هذه الأحاديث التي توهم أن الله والعالم أسرة واحدة، وعلى الرغم من أن الحديث روي في أربعة على الأقل من الكتب الأصول: الطبراني والقضاعي والحارث والبيهقي، ولكن قلم التحقيق السلفي حشرته في زاوية النصوص المخالفة للعقيدة والتي لا بد من إبطالها وردّها، وأفضل الطرق لذلك هو ردُّ الإسناد وتوهينه ودحره، والحديث إذن منكر بالكلية.

قناعتي أن هذا الأسلوب لتتزيه الله تعالى لا يفيد في بناء علاقة حبٍّ وشوق بين الله والعبد، ويكرس مكان الله تعالى خالقاً مفارقاً يتعالى على عباده ويتكبر عليهم ويتجبر، ولا يتصل بعباده ولا يتصل به عباده، وقد انقطع ما بينهم وبينه من خطاب السماء منذ قرون طويلة، وأنَّ الله متكبر منتقم قاهر، ذو البطش الشديد والغضب المرید، لا يصيب بطشه الذين ظلموا خصماً بل يصيب البلد الخاطئة بما جناه العصاة فيها فيقلب عاليها سافلها ويمطرها حجارة من سجيل منضود.

لا أنكر أن هذا التوجه السلفي الجاف لفهم الرب سبحانه موجود في ظاهر نصوص الكتاب والسنة بالأدلة، ويمكن للقوم أن يمتطروك بما شئت من نصوص التوحيد التي توجب التسليم المطلق: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة أراك ضالاًً أخرجوه...

ولكن المعاني الآخري التي أرادتها الصوفية في التعريف بالله تعالى رحماناً ودوداً قريباً لطيفاً شاكراً صبوراً متجلياً متديلاً هي أيضاً معانٍ منصوص عليها في القرآن والسنة، ويمكن الاستدلال بها لكل ما نبتغيه من خطاب اللطف والمواصلة بين الله وعباده.

في غمرة جفاف علم الكلام، وصرامة النصّ التوحيدى، وحزم المعاني التفويضية تغيب صفات أخرى لله تعالى تتصل بلطفه ووده ورحمته وغفرانه وتسامحه وهي موجودة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وترانا نقف قبلها موقف الريبة والحذر ولا نجرؤ أن نروي ظاهرها إلا على سلسلة من الاحتياطات والحذر.

وقد حسمت هذه المسائل بنصوص حازمة صلبة: إثبات بلا تمثيل... تنزيه بلا تعطيل، المعطلة يعبدون عدماً والمجسمة يعبدون صنماً، وهي عبارات مترافقة تحسم بشكل صارم كل أفق للتدلي بين الله والناس.

ولكن القرآن الكريم لا يلتزم هذه القواعد المتأخرة لعلماء الكلام، وفي القرآن الكريم وجه الله تعالى وعينه ويده وساقه وتدليه وتجليه.

فأخبر عن وجهه بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: ٨٨]

وأخبر عن موسى بقوله: ﴿وَلَضَعْنَا عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]

وأخبر عن البيعة بأن: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]

وأخبر عن ساق الله بقوله: ﴿يَوْمَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]

وأخبر عن تجليه بقوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

وأخبر عن تدليه بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]

وفي القرآن الكريم الله الصبور والله الشكور والله الحميد والله الشاكر والله الحامد والله الذاكر والله الولي والله القريب والله الودود.

وفي السنة النبوية أصابع الله تعالى ويمين الله وأذن الله ورجل الله، وفيها ذكر أصبعين من أصابع الرحمن، وقال: "الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ"، وقال: "ما أذن الله لشيءٍ ما أذن لنبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَيَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ"، وقال: "حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ" وفي السنة النبوية ذكر الله الضاحك، والله الفرحان، والله الغاضب والله السعيد والله المتعجب وهرولة الله.

فيقول: "ضَحِكُ رَبِّنَا مِنْ فُتُوحِ عِبَادِهِ، وَفُزْبِ غَيْرِهِ"، وقال: "لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ"، وقال: "أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا تَتَّقُونَ بِهِ غَضَبَ رَبِّكُمْ"، وقال: "عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِيَّاسِكُمْ وَفُتُوحِكُمْ".

ليس هذا درساً في اللاهوت ولكنها محاولة لمواجهة التفكير السلفي الصارم في مسائل العقائد الذي يمارس باستمرار تكفير الصوفية لتهاوهم في مسائل الاعتقاد، ثم يتولى تكفير الفرق الإسلامية الأخرى التي لا تتطابق في الفهم الاعتقادي، وتكفير التيارات العلمانية؛ لأنها تقول بخلق القرآن، وتكفير الأديان جميعاً؛ لأنها لا تلتزم تفاصيل مسألة التوحيد كما نصَّ عليها المحققون من فقهاء السلف.

ما أردت أن أقوله هو أن القرآن الكريم أوسع من هذا وأنه يشتمل على خيارات تجل وتدلل وقرب بين الله وبين العبد، لا يرضاها شيوخ علم الكلام، وفي موقف جد صادم لأوهام الإقصاء والصرامة الاعتقادية الحادة أخرج البخاري في الصحيح أن رسول الله قال فيما يرويه عن ربه: "وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا..."

لا يوجد كلام في التشبيه والتمثيل أجراً من هذا ولو أن روايه غير البخاري لتوالوا على تكفيره وتبديعه وتفسيقه، وفي البخاري من هذا أيضا قوله: "إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً". ولا نحتاج إلى أي تنبيه لنذكر بما في هذا الحديث من نقض مباشر لنهج جفاة السلفية من أهل الصارم المسلول على أهل التشبيه والحلول وقامع الإلحاد في مسائل الاعتقاد؛ إذ يبدو النبي الكريم هنا من غلاة الصوفية والقائلين بالحلول والاتحاد، يصف الله بأنه يقترب شبراً وباعاً ويمشي ويهرول! وهي تم كانت ستطال بكل تأكيد من يقرأ هذا الحديث أو يجرؤ على روايته لو لم يكن في صحيح البخاري!

نحن من صنعنا التابو الأسود حول مسائل علم الكلام، وعددناها مسائل العقائد التي لا يجوز فيها جدل ولا خلاف، وأنها قطيعات محسومة، من شك في واحدة منها كفر، ومن تأولها خلاف ما رآه السلف فقد أراد الدين بإلحاد بظلم، وبشره بعذاب أليم..

هذه المعاني والتساؤلات تتزايد باطراد كلما وقفنا على عميق ما رواه العارفون بالله من دروس الوصال، ومن المؤسف أن السادة السلفية يحسبونها تميعاً للدين وتشبيهاً للخالق بخلقه وتفريطاً بالتوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد، ويرون واجبهم في إنكارها وتكفير قائلها فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

وحين اختار الشيخ الأكبر (ابن عربي) أن يتوسع في هذه المعاني في العلاقة بين العبد وبين الرب على أساس من الودِّ والحب والهوى والغمر والعشق والوجد والكلف والوله والهيام والغرام، ويقترب من الله ويشم عطره ولونه ونوره شئاً هؤلاء أقسى

المهجوم عليه مشبهاً وحلولياً واتحادياً وأطلقوا عليه سلسلة شتائم مقدعة توجهها بلقب الشيخ الأَكفر!

المسألة تتجاوز درس التوحيد تجاوزاً بعيداً، وجدل السلف والخلف، وظاهر اللفظ ومؤوله، وتطرح بوضوح سؤال الوفاق الإسلامي بين المسلم وأخيه المسلم، صوفياً وسلفياً، وسنياً وشيعياً، وتفتح بوضوح سؤال اللقاء بين المسلم وأبناء الأديان الأخرى، وتدعوننا لمراجعة الفكرة السائدة أنّ العقائد مسائل حسم صارم، وأنّ الخلل فيها يوجب الخروج من الملة والخلود في النار.

وفي الواقع فإنّ الخلاف في العقائد ليس إلا الخلاف في الرأي الذي بات اليوم أكثر مسائل الحريات سطوعاً ووضوحاً في العالم، وهي حقيقة أشار إليها القرآن الكريم في مجموعة الآيات اللإكراهية وهي تتجاوز العشرين آية، ومنها: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩]

ويلزم التأكيد هنا أنني توسعت في هذا الباب بهدف التأكيد على أن التعبير عن الأسرة الإنسانية بأنها عيال الله أو عائلته أو أسرته هو أمر عادي تماماً، وهو لا يمسّ تنزيه الله في شيء، وهو كالتعبير بناقة الله وهرولة الله وساق الله ورجل الله وضحك الله وغير ذلك مما جاءت به النصوص وتقبلها الرواة جميعهم بمن فيهم أهل الظاهر.

وهكذا فإنّ تعبير النبي الكريم عن الخلق بأنهم عيال الله، يدعوننا إلى بذل أقصى ما يمكن من صلة الرحم والمودة والمحبة بين هذه العائلة الجليلة، واحترام ما أقامها الله تعالى فيه من الأديان والعقائد والمبادئ التي تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فما من دين في الأرض إلا وهو يدعو إلى الصدق والفضيلة والمحبة والرحمة والأمانة، وما من دين إلا وهو ينهى عن الخيانة والكذب والقتل والسرقة، ولو سألتني كم عدد هؤلاء الذي تدعوهم أديانهم إلى الحب والخير والصدق والفضيلة

وكم عدد أولئك الذين تدعوهم أديانهم إلى الشر والغدر والمكر؛ لقلت دون تردد إنَّ قيم الأديان المتبوعة في العالم تدعو إلى الخير والرحمة بواقع 999 وربما تجد واحداً بالألف من هذه الوصايا والقيم تدعو إلى الشر، ولا شكَّ في أنَّ تمييز الخير من الشر في القيم الدينية لا يصعب على أيِّ باحث يؤمن بالخير في الإنسان ويؤمن بالحكمة في الرحمن.<sup>16</sup>

---

<sup>16</sup> من المؤسف أننا نتلقى تعليماً معاكساً، وفي الحديث المروي في البخاري أن الله يقول لأدم يا آدم أخرج بعث النار فيقول يا رب ومن بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعون نفساً.



## مبدأ مساواة الأديان

هل يسوغ هذا العنوان؟ الجواب للأسف الرفض في الأديان كلها، فهناك قدر من الاتفاق بين الجميع أننا نمتلك الحقيقة وأن الآخرين في ضلال مبين، وحين تصرح باعتقاد كهذا فإنهم سيرفضونك في معابد الأديان، وقد لا تجد مكاناً في مقابرهم أيضاً.

ومع ذلك فيجب التَّحَفُّظُ على هذا التعميم فالأمر يختلف في الديانات الفيديّة والصينية واليابانية؛ إذ يمكنك التدين ديانات عدّة ويبدو الأمر تشاركاً في منابع المعرفة والثقافة الروحية، ولا يثير أي إشكال؛ إذ تقوم العقيدة على المرونة وعدم الحسم واحترام الجميع.

الأديان رسالات السماء للأرض، والأصل في الأديان احترامها وتقدير أهلها، وهذا أمرٌ بديهي، وهو مقتضى العقل والعدل والمساواة التي هي الجوهر العميق للأديان، وهو ما تؤكدُه نصوص كثيرة في القرآن الكريم، تكررت أربع عشرة مرّة بعنوان: مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، توضح الصِّلة بين القرآن الكريم وبين الكتب الأولى، وأنها من مصدر واحد، ﴿إِنَّ هَذَا لَبِئْسَ الْأُولَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨]

وتؤكد أنّ في القرآن ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]

وأنّ لكلّ أمة رسول وكتاب، وأنّ الخير والبر محمود من كلّ إنسان، مهما كان دينه، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليهم بالمتقين، ولا يظلمون نقيراً ولا يظلمون فتيلاً، وإن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

ولكن الكارثة أنك ستواجه بسيل من الأدلة أن الأزدراء والاحتقار للمشركين هو واجب ديني والتزام عقائدي، فالقرآن هو من قرر كفر النصارى بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ﴾ [المائدة: ٧٣]

وكذلك قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]

ثم نصَّ بوضوح في المشركين أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، وإنما المشركون نجس، وأنهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً، وأنهم القردة والخنزير وعبد الطاغوت... إلى آخر هذه القائمة الطويلة، التي لا تسمح باحترام المشركين، مهما ظهر منهم من لطف وعقل ولين.

وفي هذا السياق الهائج، انطلقت في السنوات الأخيرة قنوات متخصصة بفضح شركيات النصارى وبيان بؤس عقائدهم وضلالها، وهي تتلقى باستمرار دعماً من جهات ترغب في نشر الدعوة (الصحيحة) وكشف البدع والزيغ.

وفي مقابل ذلك تنطلق قنوات تلفزيونية شريرة، يقدمها كهنة محترفون تبث من مدن مجهولة وبعضها عائم في البحر على سفن غاشمة، وتتخصص في إهانة الإسلام واحتقار قيمه، وهي قنوات سوء وشر، وتشكل مع قنوات التحريض ضد النصارى سلسلة ظلمات بعضها فوق بعض.

ولا يمكن في الواقع فهم هذه الجرائم الأخيرة المتتالية في نيوزيلندا وباريس والنمسا إلا في سياق هذا التحريض الإجرامي الذي يمارسه كهنة وشيوخ ينشرون الكراهية والبغضاء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

إنَّ المواجهة هنا في جوهر النص، وهي منازلة لا يمكن تأجيلها على الإطلاق، بعد أن صارت جوهر ما يقدمه التكفيريون ليس فقط في حوارات بلهاء، بل في ممارسات مباشرة، يسقط فيها عشرات الضحايا، ومن الواضح أنهم جاهزون لارتكاب المزيد.

لا يمكن تبرير هذه المواجهة الساخنة بالقفز فوق الكارثة، والاكتفاء باختيار نصوص الرحمة والإحسان، ثم دفن الرؤوس بالرمل بعد ذلك، وتجاهل ما يحمله التكفيريون من براهين مقابلة تعزز خطاب الكراهية والتمييز.

يبدو الدفاع عن مساواة الأديان واحترامها عملاً عابثاً، فكيف يمكنك أن تحول ظواهر هذه النصوص وهي في متن القرآن، ولها نظائرها في العهد القديم والجديد، ولا ينفع معها أيُّ وجه من توهين الإسناد أو اتهام الرواة أو القول بضعف الرواية أو نكارتها ووهائها.

من المؤكد أنَّ نصوص التسامح والغفران تعادل نصوص القسوة والشدة والتمييز، وربما تزيد عليها، وفي القرآن الكريم ذكرت معابد الأمم باحترام بالغ، وخصَّ منها الصوامع والبيع وعدَّ احترامها وحمایتها واجب الدولة المسلمة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَادِمَتِ الصَّوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]

وفي القرآن الكريم أيضاً ذكر القسيسون والرهبان والأحبار والريانيون باحترام بالغ:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَمْتَكِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]

ويجب القول: إنَّ الثناء الوارد في القرآن الكريم على النَّصَارَى قد ورد على نصارى متمسكين بدينهم، وليس فقط أولئك الذين تحولوا إلى الإسلام، ولو كان المقصود هو من تحولوا للإسلام ل جاءت الآية :

ولجاءت الآية: ذلك بأن منهم صحابة ومهاجرين ومجاهدين، ولكن الآية صرحت:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهَبًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]

وفي القرآن الكريم ذكرت باحترام رسالات الأديان الأخرى التوراة والزبور والإنجيل:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]

﴿وَأَنَّا نُنَادِي دَاوُدَ زُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]

من المولم أن نعترف بأن النصّ يقدم قراءات غير متطابقة حول الآخر، وفيه الاحترام وفيه الازدراء، وفيه الاعتراف والجحود، وفيه الأمر بالبطش والأمر بالإحسان. ولا يمكن الهرب من هذه الحقيقة إلا باللجوء إلى النصّ القرآني المحوري الذي كرّس حقيقة وجود المتشابه في القرآن الكريم، وهي آية خطيرة ومركزية، في صدر سورة آل عمران ونصها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]

والصراحة القرآنية الواضحة بوجود المتشابه توجب القول بوضوح: إن ما ورد في القرآن الكريم، من تحقير وازدراء، لا يشمل الأديان في جوهرها، وإنما يتصل بسلوكيات خاصّة في أفراد مخصوصين، وأنه لا يجوز أن يكون حكماً عاماً على كلّ مختلف في الدين.

لا أجهل أنني لا أستطيع الحسم في هذه القراءة المتعجلة، ولكنها تكفي لفتح طريق الإنقاذ من النصّ المقدس، والاعتراف بأننا جميعاً انتقائيون، فالمسألة ليست مواجهة العقل والنقل، ولا مواجهة النصّ والاجتهاد، ولا مواجهة التفويض والفقهاء، إنما في العمق والحقيقة مواجهة النصّ للنصّ، والآية للآية، والحديث للحديث، ويجب الاعتراف دون تردد بأننا جميعاً انتقائيون.

وفي نصٍّ صريحٍ ومباشرٍ يدعو القرآن إلى انتقائية عاقلة: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٨]

وفي نصٍّ آخر أشدُّ وضوحاً: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]

وفي الكتاب المقدس فنحن مدعوون أيضاً لتجاوز النصوص الكثيرة في العهد القديم التي أمرت بسحق المخالفين وإبادتهم وإفنائهم، ((يا موسى.. اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم وأصيرك شعباً عظيماً)) والتحول بدلاً من ذلك إلى النصوص العامة الوافرة التي تأمر بوضوح بالإحسان إلى الجميع ومحبتهم، ((لتكونوا أبناء أبيكم في السموات فإنه يشرق شمسُه على الأبرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين، فإن أحببتم الذين يحبونكم فأبي فضل لكم، بل أحبوا أعماءكم باركوا لاعنيكم وصلوا لأجل الذين يبغضونكم، وطوبى لصانعي السلام فإنهم أبناء الله يدعون)).

الانتقائية الإيجابية هي السبيل الوحيد للاختيار من هذا التاريخ، والعقول الرشيدة هي التي تتخير من هذا التاريخ ما يناسب الحاضر ويضيئه ويغنيه، أما تلك النصوص التي لا تخدم مقاصد الإسلام الكبرى من العدل والمساواة والرحمة والمحبة، فهي سياق تاريخي له ظروفه وتعقيداته، يحتمل النسخ أو التقييد أو التخصيص أو التأويل أو التشابه، وقد كان فقهاء الإسلام شجعاناً حين قرروا هذه الأبواب وأطلقوا عليها اسم شروط الاستدلال بالنص، وتحدثوا بشجاعة عن أعمال العقل في فهم النص، وبذلك يمكننا أن نحقق الانتقائية العاقلة ونحتفظ بالاحترام والقداسة للنص الديني، ونحيل ما لا يتسق مع الواقع ولا يحقق أغراض الشريعة في الإخاء إلى ظروف تاريخية غابرة، يتصل بالأمم الغابرة، يحكمها النص القرآني الحكيم الذي تكرر في صفحة واحدة مرتين بالحرفية ذاتها: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَرَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَنْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]



## مبدأ: عدالة الله في السماء

أثارت كلمات بسيطة كتبها حول إيماني بأنّ الجنة حقٌّ لكلِّ صالح من كلِّ دين، غضب كثير من المتابعين الذين عدُّوا مزاحمة غير المسلمين لهم في الجنة عملاً دنيئاً، يفسد حقَّهم في الاستئثار بالنعيم المقيم، وراحوا يطالبون بإخراجهم من الجنة التي خصصت لنا نحن معاشر أهل السنة والجماعة دون سائر العالمين.

ومع أنّ الجدل في هذا اللاهوت من شأن كتب الكلام والعقيدة، ولكنني أحببت بالفعل أن أكتب هذه الكلمات معذرة إلى ربكم وذكرى لعلهم يتقون.

فقد آلني أن يكون اعتقاد المسلم أنّ الله لا يتقبَّل إلا منا، وأنّ النَّاس مهما عملوا من خير فهم ملعونون مرذولون إلا إذا تركوا أديانهم ودخلوا في ديننا ولحقوا بأهل السنة والجماعة، وحين تذكر لهم الأعمال الصالحة الهائلة التي يقدمها محسنون غريبون تعدُّ بالمليارات، ويذهب كثير منها إلى دول فقيرة إسلامية، ييادهك المحاور بسرعة إن هؤلاء المحسنين يأتون يوم القيامة: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ الغاشية: [٣ - ٤]، وأنّ الله لن يتقبل إلا منا، وأنّ الله يقدم إلى ما عملوا من عمل صالح فيجعله هباءً منثوراً. لا أدري كيف يتمكن المسلم من اعتقاد ذلك كلّّه، وفي الوقت نفسه يؤمن بعدالة الله ورحمته!

قناعتي أنّ النَّاس من الأديان والأمم كافة يصدرون يوم القيامة أشتاتاً ليروا أعمالهم، وأنّ قانون الحساب والجزاء في الآخرة هو: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]

والذرة لمن لا يعلم هي الهباب الذي يتصاعد غباره من السجاد حين تكبسه، والهبابة الواحدة منها يقال لها ذرة ولو قسمتها إلى 24 قسماً فأنت هنا تملك قيراط ذرة أما

لو قسمتها إلى 48 قسماً فأنت هنا تملك مثقال ذرة وهذا هو الذي قال القرآن عنه إنه لا يضيع ثوابه يوم القيامة.

إنني أخجل بالفعل حين أقرأ هذا عن الله سبحانه، ثم أقرأ لشيخ مسلم يجزم دون تردد أنّ الأعمال النبيلة كلّها التي يقوم بها محسنون كرام من غير المسلمين هي رياء وسمعة لا أجر لها ولا ثواب فيها، وأنهم مهما ظهر منهم العمل الصالح، فإنهم هالكون ساقطون ومألهم إلى جهنم وبئس المصير.

ويؤلمني أنّ أصدقاء كثير يسرون إليّ بأننا مقتنعون بما تقول وأن مقتضى العدالة أن ينال المحسن ثواب إحسانه والمسيء ثواب إساءته، ولكن النصوص لا تساعد على هذا، وأنّ الجنة فقط من نصيب المسلمين وبخاصّة أهل السنة والجماعة، وأنّ كلّ الأديان محكوم على أهلها جميعاً بالويل والثبور ونار السعير.

وتعدّ هذه المسألة من أشدّ المسائل الضارية في الصراع بين العقل والتّصير، فالعقل يأخذك إلى قبول عمل الآخر والتّصير ينكره، وأنت في تناقض رهيب بين عدالة الله وبين نصوصه، ولعله المعنى إياه الذي أشار إليه أبو العلاء المعري بقوله:

هذا الذي جعل الأفهام حائرة      وصير العالم التحرير زنديقاً

ولكنني أعتقد بيقين أنّ عدالة الله تعالى ليست مسألة عقل فقط، إنّها مسألة نصّ أيضاً، وأنّ دخول المحسنين من الأمم جميعاً إلى رعد الجنة هو أيضاً مسألة نصيّة، وأنه يمكنك في الواقع الاستدلال للفريقين بأدلة النص، فالمؤمنون الذين يؤمنون بعدالة الله تعالى لديهم نصوصهم من القرآن، والذين يرفضون ذلك ويرون أنّ الله ملزم أن يغلق باب الجنة علينا وحدنا لديهم أدلتهم في ذلك.

ولن أزيد في هذا المقال عن إيراد عشرة نصوص تدل لهؤلاء، وعشرة تدل لهؤلاء،  
وكلها قرآن كريم....

وبعد ذلك يجب أن نقول إننا جميعاً انتقائيون، فمن قبل ظاهر العشر الأولى تأوّل  
العشر الثانية، ومن تأوّل ظاهر العشر الأولى قبل ظاهر العشر الثانية، ومن رفض  
ذلك فقد كفر بعقله.

### الآيات التي تدل على نجاة الصالحين والطيبين من أي دين:

- ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴿١٠٥﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ ﴿١٠٦﴾﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]
- ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقْنَا إِلَيْكُمْ أَلْسِنَةً لَسْتُمْ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]
- ﴿وَمَا يَتَعَلَمُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١١٥]
- ﴿وَقَالُوا لَنْ نَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٣﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ وَأَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١ - ١١٢]
- ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: ١٢٣]
- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤]
- ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعِبَادَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩]
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]

## الآيات التي تدل على أن الجنة خاصة بالمسلمين دون سواهم:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأُولِي الْأَسْلَمِ﴾ [آل عمران: ١٩]
- ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]
- ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ عَلِمُوا أَنَّ هَبَاءَ مَنْشُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]
- ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]
- ﴿لَيْتَ أَشْرَكَتَ لَيْحَظَنَّ عَمَلَكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]
- ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٧]
- ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]

ليست هذه المقالة لتأويل أيّ من هذه النصوص، ولكنها تضع العقل في مواجهة الحقيقة، وتلزمك الاعتقاد بأن القرآن الكريم حمّل أوجه، وهو بستان حكمة كبير، وأن نصوصه محكمة بأسباب نزولها وظروف تنزيلها، وهو نور يهدي، وليس قيداً يأسر، وأن على من يختار نصّه من القرآن الكريم أن يدرك تماماً أن الآخرين لهم نصوصهم، ويبقى الحكم على ذلك كلّهُ هو عدل الله ورحمته، وما يتفرع عنها من الإيمان بمقاصد الإسلام الكبرى من العدالة والحكمة والمساواة وتوحيد الخالق سبحانه.

## مبدأ الفطرة

هل يمكن أن تحمل الفطرة السليمة الدوافع الكافية لبناء إحاء بين الأديان، وتراحم بين الإنسان والإنسان؟ وهل يمكن التعبير عنها بالقانون العميق للقيم الإنسانية؟

الفطرة مصطلح إسلامي خالص وهو يعني بدقة ما زرعه الله في الإنسان من خير، وقد أشار إليه النص القرآني بوضوح: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]

ولا تختلف التفاسير في شرح معنى الفطرة وهو معنى بدهي يسبق إلى الذهن عند الوقوف أمام دلالاتها، ويشرحه الحديث الكريم: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ"، ثم يتولى الحديث بيان تغير الفطرة بالتأثير الخارجي "فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ" والتعبير هنا دقيق فالأصل في الناس كافة الفطرة وسلامة القلب والاعتقاد، ولكنها في النهاية محكومة بالتأثير الخارجي.

والفطرة أكثر العقائد شعبية في العالم، وهي تدفع الإنسان تلقائياً للإيمان بالخير في أخيه الإنسان، ويؤمن بها المسلم والمسيحي واليهودي ويؤمن بها كذلك أتباع الأنبياء الذين لم يقصصهم الله في القرآن، كما يؤمن بها كل من يؤمن بالإنسان مصدراً للخير والسلام والمحبة.

ففي الفطرة يؤمن المسلمون جميعاً بأنَّ الله تعالى خلق الخلق على الفطرة الأولى، وأنَّ هذه الفطرة التي فطر الله النَّاسَ عليها هي فطرة إيمان وتوحيد وحبٍ للخير ونبذ للشر، والإجماع منعقد بأنَّ فطرة الله وروحه التي نفخها في الناس هي طبيعة الإنسان

وجوهره وأنه لا يوجد في هذا الكوكب شخص واحد لم يخلق بكلمة الله ولم ينفخ فيه من روحه ولم تستودع فيه فطرة الله!.

والفطرة هي المشترك الإنساني الذي خلق الله الناس عليه، وهي مسألة اتفاقية، وهي كفيلة بأن تبعث الحبَّ والإخاء بين البشر، وفي عقيدة المسلم أنَّ الله تعالى كَرَّمَ الإنسان وأنزَّله منزلة سيِّد الوجود ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته قبل أن يكون هناك أديان أو أوطان أو أنبياء وقبل أن تكون في الأرض مساجد أو كنائس أو معابد، وبذلك قام الإنسان في الأرض روحاً من روح الله، ونفحة من نفحاته، وسراً من أسراره، وانطلق يحكم هذا الكوكب بما سخَّرَ الله له من نعمة العقل والحكمة.

وإيماني أن الهدف من تدريس هذه العقيدة لكلِّ مسلم هو بناء ثقافة ثقة بين الإنسان المسلم وبين العالم، فالفطرة إذن قدر مشترك بين الشعوب والأمم، ومن حقنا أن نبحث عنها في كلِّ أمة وفي كلِّ شعب وفي كلِّ حضارة، وأن نقارب ونحلل لنصل إلى المشترك الإنساني بين البشر.

ومن المؤكد أن الخلق صادر عن حكيم ولا يمكن أن يكون إلا عدلاً ورحمة، ومن غير الجائز أن يفطروهم على الكفر أو الشر، أو يلهمهم الشرك والجحود؛ لأنَّ ذلك يستلزم فيه المكر والعبث وهو منزه عن ذلك كلِّه سبحانه.

تماماً... إنه الكائن الذي خلق على صورة الله، وفيه عطره ولونه وريحه، عربياً أو أعجمياً أو أمريكياً أو أسترالياً أو ليبرالياً أو متديناً أو اشتراكياً أو رأسمالياً، لا يوجد خالق آخر هنا، إنهم جميعاً قدموا من مخاض يتم بطريقة واحدة، أرحام تدفع وعيون

تخشع وهو نفسه نفخ فيها الروح وهو نفسه مسح منها الجبين وهو نفسه أهمها فجورها وتقواها...

حين نقترّب من هؤلاء الوافدين من مهبط السماء على أطراف الكوكب، سواء كانت حكاياتهم على نسق آدم وحواء أم على نسق إيزاناجي وإيزانامي، أو على نسق آدم أند إيف، أو على نسق أهورا مزدا، وما لحق بذلك كله من الأساطير، فإننا نقترّب من كائن واحد، يحمل الرغائب ذاتها والغرائز ذاتها والآمال ذاتها، لا يوجد في هذا الكوكب أحد يجب الموت ويكره الحياة، ولا يوجد أحد يجب الخيانة ويكره الأمانة، ولا يوجد أحد يجب الوخم ويكره العطور، ولا أحد يجب الكذب ويكره الصدق.

الخاطئون والمنحرفون عن الفطرة قلة نادرة، وهم حصاد تشويه للفطرة، ولهم مكانهم في سجون العالم المتحضر، في برامج مدروسة لإعادة تأهيلهم وفق الفطرة الأولى التي كانوا فيها.

حتى الآن هناك قيم إنسانية مشتركة، تعكس اتفاق الإنسانية في معظم أهدافها وقوانينها، وحين تنزل بيلد متحضر فيامكانك بسهولة أن تتصور أحكام القانون فيها على أساس من العدالة المطلقة المسكونة في فطرتك، وحين تخطئ في التقدير في بعض الفروع فذلك؛ لأنك لا تحيط بمبررات القوانين وأسباب نزولها وورودها.

في تجربة الاتحاد الأوروبي بعد خمسة قرون من الحرب والدم، استيقظ العقل والفطرة في ماستريخت، وخلال عقود قليلة أصبحت قوانين أوروبا في دولها الخمسين متطابقة في أكثر من 95 بالمئة من تفاصيلها، وتكاد تكون متفقة تماماً في المبادئ العليا والقيم الكبرى في الحرية والعدالة والمساواة وحقوق الإنسان.

إنها في النهاية الفطرة الواحدة، القادمة وفق قواعد الإيمان من نفخة الروح التي أنجزها الله، الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون.

إنها نفحاته وعطاياه، ومنحه ومزاياه، تتجلى في آهات الإنسان، في عذباته وأفراحه، في شعره ونثره، في مناهجه التعليمية وأحكامه القضائية وأغانيه الشعبية...

إنها الحقيقة التي عبّر عنها إقبال بقوله: "عطرك اللهم في الإنسان ما زال ولونك!!"

القيم التي بشرت بها الأنبياء: العدل والمساواة والحرية والفضيلة والخير والجمال والحب والسلام والطهارة والرحم والأسرة والعفاف... ما تزال هي صورة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولا تزال تحصد الأغلبية في برلمانات العالم؛ لأنها في العمق قراءة من الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿لَا يَبْدِلُ لِحَاقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيُّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]

وإذا تأكد أن الفطرة وضع إلهي يتساوى فيه عباد الله وينتج قيماً وفضائل يهتدي إليها الإنسان بالفطرة، فإن ذلك سيقودنا مباشرة إلى فهم إيماني للقيم الديمقراطية التي تقوم على مبدأ الحفر في الإنسان واكتشاف دقيق إرادته وصحيح رغبته وتوجهه.

وفي عبارة أكثر مباشرة ووضوحاً يقول جودت سعيد: "الديمقراطية لون من التوحيد الخالص ومظهر الدين القيم..."

والمعلم جودت سعيد، لا يتلو خطاباً انشائياً أو فكرة عابثة، إنه يتحدث في الجوهر عن الإنسان بوصفه مشروع الله الرئيس على هذا الكوكب، وعن الفطرة التي أودعها

فيه قبل أن ينزل الكتب ويبعث الأنبياء ويشترع الدين ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]

ويعضى جودت سعيد<sup>17</sup> إلى أفق آخر، فالديمقراطية هي محاولات عميقة تستهدف معرفة ما يريد الناس وفق فطرتهم السليمة، وتحقيق ذلك، وحين يؤمن المؤمن بأن فطرة الله التي فطر الناس عليها ما تزال حاضرة في ضمير الإنسان، وهي تماماً أثره وفعله وسره، أو وفق تعبير إقبال: "عطرك اللهم في الإنسان ما زال ولونك..." أو كما روى البخاري: "إنَّ الله خلق آدم على صورته".

عندما تبتكر الديمقراطية آليات جديدة تستطيع أن تقرأ بحياذ ما في الضمائر والفطر، فهي تمارس قراءة لفطرة الله، وهي لون من الوحي، وهي تماماً تقرأ في الكتاب المنشور ما يقرؤه الناس في الكتاب المسطور، إنها الوحي الأفقي من ميراث الوحي العمودي، أنهم يقرؤون في الكتاب المجلو ما يقرؤه الناس في الكتاب المتلو، إنهم يقرؤون من آيات الآفاق والأنفس ما يقرؤه النَّاس في سطور المصاحف.

ما البرلمانات وما الديمقراطية؟ إنها في الجوهر الحفر في الإنسان والبحث بدقة عن رغائبه ومطالبه بعيداً عن كل تأثير ديمagogي، إنها البحث في حاجاته الحقيقية التي يطالب بها الإنسان السوي، إنها البحث عن الإنسان في الأفق الأعلى الذي ينبغي أن يسعى إليه في عالم من التدافع والتنافس، تصطدم فيه الإرادات والمصالح.

لا نعبد الديمقراطية، ولا نزعم أنها وحي معصوم، ولا نشك أنه تعرض لها تأثيرات وتشويهات وتضليل، ولكن ذلك ينحسر يوماً بعد يوم بأدوات الديمقراطية نفسها التي كان الرسول الكريم يذكر بها بين الحين والآخر، الزم سواد الناس الأعظم،

<sup>17</sup> ما نزويه هنا عن المعلم جودت سعيد، أستاذ العرفان في بلاد الشام، فقد دلت كتبه عليه، ولكننا نزويه هنا مشافهة من خلال صحبتنا له وتحصيل النور والفكر من فواده وقبله.

لا تجتمع أممي على ضلالة، ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله، أنتم أعلم بأمور دنياكم.

وتأسيساً على ثبوت الفطرة في كل مولود، وشمولها كل نفس نفخ فيها الرحمن بروحه، فقد بات من المنطقي تماماً أن نتساءل: لم لا تكون الفطرة هي هذه القيم العالمية التي يتوافق عليها حكماء العالم ومشروعة؟

لماذا لا تكون قيم العالم الحر في المساواة والحرية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة والطفل وحماية اللاجئين وغوثهم وتشغيلهم وتحريم الاسترقاق والتجارة بالبشر وحماية البيئة هي الفطرة التي فطر الناس عليها؟

لماذا لا تكون تلك المنجزات التي سطرها الإنسان في صدر دساتيره في العالم وصوتت عليها الشعوب في الأرض والتي تؤكد نصوصها على إخاء الأديان وكرامة الإنسان؟ تبدو فكرة الفطرة في الإسلام كما في سائر الأديان فكرة ضرورية لبيان قدرة الخالق، وعظمته في أنه خلق البشر على قدر كبير من التشابه في الطبائع والغرائز، ولكنها للأسف تقتصر عند حدود هذا الجانب الأيديولوجي، الذي يستخدمه علماء العقائد، وقل أن تصل إلى ذلك الأفق الذي يقصده علماء الاجتماع.

من المسلم به فقهياً واعتقادياً أن الخالق واحد وأن هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها متشابهة، نظراً لوحدة الصانع، بل إننا نملك في الوعي القرآني أن نقول إنها متطابقة وليست فقط متشابهة؛ لأنَّ الخالق هنا كلي القدرة مطلق العصمة لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفي الإطار الأيديولوجي فإن الحديث عن آيات الله في الخلق هي الغالبة ومن هنا تناول الفقهاء والمفسرون بتفصيل كبير وحدة الخالق عبر النظر في طباع المخلوق وفطرته وغرائزه، إنساناً وحيواناً، وأصبحت مظاهر التشابه بين الكائنات الحية واحدة من أدق مظاهر التعريف بالله سبحانه والتأكيد على وجود الخالق.

ولكن الأفق الاجتماعي في هذه العقيدة من وجهة نظري هو البعد الأهم؛ إذ تبدو الفطرة هنا حجر الرحي وهي تحدد المشترك الإنساني وآفاق التعاون والتكامل بين سكان هذا الكوكب من بني آدم على اختلاف طبائعهم وشعوبهم وقبائلهم وأديانهم.

وتستند فكرة الفطرة التي فطر الخالق عليها الناس إلى مبدأ أشد تأثيراً وفاعلية وهو النفخ من روح الله، فالكائن البشري وفق القيم الإسلامية الواردة أيضاً في التوراة والإنجيل، هي أن هذا الإنسان فيه أيضاً نفخة أو نفخة من روح الله، وهذه النفخة هي التي تحقق التشابه بين الإنسان وأخيه الإنسان، حتى يكون مظهراً لروح الله تعالى ووجوده.

ومن المؤكد أن هذه العقيدة قد تطورت صوفياً إلى حدّ القول بوحدة الشهود ووحدة الوجود، ومن المؤكد أن وحدة الوجود التي عبّر عنها ابن عربي والصوفيّة من بعده ليست على الإطلاق شطحة عابرة قالها في المحو، بل هي جوهر رسالته وجوهر دعوته الإنسانية، وقد كررها في الفتوحات أكثر من مئة مرة كما كررها جلال الدين في المثنوي عشرات المرات وهو يتحدث عن روح الله وتجليه وأسراره التي أودعها الله في الإنسان.

إنّ الاتفاق بين فقهاء الشريعة قائم على أنّ الفطرة الإلهية والروح الإلهي المبثوث في الإنسان هو قدر سابغ على الخلق جميعهم، وليس اختصاصاً يخصّ ديناً دون دين

أو شريعة دون شريعة، فتكريم ابن آدم سابق على الأديان والمذاهب والعقائد، ولا شك في أنّ المقصود بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، هو الإنسان الأول قبل أن يتم توزيع النَّاسِ إلى شعوب وقبائل وملل ونحل، ولم يقل أحد من الفقهاء المعتبرين أنّ الفطرة خاصّة بالمسلمين أو أنّها تكريم خاصٌّ بأمة محمد، بل ظلَّ الفقهاء يقولون بعموم الفطرة وعموم النفخة في الخلق جميعهم، وهو العموم الذي جاء به الحديث الشريف: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يُنَصْرَانِهِ أَوْ يُمَجْسِرَانِهِ" والمعنى واضح تماماً وهو أنّ الفطرة قدر متساوٍ بين البشر ولكن التأثيرات الاجتماعية قد تشوش من صفاء هذه الفطرة وتفرض الأيديولوجيات تشويشاً وتشويهاً للفطرة الأولى.

ولا يختلف الموقف الفقهي في أنّ المسلمين كسائر الأمم يعرض لهم ما يشوش فطرتهم ويحيل صفاءها إلى كدر وصوابها إلى وهم ونقاءها إلى مطامع، ولكن جوهر الفكرة وجوهر الروح الإلهي باقٍ في ابن آدم، وهو الغالب على سلوكه وطبعه فيما لم تقم الشياطين باغتياله وفق التعبير النبوي الحكيم.

ولكن أين يمكن التماس هذه الفطرة الأصيلة أو ما تبقى منها في سلوك بني آدم؟ يؤسس هذا التساؤل لمبدأ علمي تحكمه قوانين الرياضيات في البحث عن المشتركات الإنسانية التي هي لون من مظاهر الفطرة التي فطر النَّاسَ عليها وهي الصورة الحقيقية لما أودع الله في جوف ابن آدم من أسرار وعجائب.

إنَّ موقف البشريّة المتطابق في القيم من التأكيد على العدالة والأمانة والنظام والوفاء بالعهود وتحريم القتل والسرقة والربا الفاحش وتجارة الفحشاء والإدمان على الكحول والمخدرات والقمار وتحريم الاستبداد والاسترقاق والتعذيب الجسدي والانتقال في

العقاب من العقوبات الانتقامية الثأرية الجسدية إلى العقوبات الإصلاحية المتحضرة هو لون من مظاهر الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ولكن ما نرسمه من المشترك الإنساني بين الثقافات والحضارات لم يؤد إلى إنتاج شرائع متطابقة، وما تزال الاختلافات كثيرة وجوهرية على الأقل في الإطار القانوني في الدول المتقدمة، مما يؤكد أنَّ البشرية في سيرورتها وإن أنتجت قيماً متشابهة ولكنها لا تنتج شرائع متطابقة.

ولا بدَّ للجواب على هذا الإشكال من إثارة نقطتين:

الأولى: إنَّ أحداً لا ينبغي أن يفكر في إنتاج الشرائع المتطابقة، فهذا حلم غير واقعي وغير مطلوب، إنَّ المطلوب هو الاتفاق على أصول عامّة في المبادئ يكون الإنسان فيها هو محور التشريع وغايته، وهو ما أصبح يعرف حقوقياً بالمواد فوق الدستورية، ولا بأس أن يكون لكل أمة شرع ومنهاج، ولا يضير هذا الحقيقة في شيء، وهو حكم قرره القرآن بصريح العبارة: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]

الثانية: إنَّ نفي التطابق لا يعني أنَّ المقاصد العليا للسعي البشري متناقضة، بل نحن من يصورها كذلك، وحين أطوف اليوم بين الحقائق التي أقرتها الإنسانية في مبادئها العامّة عبر شرعة حقوق الإنسان، واتفاقية سيداو لحماية المرأة، واتفاقية حقوق الطفل، واتفاقيات منع التعذيب، واتفاقيات حماية البيئة يدهشني حجم الاتفاق العالمي على مستوى الخبراء والعلماء وقد نجحوا في تحويل كثير من هذه الأفكار العظيمة إلى تشريعات ملزمة تنعم بها الشعوب وتتجه نحو عالم محترم تسود فيه القيم العادلة ويستوي فيه الإنسان مع أخيه الإنسان.

ويتهمني بعضهم بأنني مبهور بالحضارة الغربية، وجوابي بالطبع هو الإيجاب، بل إنني أتغزل بهذا النجاح البشري في حقل العدالة والمساواة والكرامة الإنسانية، وكم وددت لو مضى الخطاب الديني العربي للتغزل بهذه المنجزات الحقيقية للأسرة البشرية وقام بدعوة الناس للدخول في هذا الخير الإنساني بدلاً من الكفاح المضني لتجميل تاريخ ليس بجميل، وتلميع ماضٍ قاسٍ لا يحترم قيم العدالة والمساواة، والتغني بأجماد في تاريخنا تشبه ما في تراث الأمم، بعضها رحيم ونبيل وكريم، وبعضها أجماد كاذبة قامت على ركام من الجماجم والدم.

إنني أجد في الفطرة التي فطر الله الناس عليها مبدأ كاملاً لاحترام المنجز الإنساني على المستوى التشريعي، وبنسب أداء عالية تقدمها الأرقام، وحين ندعو هنا لاحترام المنجز الإنساني فإنني بكل صراحة أجد في هذه الدعوة مبدأ احترام الله نفسه، الذي جبل الناس على حبِّ قيم الخير والفضيلة وكره إليهم الفسوق والردائل.

ولا بد من مناقشة موضوعية للموروث السلفي فيما يتصل بأمر الفطرة، فهذا التفاؤل الذي نبعثه في القارئ من وجود الفطرة في الخلق جميعهم واعتمادها محوراً للإخاء الإنساني يواجه قدراً كبيراً من الإحباط حين نتعامل مع العقل السلفي الراض لدور العقل، ويمكن رصد سببين اثنين لهذا الإحباط:

الأول: لقد تعرضت مسألة الفطرة إلى اغتيال مريع حين جرى اختزالها ببعض السلوكيات الهامشية: التأويل الشهير في كتب التفاسير؛ إذ تم اختزال الفطرة من القيم الإنسانية العليا المشتركة إلى المضمضة والاستنثار وترف الإبط وتقليم الأظافر والختان وغيرها من السلوكيات الطقسية الهامشية التي يشترك فيها الناس، وهي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه (انظر تفسير سورة البقرة آية 37 للمفسرين كلهم

بالمأثور) ولكنهم لم يذهبوا قط إلى تحليل البعد الحقيقي للاشتراك الإنساني في هذه الطقسيات وتحويلها إلى مدخل لفهم الاشتراك الإنساني في إرادة الخير والتعاون بين الناس شعوباً وقبائل، ودولاً وأحزاب، لوقف الظلم والقهر والاستعباد والاستبداد.

الثاني: إنَّ الفكرة السائدة في التعليم الديني هي أنَّ هذه الفطرة تماماً كما تقول ولكنَّ الناس إذا لم يتركوا أديانهم ويدخلوا في الإسلام فإنهم تلقائياً يفقدون فطرتهم بمجرد البلوغ، ولا يمكنك أن تصف أمة بأنها لها فطرة سليمة إذا لم تترك أديانها وتدخل في الإسلام.

ولكن هذه الفكرة العابثة تعرض لسؤال دقيق: إنَّ ثبوت الفطرة قد تمَّ جزماً بالعقل والنقل، ويجب استصحاب الحكم حتى يثبت خلافه، فبأيِّ وجه تمَّ شطب ما ثبت عقلاً ونقلًا، فنصير إلى تصورنا هذا بأن الإنسان عند بلوغه سن الرشد سقطت فطرته وتحول إلى فطرة سوء بسبب أنه لم يوفق للهدى إلى الإسلام؟

فما هذه الفطرة التي لا تصمد لشيء؟ وما هذه الروح الإلهية التي بعثها الله في عباده ثم ينفخ فيها الشيطان نفخة فيحيلها قاعاً صافصفاً؟

والمسلم الذي يكفّر العالم كلّه مدعو أن يساءل وفق قاعدة الاستصحاب ومنع زوال اليقين بالشك، لقد أخبرنا القرآن بيقين أنَّ روح الله وفطرته نفخت في خمسة مليارات إنسان من غير المسلمين، فهل تملك الأدلة التفصيلية أنَّ هؤلاء الأشخاص قد سلبوا الفطرة التي فطروا عليها وأنَّ الشيطان قد سلخ عليها وأبدلهم منها عاراً وشناراً؟

يتعين السؤال هنا: كيف تمَّ إلغاء مكان الفطرة وأثرها وقد ثبتت بصريح العقل والنقل؟ وما مصدر الافتراض القائل بأنَّ الفطرة تبددت أو زالت ببلوغ الناس الحلم؟ ولماذا نسيء الظن بالله تعالى ونجزم بأنَّ الفطرة التي فطر الناس عليها هي محض

قشرة وهم رقيقة سرعان ما تندثر لدى أوّل مواجهة وأنّه ليس لها في عمق الإنسان رسوخ ولا أثر؟

قناعتي أنّ كلّ من يزعم ذلك فهو مطالب بخمسة مليارات دليل حتى يصبح موقفنا من تكفير العالم مبرراً وفق شروط التوحيد التي ندرّسها وندرّسها كلّ يوم.

الأصل واليقين هو إيمان النَّاس وفق شرط الخلق والفطرة، وهذا اليقين لا يزول بالشك وإنما يزول بالدليل والبرهان ولا شك عندي أن الدليل والبرهان لا يزال ينقل عن الناس إيمانهم بخالق، وأنا لا نملك أدلة حقيقية إلا عن عدد محدود من أشخاص صرّحوا بكفرهم بالخالق وتكبرهم للفطرة وتثبت الدراسات الإحصائية أنهم لا يتجاوزون 9.2 بالمئة في العالم، وإذا ضممنّا إليهم المؤمنين بالله غير المنتمين لدين فلن يزيد عددهم في العالم عن 17%.

قد لا أخالفك لو كان القصد أولئك الذين قرروا حرب الإسلام والمسلمين واختاروا أن يكونوا أعداء للحرية الدينية فهؤلاء بالفعل تشوهت فطرتهم، ولكن كم نسبة هؤلاء من أمم الأرض اليوم، بخاصّة أن ثمانين بالمئة من سكان العالم غير المسلمين لم يسمعوا بشيء من حقائق الدين، ولا تزيد معرفتهم بالإسلام عن ذلك الذي يشاهدونه في وسائل الإعلام من فشل المسلمين وشقاقهم وخلافهم.

قناعتي أنّ الفطرة التي فطر الله النَّاس عليها هي قدر مشترك من الفضائل والخير أودعه الله في قلوب الخلائق وعلينا البحث عن مكامن الفطرة الغائرة في نفوس النَّاس، والبناء عليها لإنشاء عالم فاضل يتعاون أبناؤه على فعل الخير الذي زرعه الله في قلوب الناس ليعمروا هذا الكوكب بخطاب المحبة والنور والسلام.

قد تتعرض الفطرة للتشويه والخلل ولكن ذلك يكون في إطار ضيق من السلوك الطائش وبعض الأطماع الفاجرة، وفي الدول المتحضرة يذهب هؤلاء إلى السجون ليتم تأهيلهم وإعادةهم إلى الفطرة السليمة، ولا يجوز أن يكون هذا الانحراف أصلاً تبنى عليه قراءة الإنسان، وإلا كنا إذن في أزمة فشل المشروع الإلهي في استخلاف الإنسان والعهد له فطرياً ببناء الإخاء والمحبة والحضارة.

إنَّ إيماني بأنَّ الله هو وحده الخالق وأنَّ الخلق جميعاً عياله وأنهم يتصرفون بالفطرة التي فطرهم عليها يحتم البحث عن المشترك الإنساني والثقة بالإنسان والإيمان بقدرته على بناء أسرة إنسانية واحدة.

لأجل هذا أثق بالديمقراطيات ولا أثق بالاستبداد؛ لأنَّ الديمقراطيات آلية تنتج ما أودع الله في نفوس عباده من الفطرة، وتجعلني دوماً أطمئن إلى اختيارات المجالس الديمقراطية الحقيقية في العالم، عربية أو أوروبية أو أمريكية؛ لأنَّها ستتجاوز بكل تأكيد الفطرة المشوَّهة التي قد يكون بعض الناس انحرفوا إليها بأطماع طارئة ولأنني أعتقد بأنَّ من المستحيل أن يفشل المشروع الإلهي في بناء الفطرة السليمة في هذا العالم.

قد يبدو غريباً هذا الربط بين الاعتقادي والسياسي، ولعلَّ كثيراً لا يوافقون على هذا الترابط، ولكنني أعتقد بيقين أنَّ الإيمان بالفطرة الإنسانية التي فطر الله النَّاس عليها ستكون محض ثقافة بلهاء إذا لم تثمر في الأرض الثقة والتعاون والخير والمحبة، وإخاء الأديان وكرامة الإنسان.

ويؤكد القرآن الكريم مراراً أنّها فطرة النَّاس وليست فطرة المسلمين وحدهم، وأنا على يقين أنّ ما سنجده في مستودع الفطرة الإنسانية هو عينه ما كان يأتي به الوحي الطاهر يوم لم يكن هناك آليات تبلغ مكامن الفطرة الأولى.

أليس هذا هو قوله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠]

إنّ العقل الإنساني والفطرة الإنسانية لها اليوم تجلياتها وآفاقها التي تظهرها الإحصائيات العالمية التي صارت تعتمد قواعد رياضية محكمة لا مجال فيها للشك، أو لنقل إنّ الشك نفسه أصبحت تنظمه قواعد احتمالية صارمة اتفق عليها العقلاء، وأصبح صدور الحقيقة الرقمية العلمية يترافق دوماً ببيان احتمالات الشكّ أو الخطأ وفق أرقام محددة لا تتجاوز في كثير من الإحصائيات عتبة الواحد أو الاثنين في المئة وأصبح يمكن القول على الأقل في المجتمعات الديمقراطية التي تشكل اليوم (باستثناء الصين) أكثر من سبعين بالمئة من سكان هذا الكوكب، وأصبح يمكننا الاطمئنان لهذه الأرقام التي تقدمها الأمم المتحدة بمعاييرها الدقيقة عن رأي الإنسان في كثير من القضايا الملحة على ظهر هذا الكوكب.

متى نجد الخطيب على منبر الجمعة يتغنى بهذا الوفاق الإنساني المعزز بالأرقام والأدلة من الواقع، ويرى في الوفاق الإنساني الديمقراطي المتحضر مظهراً من مظاهر فطرة الله التي فطر النَّاس عليها بدل التغني بحروب صارخة ظهرت في سياق مظالم اجتماعية شاملة ذاق فيها الإنسان الولايات والشور.

إنّها آمال عبّر عنها إقبال بقوله: عطرك اللهم في الإنسان ما زال ولونك...

متى يتغنى الخطباء على المنابر بفطرة الله التي فطر الناس عليها وأثمرت في العالم المتحضر التضامن الإنساني النبيل الذي عرفه السوريون جيداً في جحيم المحنة وجعل وجهة أتقيائهم إلى السويد أكثر واقعية وعدالة من وجهتهم إلى مكة؟



## الفصل الثالث: رواد المذهب الإنساني في الإسلام

هذي الكماة عبادك الأخيار  
البحر حبة خردل في كفهم  
حملوا عناء العالمين وساروا  
والعشق في أرواحهم إعصار  
محمد إقبال

### في السيرة النبوية

يمكن اعتبار السيرة النبوية مصدراً ملهماً للمذهب الإنساني في الإسلام، ويمكننا من خلال أحداث السيرة استبصار هذا المعنى الإنساني بدقة ووضوح، وسنختار محددات عدّة نطلق منها للحديث عن التوجه الإنساني في سيرة الرسول:

- وثيقة المدينة
- المساواة والمواطنة
- إعتاق العبيد
- تحرير السبايا

### وثيقة المدينة

وإلى جانب ذلك فقد كان برنامج التأسيس في المدينة المنورة إقامة مجتمع عدالة ومساواة، يحترم فيه الإنسان وتكرم الأديان، وقد كان ذلك واضحاً في صحيفة المدينة التي أكدت على احترام الاختلاف الديني مع اليهود وتقدير ما بيدهم من الوحي والكتاب وهي المعاني التي أكدها القرآن الكريم مراراً.

وقد قامت دراسات كثيرة عن وثيقة المدينة والنزعة الإنسانية الواضحة فيها، ونصت بوضوح على حرية الاختيار الديني ووجوب تضامن المواطنين بغض النظر عن أديانهم، ووجوب النصرة لكل مظلوم، وعدّ حاجات الإنسان غاية للنسبة والرسالة والكتاب.

لقد كان تطبيق الرسول لمبدأ العقد الاجتماعي مدهشاً في تلك المرحلة من التاريخ، فقد كانت الدول تقوم على رغبة المتغلب، وكان الناس على دين ملوكهم، ولكن دولة الرسول قدمت نموذجاً آخر مختلفاً يقوم على العقد الاجتماعي.

ولا نحتاج لفهم حقيقة العقد الاجتماعي في دولة الرسول أكثر من دراسة متأنية لوثيقة المدينة التي تعدُّ بحق أول وثيقة دستورية في الإسلام، وملاحظة توافق أطراف العقد الاجتماعي فيها من مسلمين ويهود ومهاجرين وأنصار.

في دستور المدينة الذي كتبه النبي الكريم نصّت العبارات الأولى على تحقيق شرط المواطنة الموضوعي الذي يحول كلَّ من يحمل الوفاء للأرض أن يعيش فيها بغض النظر عن موقفه الديني، ومع أن اليهود كانوا أشدَّ النَّاسِ عداوة للذين آمنوا، فإنَّ النبي الكريم لم يرَ أن خلافهم معه في الدين يفسد حقهم وواجبهم في المواطنة في البلد التي يعيشون فيها، بل إنَّ هذا المعنى نصَّ عليه بوضوح دستور المدينة المنورة الذي كتبه النبي للتأكيد على حقِّ اليهود في العيش في الوطن الإسلامي طالما كانوا أوفياء لحقوق المواطنة المشروعة، وهذا الدستور يعدُّ أول دستور مكتوب عرفه العرب، وهو يضمن الحقوق المشروعة للمواطنين بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية، ومما ورد فيه:

"هَذَا مَا عَاهَدَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ يَثْرِبَ وَأَهْلَهَا وَمَنْ أَقَامَ بِهَا مِنَ النَّاسِ:

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ؛ وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنَ الْيَهُودِ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسُوءَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا ظَالِمِينَ، وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَهَمَّ"

إنَّ قراءة هذا النَّصِّ الدُّستوري يكشف لك إلى أي مدى قدمت هذه الوثيقة للمواطنين الحقوق المتساوية بغض النظر عن الانتماء الديني وذلك في عصر كان لا يعرف شيئاً من هذا التسامح.

ويجب التنويه إلى أنَّ اليهود في الواقع لم يكونوا في حالة تقارب ديني مع المسلمين كما هو شأن المسيحيين، بل إنَّ القرآن الكريم نص بوضوح: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ قَوْمًا لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ﴾ [المائدة: ٨٢]

ووفق هذه الاتفاقية وعلى الرغم من نكوث ثلاث قبائل: النضير، وقينقاع، وقريظة فإنَّ عدداً من اليهود ظلوا في المدينة المنورة إلى وفاة النبي الكريم وعاشوا في وضع اقتصادي مريح، ومن أشهر الأحاديث في هذا السبيل أنَّ النبي الكريم مات ودرعه مرهونة عند يهودي بدين كان قد اقترضه منه.

لقد قامت دولة الإسلام في الأصل على مركزية الكعبة: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَةَ﴾ [المائدة: ٩٧] وهو أوَّل بيت وضع للناس، وهي القبلة التي نزل فيها قول الله تعالى: ﴿فَلْيُؤَيِّدَكَ قِبَلَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]

وهي رؤيا الرِّسول وحلمه وأمله لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، وقد اعتبر الوفود عليها واجباً على النَّاسِ من كلِّ فجٍّ عميقٍ، وهذه كلُّها حقائق لا يَنزاع فيها أحد.

ومع ذلك فحين أراد الرسول بناء دولته، وبدا أن مكة حين رفض زعمائها الإسلام لم تعد تصلح موضوعياً لإقامة الدولة المأمولة، وأنه لا تتوفر فيها أغلبية كافية لإعلان مجتمع ودولة بقيم الإسلام، فإنه لم يلتفت إلى هذه الحقائق الغيبية بل بحث عن عقد اجتماعي صحيح تتأسس فيه الدولة بعد أن رفض مجتمع مكة التعاون معه في ذلك، وبحث في الحبشة والطائف والحيرة قبل أن يستقر به الأمر في يثرب، وهي قرية صغيرة ليس لها أي تاريخ مقدس، ولكنها كانت جاهزة لإقامة هذا العقد الاجتماعي، وقد استمر الإعداد لذلك نحو عامين بإشراف مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة، ولكنه لم يشأ أن يدخل ويعلن قيام الدولة إلا بعد أن حظي بأغلبية معقولة، وبعد أن صار العقد الاجتماعي واقعياً وممكناً.

ويجب القول هنا إن وثيقة المدينة هي صيغة متقدمة بمعايير ذلك الزمن، وفيها إقرار بالمواطنة مع اختلاف الدين، ولكن لا يجب أن يأخذنا الزهو للقول بأنها وثيقة مستوفية لمطالب المواطنة والدولة الحديثة، بل يجب الاعتراف بأن الإنسانية حققت تطورات كبيرة في إطار الحقوق السياسية والاجتماعية تجاوزت ذلك إلى حد بعيد، ولكن تبقى وثيقة المدينة صورة متقدمة للمواطنة والحقوق المدنية في القرن السابع الميلادي.

## المساواة والمواطنة

تعدُّ مسألة المواطنة على رأس اهتمامات الباحثين في الشأن الإسلامي والسياسي في العالم، وذلك لأنها تعدُّ شأنًا محورياً في البناء الاجتماعي، وترسم المعايير التي يطبق بها مبدأ العدل والمساواة بين الناس، وهي تقدم نفسها حلاً جذرياً

للمشاكل الناشئة من منطق الاستعلاء الديني أو القومي أو العرقي، وهو الاستعلاء الذي يأتي عادة على رأس أسباب الحروب الأهلية الضارية.

ومع تطور المجتمع الإنساني فقد أصبحت الأفكار التي تطالب بنقاء العرق أو الإيديولوجيا مطالب غير واقعية في أيّ مكان من العالم، فقد تجاوز العالم عصر الكانتونات ودخل بقوة إلى عصر المصالح المشتركة والخيرات المتبادلة، وأصبحت قيم المواطنة على أساس المساواة في الحقوق والواجبات تحظى بإجماع المجتمع البشري، وترسم ملامح العلاقات المتوازنة في القرية الكونية.

ولكن ما هو رصيد منطق المواطنة في التراث الإسلامي؟ وهل ندعو لقيم المواطنة والمساواة تنفيذاً لرغبات أميركا أم تنفيذاً لقيم الحق واقتداءً بهدي رسول الله؟

بدأ النبي كفاحه في بناء الحياة في قراءة مختلفة للمشهد السياسي في الأرض فقد تطلع إلى العالم من حوله وكانت التجارب السابقة قد رسخت مبدأ النَّاس على دين ملوكها، وكان وصول ملك وثني إلى السلطة في أي مكان في الأرض إيذاناً بتحول المجتمع برمته إلى الوثنية وفق دين الملك، وكانت أيُّ مخالفة لذلك تعني الحرب الأهلية والخوض في الدماء وعادة ما كان ذلك البطش ينتهي بانتصار الملك وسحق المخالف.

ولكن الرسول الكريم بدأ كفاحه من أفق آخر، فقد جاء بشريعة واضحة يؤكد كلُّ سطر من سطورها مبدأ الحرية الدينية، وحقَّ الإنسان في التفكير والتأمل إلى الغاية:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

ويمكن أن نقرأ أيضاً في حياة النبي الكريم موقفاً واضحاً في منح حقوق المواطنة التامة للناس من الآية الكريمة: ﴿لَا يَهْدِيكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [إِنَّمَا يَهْدِيكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] [الممتحنة: ٨ - ٩]

ووفق هذه الآية فإن المواطنة والنصرة والتعاون مع غير المسلم ممكنة إذا هو كان من الذين لم يقاتلونا في الدين ولم يخرجونا من ديارنا، وبمعنى آخر إذا لم يكن ذلك من أولئك الذين لا يحترمون المواطنة والمساواة.

ويجب البيان هنا أن هؤلاء الذين نزلت الآية الكريمة بالعدل والإحسان معهم ليسوا أهل الكتاب الذين جاء ديننا مصدقاً لما معهم، بل هم الوثنيون المشركون من قريش، الذين لا شك أبداً في كفرهم وفساد عقيدتهم، والآية نصٌ في وجوب معاملتهم بالعدل والإحسان على الرغم من الاختلاف الواضح في الدين بين الفريقين.

وفي موقف آخر يمكن أن نقرأ موقف النبي الكريم في الوعي بمبدأ المواطنة في صلح الحديبية، فقد عقد النبي عهده مع قريش على أساس سياسي لا على أساس ديني، وأقر بالموافقة على إيقاف التبشير بالإسلام في أرض مكة، بل وافق على رد من جاءه مسلماً من قريش إذا لم يكن قد حصل على موافقة عشيرته (من المشركين بالطبع)، ولكنَّ أهم ما في العهد كان نصُّه على أن من شاء أن يدخل في حلف محمد وعهده دخل فيه ومن شاء أن يدخل في حلف قريش وعهدها دخل فيه، ودخلت خزاعة في عهد النبي الكريم، ودخلت بنو بكر في حلف قريش، وهكذا فقد أصبح لخزاعة وهم وثنيون مشركون الحقوق السياسية كلها التي كان يتمتع بها أهل المدينة من المواطنة.

بل إن فتح مكة وهو أعظم فتح في تاريخ الإسلام إنما كان في الحقيقة انتصاراً لقبيلة خزاعة الذين كانوا مواطنين غير مسلمين في الدولة، ولكن حقوقهم كانت كاملة غير منقوضة.

وكما هو معلوم في كتب السيرة فإن النبي الكريم سيّر جيشاً من عشرة آلاف مقاتل من أجل نصره هؤلاء المواطنين مع الاتفاق أن معظمهم كانوا لا يزالون على دين قريش.

ويصح القول إن هذه المواقف المتقدمة للرسول الكريم قبل أربعة عشر قرناً تثبت أن الدولة الناجحة هي تلك التي تتسامى على الانتماء الديني وتلتزم معايير المواطنة والمساواة والحقوق؟

وقد سجل القرآن الكريم مثلاً بالغ الوضوح لحقوق المواطنة في الدولة النبوية وذلك في قصة شهيرة وقعت في المدينة وكانت اختباراً للعدالة فيها، حين أقدم رجل من المسلمين اسمه (طعمة بن أبيرق) على سرقة درع نفيسة من بيت (قتادة بن النعمان)، ولما خشي افتضاح أمره ألقى المسروقات في بيت رجل يهودي اسمه (زيد بن السمين)، وحين رفعت القضية إلى النبي أوشك على عقاب زيد بن السمين، بقرينة وجود المسروق في بيته، وكان في الحكم مظنة تبرئة المسلم وتحويل اليهودي، فنزل القرآن بصيغة بالغة الوضوح والشدة، تكرر قيم العدالة على وجه لا يحتمل أي تهاون:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلخَائِبِينَ خَصِيمًا ١٣٥  
وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٣٦ وَلَا تُجِدِ الْعَدْلَ عَنِ الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ  
مَنْ كَانَ حَوَانًا أَثِيمًا ١٣٧ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا

يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٩﴾ هَذَا نَسْرُهُ هُوَ لِأَجْلِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿١١٠﴾ [النساء: ١٠٥ - ١٠٩]

وقد اشتملت الآيات على توجيه صارم وحاد بوجوب اتباع أصول العدالة في  
التقاضي، واتباع القرائن والأدلة والبيّنات الواضحة «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ  
اللَّهُ» وتنهى بشدّة عن الميل إلى طرف دون طرف بسبب دينه أو جنسه أو لونه،  
كما اشتملت على عتاب شديد للنبي صلّى الله عليه وسلّم الذي أوشك أن يكون  
خصيماً للخائنين، ثم اشتملت على عتاب أشدّ وهو أن الدفاع عن الخائن في الدنيا  
ممكن ولكنه في الآخرة مكشوف، «فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» كما اشتملت  
على عتاب ثالث قاسٍ، وهو أن عناية الله تدخلت لتصحيح الحكم القضائي، ولولا  
هذه العناية لتمكّن هؤلاء من تضليل النبي نفسه! ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ  
لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣]

ولعلّ من أوضح صور الاحترام للمختلف دينياً أنّ النبي الكريم خاض حرب فتح  
مكة ومعه عشرة آلاف مقاتل بهدف الانتصار لخزاعة لما تعرضت لاعتداء قريش  
مع أنه خزاعة لم تكن على الإسلام ولكنها دخلت في حلف النبي الكريم، وحين  
تعرضت لاعتداء قريش نهض الرسول بجيش عظيم ليدافع عن هذه الفئة من المواطنين  
على الرّغم من الموقف القرآني الحاد ضدّ أشكال الوثنية كلها.

### إعتاق العبيد:

فقد أطلق النبي الكريم دعوته في مكة المكرمة، وكان على رأس أولوياته إعتاق العبيد  
وتحريرهم وقد تمّ ذلك بالفعل، على نطاق واسع، وقد أدى هذا الأمر إلى غضب  
شديد لدى صناديد قريش، وعدّ ذلك تهشيماً للمفاهيم الاستعلائية التي قامت  
عليها حياة العرب، وكان أكثر اعتراض قريش على النبي الكريم أنه يريد أن يسوي

بين الحرِّ والعبد وأنه يفسد علينا غلماننا وسفهاءنا وينكر امتيازات قريش التاريخية بالتفوق العصبي على الناس.

قد بدأت جهود النبي الإنسانية في مواجهة العبودية في سياقين اثنين: الأول: إعتاق العبيد وتحريرهم وذلك بوساطة سلسلة أنظمة دقيقة تبدأ بالإعتاق الطوعي، ثم الإعتاق الجبري في الكفارات والندور، ثم في نظم التحرير التفاعلية كنظام المكاتبه ونظام التدبير ونظام أم الولد وكلها أنظمة كانت تنتهي بتحرير العبد والأمة ومنحها الحياة من جديد.

وبموازاة ذلك فقد أطلق جهوداً مباشرة ووصايا ملزمة في وجوب الإحسان إلى العبيد، ومنع ارتكاب المظالم بحقهم وذلك لحمايتهم من العسف والظلم إذا تأخر إعتاقهم، فكان يقول: "إِنَّ إِخْوَانَكُمْ حَوْلَكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ" <sup>18</sup> ، وكان يقول: "مَنْ ضَرَبَ عَبْدَهُ ظَالِمًا لَمْ يَكُنْ لَهُ كَفَّارَةٌ دُونَ عِتْقِهِ" <sup>19</sup>.

وقد مارس النبي نفسه الإعتاق وأعتق (زيد بن حارثة) و(ريحانة) و(مارية القبطية) و(صفية بنت حيي) و(جويرية بنت الحارث)، وسنجد أسماء كثيرة في ثنايا الروايات من اللاتي أطلقهن رسول الله.

وكان العبيد أهلاً له وشركاء في دولته، واختار (بلال بن رباح) مؤذناً يرفع صوت الإسلام على ظهر الكعبة، وأعتق بنفسه (زيد بن حارثة) وجعله أقرب المقربين إليه،

<sup>18</sup> رواه أبو يعلى في مسنده جزء 10 ص158.

<sup>19</sup> رواه البخاري في الصحيح ج1 ص15.

وعقد له رايات كثيرة قائداً تحريراً، وأرسله قائداً عسكرياً على رأس جيش مؤتة، كما اختار ابنه (أسامة بن زيد) زعيماً عسكرياً في أول مواجهة مع الروم.

كما أنه اختار أم أيمن الجارية أمّاً له وكان يقول: أم أيمن أمي بعد أمي، تكريماً للنساء الجوارى.

واشتهر تكريمه البالغ للعتقاء الأربعة الذين وجدوا الحرية في ظلال الإسلام وقاموا بدور رئيس في نشر الإسلام، وهم (بلال الحبشي) و(سلمان الفارسي) و(صهيب الرومي)، و(عمار بن ياسر المخزومي).

ولكن أبرز من أعتقهن الرسول الكريم هن (جويرية بنت الحارث) التي ارتبط إعتاقها بإعتاق بني المصطلق كلهم من الذين وقعوا في الأسر بعد غزوة المصطلق، وكذلك (صفية بنت حيي) وكان هذا الإعتاق حافزاً لباقي الصحابة ليعتقوا ما بأيديهم، ولا نعرف اليوم في السيرة النبوية ذكراً لأمة مصطلقية أو أمة خيبرية، بعد أن نجح رسول الله في توفير الحرية لهن جميعاً بوساطة إعتاق السيدتين والزواج بهما قبل العودة إلى المدينة.

ومن المؤكد أننا لا نستطيع اليوم الدفاع عن نظام السبي الذي يخول الغالب المنتصر أن يختار من يشاء من النساء كسبية مقهورة، ويجب القول إن هذه الدراسة تعتبر السبي كله عملاً عنيفاً وغير أخلاقي، ولكن علينا أن نعيش القصة في ظروفها التاريخية فقد كانت هذه الممارسات أمراً شائعاً في الحرب، ولكن الرسول الكريم قدّم إصلاحاً مهماً لهذه الممارسات ووفر ظرف الاختيار للمرأة، ففي يوم المصطلق اختار جويرية بنت الحارث من السبي وضمّها إليه، ولكنه أصرّ على إعتاق جويرية قبل الزواج منها ودعوة أبيها ضرار بن أبي الحارث للمشاركة في عقد الزواج، وفق الشرط

الشَّرْعِيَّ من الرضا والإيجاب والقبول، وبذلك زفت إلى بيت النَّبِيِّ الكَرِيمِ زوجة حَرَّةَ بحضور أبيها وشهوده.

وفي يوم خيبر فإنَّ الروايات جميعها سجلت موافقة صفيّة على هذا الاقتران، ولا يمكنني بالطبع أن أقول إنَّه رضا وبهجة فلا يمكن تصور ذلك فالمرأة مفعولة بأبيها قبل سنة وبزوجها قبل أيام، ولكنَّها على كل حال أظهرت فهماً واعياً للتحويلات العميقة واختارت أن تكون في بيت النَّبِيِّ حين طلبها إليه، ومن ثمَّ نالت حريتها من اليوم الأوَّل، بل كانت سبباً في قيام المحاربين جميعهم بإعتاق ما بأيديهم من السبي، وكانت عائشة تقول -وهي ضرة صفيّة ومنافستها-: ما كانت امرأة أبرك على قومها من صفيّة، لقد أعتقها رسول الله وإن قومها سبايا في يد الصَّحابة فجعل النَّاس يقولون أحسنوا في أظآر رسول الله؛ أي: أنسبائه، حتَّى أعنق الأسارى والسبي كلُّهم.

بالطبع لن أزعّم أنَّ هذه الممارسات تحقق شرط الحماية والكرامة الإنسانيَّة الذي ناله الإنسان في الإعلان العالميِّ لحقوق الإنسان في القرن العشرين، ولكنني أستطيع القول إنَّه متقدم على ممارسات ذلك العصر وتقاليده.

كما اشتهر إعتاقه للسيدة الفاضلة (مارية القبطية) التي أهداها له المقوقس، ولكن الرسول الكَرِيم لم يعاملها كجارية عبدة بل منحها الحرية وتزوجها وصارت أمّاً للمؤمنين.

وذكر (ابن القيم) أنَّ النبي الكَرِيم أعتق بنفسه: أبا رافع، وأسلم، وثوبان، وأبا كبشة، وشقران واسمه صالح، ورباح، ويسار، ومدعم، وكركرة وهم من النوبيين. كما أعتق سفينة بن فروخ واسمه مهران، وأنجشة الحادي، وأعتق أنيسة وكنيته أبو مشروح، وأفلح، وعبيدة، وطهمان قيل إن اسمه كيسان، وذكوان، ومهران، ومروان، وكذلك

حنين، وسندر، وفضالة، ومأبور، وأبو واقد، وواقد، وقسام، وأبو عسيب، وأبو مويهبة رضي الله عن الجميع. وكذلك أعتق النبي سلمى أم رافع، وميمونة بنت سعد، وخضيرة، ورضوى، وريشة، وأم ضمير، وميمونة بنت عسيب رضي الله عنهن.<sup>20</sup>

وذكر (الصنعاني) في كتابه سبل السلام أنَّ الرسول الكريم أعتق ثلاثة وستين نفساً بعدد سنوات عمره الشريف، وأعتقت زوجته السيدة عائشة وحدها سبعة وستين عبداً وجاريةً بعدد سنوات عمرها أيضاً.<sup>21</sup>

ونقل (ابن شيبه) في تاريخ المدينة أنَّ رسول الله لم يترك عند وفاته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا جارية.<sup>22</sup>

وكان يقول: "إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكَلٌ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ وَأَنَا مِمَّا كَمَا يَنَامُ الْعَبْدُ".<sup>23</sup>

ويمكن القول: إنَّ روح الشريعة كانت تائقة للحرية لا للعبودية، وللإعتاق لا للاسترقاق، ومن أجل ذلك فقد وضعت سبلاً للخلاص من الرِّقِّ والعبودية وتحقيق حرية الإنسان وكرامته، وذلك بوساطة الدَّعوة إلى الإعتاق وبيان أجر المعتقين، ثم فرض نظاماً متعددة للخلاص التدريجي من الرِّقِّ كنظام المكاتبه والتدبير وأم الولد وهي نظم معروفة في كتب الفقه تهدف إلى شيء واحد وهو منح الإنسان حريته، وبخاصة في المكاتبه؛ وهي العبد الذي يملك حرفة ويستطيع العيش مستقلاً، فقد أوجب القرآن على وليه أن يمنحه حقَّ تحرير نفسه مقابل مبلغ يؤديه على فترة محددة

<sup>20</sup> ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج 1 ص 113.

<sup>21</sup> الصنعاني، محمد بن إسماعيل، سبل السلام، ج 2 ص 597.

<sup>22</sup> ابن شيبه، عمر بن عبيدة، تاريخ المدينة ج 1 ص 211.

<sup>23</sup> ابن سيد الناس، محمد بن محمد، عيون الأثر ج 2 ص 402.

من خلال عمله، وهو نص القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآءُتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]

وحسبك إشارة إلى ذلك أنك لا تجد في كتب الفقه كلها باباً واحداً للرق، بل إن كتب الفقه جميعها تختار عنوان: **كتاب العتق**، في إشارة واضحة إلى تشوف الإسلام للإعتاق، واشتهرت في التراث الإسلامي كلمة الخليفة الراشدي (عمر بن الخطاب): "مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتُمُ أُمَّهَاتِهِمْ أَحْرَارًا."

ويذهب صاحب هذه الدراسة إلى التأكيد بأنَّ العبودية برمتها انتهت في عصر النبي نفسه، وحين غادر الدنيا لم يكن في الحجاز عبد ولا أمة، فقد تحول العبيد إلى موالي والنساء إلى حرائر في سياق ما كانت تعرفه الأمة العربية آنذاك من المحبة والسلام.

ويمكنني الجزم بأنَّ مشروع النبي الكريم في تحرير العبيد قد نجح نجاحاً كاملاً وأنَّ الرقَّ قد تمَّ تحريره بأشكاله كلها في آخر أيام الرسول وذلك بنصِّ الآية الكريمة في معاملة الأسرى، ﴿فِيمَا مَنَابَعُهُ وَإِمَائِدَاءَهُ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]

فقد حصرت الآية الكريمة خيار الحاكم بين أمرين لا ثالث لهما وهما الفداء أو الإطلاق، ومن ثم منعت أي تصرف بالأسرى بالقتل أو الاسترقاق، وهو المنطق الذي تقره الأمم المتحدة في الشريعة الدولية بشأن التعامل مع الأسرى.

ومع ذلك كله فمن المؤلم أن نعترف أنَّ الاسترقاق والسبي استمر قروناً طويلة بعد الإسلام، وأن حركة التوق إلى الحرية توقفت بموت الرسول وتباطأت في عهد الراشدين، وأنَّ الاسترقاق عاد بقوة في العصر الأموي والعباسي، وازدحمت قصور

الخلفاء خصوصاً بالعبيد والغلمان والجواري والخصيان، وهو أمر مؤسف لا يمكن تبريره ولا الدفاع عنه.

ويزداد حرجي وأسفي أن الفقه الإسلامي لم يقف موقفاً حاسماً في مواجهة ظاهرة ازدحام الجواري والغلمان في قصور الملوك، بل راح في الغالب يبرر ذلك، للملوك وللفقهاء ولعامة الناس، ولم يقم الفقهاء بتأصيل موقف الرسول في تحرير العبيد بمنزلة نصّ تشريعي ملزم، وهذا ما أدى إلى توقف ظاهرة تحرير العبيد التي بداها الرسول الكريم هدفاً رئيساً لدعوته ورسالته.

وغاية ما نقول إنَّ عدداً من الخلفاء والمصلحين وعلى رأسهم عمر بن عبد العزيز خاضوا حرباً ضارية لإنهاء الرق، ونجحوا جزئياً في تحقيق ذلك.

### منع السبي

مع أن السبي نوع من الاسترقاق وقد أشرنا إلى ذلك قبل قليل، ولكنني رأيت أن أفرد السبي بمطلب خاص لما يشتمل عليه من جنابة دينية إضافة إلى سلب الحرية وهي إرغام الأنثى على جسدها رغماً عنها، وهو موقف غير أخلاقي ويستوجب الإدانة دون تحفظ.

وتعدُّ مسألة السبي من أكثر الموارد التي يتمُّ فيها اتهام الإسلام بالطابع اللاإنساني؛ إذ يبيح للمحاربين بعد أسرهم استرقاق النساء سبايا يتم استعبادهن وإذلالهن، ويباح لمالك السبية أن يمارس ما شاءه من الجنس فيها راغبة أو راغمة، وقد بات هذا السلوك اليوم أشهر أشكال التوحش والظلم التي عانتها النساء خصوصاً بعد أن شاهد الناس تطبيقاً حرفياً لظاهرة السباء عبر السلوك الإجرامي الذي مارسه تنظيم داعش في مناطق البيزيدية؛ إذ تم الحكم بكفر أبناء هذه الطائفة وبذلك فقد رأى

الدواعش استحلال نسائهم وقتل رجالهم واسترقاق أطفالهم في مشهد من التوحش يعدُّ أشدَّ ما روي في العصور الحديثة من ظلم وقهر.

وفي الواقع يعسر على المحقق إنكار وقوع ذلك في عهد النبوة، فقد كان الأمر فاشياً منتشرًا، وكان يبرر أخلاقياً بأنه سبيل كريمة لتأمين حياة وغريزة للمرأة المنكوبة، بحيث يعيلها من تقع في يده ويشاركها الحب والمتعة، ومن المدهش أنه قلَّما رويت مواقف حادة للنساء في الامتناع من قدر مرير كهذا، وهذا من أوضح الدلائل على بؤس واقع المرأة في ظروف الجاهلية العربية، وهو أمر لا يقل توحشاً عن الوأد المذكور في القرآن الكريم ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾ [التكوير: ٨ - ٩]

وظهرت هذه الممارسات في نصوص القرآن الكريم؛ إذ أشارت الآيات في اثنين وعشرين موضعاً إلى ملك اليمين بوصفه ملكاً حراً مشروعاً للرجل يبلغ فيه نهمته على الوجه الذي يجب، ولا يراجع في ذلك أحد، وتوقفت الوصايا النبوية الكريمة عند حدود الوصية بالإحسان والمعروف، والتأكيد على تحريم الظلم والقهر، ومن المؤسف أنها لم تبلغ حداً تحسم هذا الجدل بنص قاطع يحرم السبأ كله على اختلاف أنواعه.

ومع ذلك فلن أخوض في هذه الدراسة طويلاً في تاريخ الرق والسبي ولكنني مهتم أن أوضح رأيي في شخصي الرسول الكريم كبطل من أبطال الحرية ومناضل تاريخي في وجه الاستعباد والرق والسبي.

وقد درسنا قبل قليل حالات الإعتاق الكثيرة التي قام بها النبيُّ الكريم وزوجته خديجة وأبو بكر الصديق وعائشة وآخرون من الصحابة وهي مواقف الإعتاق

النبيلة التي أثنى عليها القرآن الكريم في موضع كثيرة من الآيات: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ

﴿فَكَرَّبَهُ رَبِّي﴾ [البلد: ١٢ - ١٣]

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى إِلَّا أَتْبَعَا وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٩ - ٢١]

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تثني على الإعتاق وتبشر المعتقين بمنازل الجنة ورضوان الله.

ولعل أدق تطبيق لهذا التطور الإيجابي نحو الحريات ومنع الاسترقاق والسبي بأشكاله كلها هو يوم حنين والطائف بوصفهما آخر غزوات الرسول الكريم التي التحم فيها بأعدائه.

ولا بأس أن نذكر الحادثة ببعض التفصيل، وكان ذلك بعد أن أنجز النبي الكريم في رمضان من السنة الثامنة فتح مكة المكرمة سلماً، وفور سقوط مكة تحركت الطائف التي كانت تنافس مكة تاريخياً في السيادة على الحرم، وبدا لأهل الطائف أنها فرصتهم لاحتلال مكة مستغلين الاضطراب الذي وقعت فيه مكة بسقوط حكمها الجاهلي، وقرروا النزول بقوتهم كلها وما يملكون إلى مكة.

وبلغ النبي الكريم أن حشوداً كبيرة من هوازن وثقيف برئاسة (مالك بن عوف) تحشد عند وادي حنين، وكان مالك فتى مغامراً وفارساً متهوراً، لا خبرة له بالقيادة، وقد أمرهم بإحضار النساء والأطفال والأموال معهم لتكون لهم إرادة أكبر على القتال.

وبعد كثرٍ وفرٍ في المعركة فرَّ مالك ومن معه من وادي حنين، وكان من الطبيعي أن يقع الأطفال والنساء والأموال في الأسر، وكان عدد النساء يومذاك نحو ستة آلاف سبية كما رواه الطبري وإن كنا نعتقد أن في الرقم بعض مبالغة.

وستة آلاف سبية هو رقم مذهل ويعد ثروة كبرى في سوق النخاسة، وهو ما أدى إلى استنفار الأعراب الذين كانوا في جيش النبي الكريم لحصاد هذا الصيد الوفير، وبدأت المطالبات من هنا وهناك بوجوب قسمة السبايا، وطالبوا النبي مباشرة بقسمة هذه الغنائم على المحاربين.

كان الرسول الكريم حريصاً ألا يكتب في تاريخه أنه ارتكب حملة كهذه من الاسترقاق والعدوان على الإنسانية، ولم يشأ قط أن يختم حياته الجهادية باسترقاق كهذا على الرغم من العائد المادي المذهل، وقد حزم أمره في منع أي استرقاق.

وتطور الأمر من مطالبات إلى غمز وهمز ولمز واتهامات، وكثر جدل الأعراب والطلاق في أمر السبايا، وبدؤوا يثيرون القلاقل في الجيش، وقد نزلت آيات كثيرة في مخازي الأعراب وبجثهم عن المغنم والسي في معركة حنين وقد جاء تفصيل ذلك في سور الأنفال والتوبة والفتح والأحزاب، ولكن الرسول الكريم أمر بصرامة وحزم أن تجبس الغنائم كلها في وادي الجعرانة وكلف عدداً من الصحابة بمنع أي إساءة للسبايا، فيما توجه بجيشه إلى الطائف وفي نفسه أن يفاوض ثقيف على السبايا جميعاً ويردهن إلى الحرية.

وانطلق النبي الكريم لحصار معاقل ثقيف في الطائف للوصول إلى حل بشأن السبايا، واستمر الحصار قريباً من شهرين، والنساء والأولاد أسرى ولم يأذن الرسول بقسمة أيٍّ منهم كغنائم حرب، على أن عدداً من القبائل التي شاركت معه في القتال كانت تصرُّ على هذه القسمة، وبدؤوا يتهمون الرسول نفسه بالمحاباة والمحسوبية في توزيع الغنائم، وقد نزل قرآن كثير في الحادثة يشرح سوء أدب الأعراب

مع الرسول في شأن الغنائم، ويوضحهم على تكالبتهم على الغنائم، ويمكن مطالعة ذلك بوضوح في سور الفتح والأحزاب.

وبعد شهرين من الحصار والمتابعة، كان رسول الله يبذل جهداً في المصالحة وأرسل إلى مالك بن عوف زعيم ثقيف: "قولوا لمالك بن عوف إن جاءني رددت عليه أهله وماله"، وبالفعل نجحت دبلوماسية النبي الكريم في إقناع وجهاء ثقيف بالسعي للمصالحة وإنهاء الحرب، وحين وصلوا إلى الرسول الكريم في الجعرانة وفيهم مالك بن عوف وكانوا قد أمكوا نتيجة مغامراته الطائشة، وكان النبي الكريم أيضاً قد أضناه مطلب الأعراب والمؤلفة قلوبهم في وجوب قسمة الغنائم، ونقل بعض تفاصيل الخبر من زاد المعاد لابن القيم:

قدم وفد هوازن على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أربعة عشر رجلاً، فلما صَلَّى رسول الله الغداة قال: "إن هؤلاء القوم قد جاؤوا مسلمين. وقد استأنيت بسبيهم، فمن كان عنده شيء فطابت نفسه بأن يرده، فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرده عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفى الله علينا"، فقال الناس: قد طبنا بذلك لرسول الله.

فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالت الأنصار مثل ذلك.

ولكن الأعراب من قبائل تميم وفزاره وسليم كان لهم رأي آخر مختلف تماماً، وقد صرحوا علناً برفضهم لمشروع الرسول الكريم في تحرير السبايا وعدوا ذلك تأمراً على حقوقهم الشرعية بعد القتال الذي خاضوه دفاعاً عن الرسول.

وقال الأفرع بن حابس زعيم تميم: أمّا أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن الفزاري: أمّا أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس السلمي: أمّا أنا وبنو سليم فلا.

ولم يزل رسول الله يحاورهم ويستأني بهم، ولجأ إلى إعطائهم المال، وقد اشتهر أنه أعطى كل واحد من زعمائهم مئة من الإبل حتى رضوا وكفوا عن السبايا، ونجح رسول الله في تحرير السبايا والأطفال كلهم دون استثناء.

وقد أدت سياسة النبي الكريم في دفع أموال طائلة للأعراب مقابل الإفراج عن السبايا إلى اعتراض شديد من الصحابة وبخاصة من الأنصار الذين رأوا أنّ هذا الموقف فيه محاباة غير مقبولة، وجاء وافدهم (سعد بن عباد) وقال: يا رسول الله، أبلغك ما قالت الأنصار؟

قال: وما تقول؟

قال: يقولون إنك دفعت المال كله للأعراب والطلقاء من قومك وتركت أهل المدينة وهم من جاهد معك ونصرك وصدقك!

قال له رسول الله: فما قولك أنت يا سعد؟

قال: والله لا أقول إلا كما قال قومي!

ودعا الرسول الأنصار وجعل يلاطفهم ويحدثهم ألم أجدكم ضلالاً فهذاكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فآلف الله بين قلوبكم بي؟

فجعل الأنصار يقولون: بل لله المنة والفضل.

فقال: ألا تجيئون يا معاشر الأنصار؟ ألا قلتم لقد جئتنا مكذباً فصدقناك وطريداً فأوبناك وفقيراً فأعطيناك؟

فبكى الأنصار حتى أخضلت لحاهم وقالوا: بل لله المنة والفضل!

فقال لهم: يا معاشر الأنصار، أوجدتم في أنفسكم أنني دفعت المال لقوم من الأعراب أتألفهم وأدفع شرهم، ووكلتهم إلى إيمانكم؟

لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.<sup>24</sup>

وتفاصيل القصة تعزز حقيقة واحدة، وهي أن الأولوية كانت عند رسول الله تحرير الأسرى بالفداء ومنع أشكال السبي والاسترقاق كليهما، وقد نجح في ذلك.

ومن المدهش أن آخر آية نزلت في شأن الأسرى تحصر خيار ولي الأمر بين أمرين اثنين: المَنّ (وهو الإطلاق دون عوض) أو الفداء (وهو الإطلاق بعوض). ونصّ الآية في سورة محمد: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِقْرَافَهُ﴾ [محمد: ٤]

وعلى الرغم من أن نصّ الآية واضح في تحريم قتل الأسرى أو استرقاقهم وحصص التعامل مع الأسرى بالمَنّ أو الفداء ولكن الفقهاء لم يأخذوا بهذا الدليل الواضح وظلوا يحسبون السبي من محاسن الإسلام وشعائره.

وأقول هنا إنه ليس لدي شك أبداً أن الإسلام حرّم السبي كله، وأنه عدّه من أشنع شرائع الجاهلية، وأنّ السبي وقع في أيام ثلاثة في الإسلام هي قريظة والمصطلق وخيبر على قواعد الحرب الأولى، وقد نجح الرسول الكريم في إنتهائه وتحرير أفراده خلال

<sup>24</sup> ابن هشام المعافري، عبد الملك، وردت القصة بكامل تفاصيلها في كتابه السيرة النبوية، ج 2 ص 499.

أسابيع إن لم نقل خلال أيام، ثم إنَّ الرسول الكريم نجح بعد ذلك في تحريم الرق كله، وأنَّ ما جرى في السنوات الأولى للرَّسالة على قواعد الحرب في الجاهلية لم يكن إلا مرحلة من تحريم ذلك كله، وأنَّ الرسول الكريم أطلق السبايا الأربعة اللاتي نسين إليه وهن ربحانة القرظية ومارية القبطية وجويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي.

من المؤسف أنَّ قراءة السيرة النبوية على هذا الوجه المسؤول المبني على عدالة الإسلام وكرامة الإنسان لا يحظى بالقبول في الفقه الإسلامي التقليدي، وتتهم من قبل المتشددين بأننا نمارس الانتقائية، وأنَّ الرسول الكريم وإن لم يمارس السبي يوم حنين ولكنه مارسه يوم قريظة والمصطلق وخيبر، وسيقولون إننا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وأننا نقوم بتمييع الدين إرضاء للكفار من اليهود والنصارى!

ومع أنَّ الفقه السائد لا يساعد على هذا التصور الذي رسمناه ولكنني أعتقد أنَّه لا يمكن احترام الرسول بطل حرية وبطل سبي في وقت واحد، ويجب أن تنزل هذه الوقائع على كفاحه البشري وعلى تطور الظرف السياسي، وقناعتي أنه لم يكن راجباً في السبي في أول مواجهاته مع المشركين، ولكنها كانت طبيعة الحرب وناموسها في صحراء العرب، وقد اتبع فيها على مضمض قواعد الحرب السائدة، وحرر من السبايا ما استطاع ولكنه ختم حياته الجهادية بيوم مجيد وهو يوم حنين، الذي يمكن عدُّه أهم أيام حرية الإنسان في تلك المرحلة من التاريخ حين وجدت ستة آلاف سبية من عيال المحاربين سيبلهن إلى حريتهن من جديد، بعد أن أوشك الأعراب أن ينتفضوا على الرسول ويخوضوا تمرداً مسلحاً ضارياً للوصول إلى السبايا.

كم هو محزن أن نتحدث عن السبي والاسترقاق على أنه من محاسن الإسلام رغم عواقبه المتوحشة وصورته الظالمة السوداء، ركوناً إلى ظاهر النص، واستسلاماً لما وجدنا عليه آباءنا، ونمهد من حيث نريد أو لا نريد لسلوكيات التوحش السوداء التي ترتكبها حركات التطرف في السبي والاسترقاق، على الرغم من أن مواقف الرسول الأخيرة أكدت أنه نسخ تلك الأحكام الظالمة وأسس لعدالة الإسلام وحقوق الإنسان.

ونسجل هنا عدداً من النتائج الضرورية في مسألة العبودية في الإسلام:

- تحريم الاسترقاق مطلقاً وعدُّ ما جرى في خيبر منسوخاً بآية ﴿فَأَمَّا تَبَعُوا مَا فَدَاءُ﴾ [محمد: ٤]، وكذلك بفعل النبي الكريم يوم حنين<sup>25</sup>.
- تحرير الرقاب على أساس الطاعة والعبادة والقربة إلى الله
- تحرير الرقاب على أساس المسؤولية الجزائية (الكفارات والنذور والحنث)
- تحرير الرقاب على أساس كفاءة العبد وقدرته (المكاتبة)
- تحرير العبيد على أساس مسؤولية الدولة المباشرة وفق نص القرآن: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠]
- نجاح الرسول الكريم في القضاء على الرِّق في المدينة وتحويل العبيد كلهم إلى موالى.
- إن عودة الرِّق بعد الرسول ليس دليلاً على مشروعيته، وهو تماماً كفضو الخمر والغلمان في قصور الخلفاء والاستهانة بها.

<sup>25</sup> للأسف فإن هذه المسألة في كتب الفقه الإسلامي تعد مسألة خلافية، ويرأها بعضهم من باب المباح، ولكن الخلاف فيها انتهى بترجيح ولاة الأمر في العالم الإسلامي كله بمنع الرق، ومن المعلوم أن ولي الأمر له أن يحظر بعض المباح اتفاقاً.

- جرى الإجماع اليوم على تحريم الاسترقاق بأشكاله كلّها وقد دخلت الدول الإسلامية كلها بلا استثناء في عقود دولية ملزمة شرعاً وقانوناً تحرم الرق كله.



## أئمة المذهب الإنساني في الإسلام

وَالنَّاسَ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ أَوْ نَظِيرٌ لَكَ فِي  
الْخَلْقِ.

علي بن أبي طالب

لا يوجد إمام معتبر في التاريخ الإسلامي إلا وقد سجل له موقف إنساني في أدائه الفقهي، وبالقدر نفسه أيضاً سجلت لهم مواقف غير إنسانية في ترجيح تشريعات تتناقض مع كرامة الإنسان.

ويمكن الإشارة إلى أهم الأئمة الذين انحازوا للإنسانية، ونجحوا في تشريع قوانين إنسانية أو أسهموا في تطبيق قوانين إنسانية متقدمة.

### عمر بن الخطاب:

يعدُّ عمر بن الخطاب أكثر خلفاء الإسلام تأثيراً وحضوراً في التاريخ الإسلامي، ومع أنَّه حكم عشر سنوات وأظهر عدداً من المواقف الإنسانية التي كانت ذات أثر كبير على الحياة العامة، ومنها:

1. إصلاحه النظام القضائي، ومنع التمييز بين الناس على أساس الدين أو العرق أو الطبقة الاجتماعية، وفي هذا السياق نذكر كلمته الشهيرة: "يَا عَمْرُو، مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتُمُ أُمَّهَاتُكُمْ أَحْرَارًا"، وأوَّل من نقلها عنه (الأبشيهي) في المستطرف يرويها عن (أنس بن مالك)، وفيها أن قبطياً اشتكى ظلم (ابن

عمرو بن العاص) حاكم مصر، فلما تثبت عمر من دعواه دعا عمرًا وابنه إلى المدينة، فلما اعترف ابن عمرو بن العاص دفع إليه السوط ليضربه به قصاصاً عدلاً، وقال: "يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً".

2. رفضه لتطبيق قواعد الغنائم التي تقضي بمنح الفاتحين أربعة أخماس الغنيمة واقتسام الأرض المفتوحة، وقد علل ذلك بتعليل إنساني عظيم وهو أنها حق أهل البلاد، ولا يجوز نزعها منهم، ولا بد أن خطأ في تأويل الآيات دفع الفاتحين إلى التصرف بشكل غير إنساني ومصادرة الأراضي من أصحابها في البلاد المفتوحة.

3. إصراره على منح القدس صفة رمزية، لتكون مقرأ للإخاء الإنساني، ومنع دخول الجيوش إليها وقام بنفسه بالسفر إلى القدس لتأمين بقاء أهلها فيها والحفاظ على الكنائس ودور العبادة للمسيحيين فيها.

4. وقف العمل بالحدود الشرعية من القطع والرجم والصلب رعاية للموقف الإنساني، اشتهر عن عمر بن الخطاب موقفه الواضح في وقف أحكام الحدود رعاية للجانب الإنساني.

5. رفضه لحروب الردة وعده القتال ضد المنكرين للزكاة غير مبرر، وقد اشتد في معارضته حتى غضب أبو بكر رضي الله عنه وقال له: "أجبار في الجاهلية حوار في الإسلام يا عمر؟" ومع أنه خضع لرأي أبي بكر ولكنه ظل يراقب حروب الردة وما فيها من تجاوزات وطلب عزل خالد ومحاکمته، ونجح في حماية مئات الأسرى من المرتدين الذين جيء بهم إلى المدينة، وكان يشفع لهم عند أبي بكر، حتى إذا صار الأمر إليه أطلقهم جميعاً وعقد المصالحات، وأعاد الاعتبار لجميع

ضحايا العنف الدّيني، ومنحهم حقوقهم المدنية الكاملة وقد اختار معظمهم طواعية الدّخول من جديد في الإسلام.

6. رفضه الصّارم لانسياح الفاتحين في بلاد فارس والروم وركوب البحر على اعتبار ذلك كلّهِ موقفاً يلغي إرادة الشعوب في الاختيار ويؤدي إلى إرغامها على الإسلام، بل إنّه نهي بحزم عمرو بن العاص عن دخول مصر قبل أن يأذن له بالدّخول إلى العريش لردّ خطر الرّوم وهو ما فهمه عمرو بن العاص إذناً باجتياح مصر كلّها.

### عمر بن عبد العزيز

يعدُّ عمر بن عبد العزيز أهم القادة الإنسانيين في التّاريخ الإسلامي، وسيرته معروفة مشتهرة، وهي طافحة بالأداء الإنساني المتميز، ومع أننا سنأتي على بيان سياسته في وقف الفتوح ومحاکمتها عند الحديث عن تحديات المذهب الإنساني، ولكن نشير هنا إلى فقرات مختصرة من سياسته الفريدة في الاعتبار الإنساني.

1. وقفه الصّارم لحمالات الفتوح التي كانت في أوج انتشارها في الأندلس والقسطنطينية والسند والصين، فقد رأى (عمر بن عبد العزيز) أنّ هذا اللون من الفتوح يتناقض تماماً مع حقّ الإنسان في الاختيار وحقه في إدارة نفسه بنفسه، وحقه في اجتناب الحروب والقتال، وأن الشعوب التي تدع الجزية أو تنطق بالشهادتين هي شعوب مغلوب على أمرها ولا يمكن تبرير هذه الممارسات من الضغط والتضييق والجزية عليها إلا في سياق الإكراه في الدين وهو ما حرّمه الإسلام صراحة.

2. أمره بمحاكمة الفتوح السابقة وبالفعل فقد ذهب قضاته يحاكمون الفاتحين حتى بعد موتهم وانتهى القضاة إلى أن كثيراً من الفتح تمّ دون اعتبار لحقوق الإنسان وكرامته، وبالفعل أمر بانسحاب الجيوش من عدد من مناطق الفتح المنجزة كبخارى وسمرقند، وبعض مناطق الفتح غير المنجزة كالقسطنطينية.
3. انفتاحه الكبير على أهل الكتاب، فقد اختار (يوحنا الدمشقي) مستشاراً له، كما استقدم البتّائين من النصارى إلى المدينة المنورة لتجديد بناء المسجد النبوي، واختار أن يمرض ويدفن في دير مسيحي بمعرة النعمان وما زال قبره فيه وكذلك قبر زوجته فاطمة بنت عبد الملك التي ماتت بعده بعشر سنين.
4. وكان من آثار تلك العلاقة المتميزة مع الأئمة المسيحية أن الإمبراطور ليو الثالث أرسل له فريقاً طبياً ليقوم بعلاجه، وحين مات نعاه الإمبراطور وقال: "لو كان في النَّاس رجل يحيي الموتى لقلت إنّه عمر بن عبد العزيز".
5. نضاله المتميز والصارم ضدّ ممارسات الفساد والظلم، وقد وقف بشجاعة ضدّ مظالم (الحجاج بن يوسف) الذي كان أقوى رجل في الدولة الأموية، فنجح في إقناع الخليفة بعزله عن ولاية المدينة، وكان عمر يتوعده دوماً بالمحاسبة والمساءلة، وقال: "والله يا بني أمية، لو جاءت كل أمة بذنوبها وجئتم بالحجاج لغلّبت سائر الأمم".

### أبو حنيفة النعمان

يعدُّ أبو حنيفة الإمام الأعظم في الإسلام، وقد قاد كفاحاً تنويرياً كبيراً ومهماً وتعرّض لتهجمات قاسية، ولكنه ثبت على مواقفه وتمكن من الدفاع عن أفكاره، ونجح

تلاميذه من بعده في نشر مذهبه، وبات يعرف العالم الإسلامي بالإمام الأعظم، ومن مواقفه المهمة في تأسيس المذهب الإنساني:

1. الإيمان المطلق بحقِّ العبيد في التحرر، ووضع نظم إجرائية دقيقة تتجه كُلُّها إلى إنهاء حياة العبودية والوصول إلى التحرر والخلاص من الرِّقِّ. ومن طريف ما يروى في ذلك أنَّه حين وصل في التدريس إلى باب العتق توقف أشهراً عدَّة، ثمَّ عاد فقال لتلاميذه: لم أشأ أن أدرسكم هذا الباب قبل أن أقوم بنفسي بإعتاق عبد، وقد ذهبت وبعث واكتسبت فاشتريت عبداً وأعتقته.
2. الاستحسان: وهو في الجوهر حقُّ الإنسان في الحكم بالحسن والقبح، ويتضمن حقَّ الإيمان في التشريع، وهو اجتهاد في مواجهة النَّصِّ، وهو دليل ينقذ في عقل المجتهد يسهل التعبير عنه، وعبر الاستحسان يتم اليوم تشريع القوانين كُلِّها في البلاد الإسلامية.
3. فتواه بجواز التعبد بغير اللغة العربية، وقد أثارت هذه الفتوى إشكالاً كبيراً، ومهما كانت مبرراتها فهي في الجوهر دعوة إلى رفض التمييز القومي أو الطبقي أو العرقي.

## ابن سينا

يعدُّ ابن سينا مؤسس الاتجاه الفلسفي الإنساني في الإسلام ويقوم مذهبه في الجوهر على خلود النفس الإنسانية، وربايتها وسماويتها، ويعدُّ في الموقف الفلسفي متقدماً لجهة تقديس الإنسان وتكريمه، ووجوب أن تأتي الشرائع على وفق حاجات الإنسان ومصالحه الحقيقية.

ولا شك في أنَّ تقديس النفس الإنسانية إلى هذا الحد الذي رأيناه عند ابن سينا يوطئ الطريق للمجتهدين والمشرعين لاعتبار الإنسان غاية نهائية في كلِّ تشريع، ورفض كلِّ تشريع يستهدف كرامة الإنسان، ولا يعبأ بكرامته.

ويمكن الوقوف على تفاصيل دقيقة لموقف ابن سينا في تعظيم النَّفس الإنسانيَّة وتقديسها في كتابيه: الشفاء والنَّجاة وفي الرِّسائل.

## الفارابي

الفارابي أوَّل من قدم فلسفة إسلامية عميقة لكرامة الإنسان، تأسيساً على معنى توحيدي خالص، وهو انبثاق الكائنات عن الله، وبذلك فقد تجاوز الفهم التقليدي لرجال الدين القائم على تصور أن الله خلقنا للجنة وخلق غيرنا للنار!

كما سجل الفارابي رؤية إنسانية للمشهد الأخرى، ورفض الدلالة الظاهرة لنصوص العذاب لما تعنيه من إدلال الإنسان وتعذيبه، وصرَّح بأنَّ كلَّ ما ورد في هذه النصوص مما يتعارض مع الكرامة الإنسانية فهو مجاز ينبغي تأويله بما يحقق عدالة الله وكرامة الإنسان.

وتميزت فلسفة الفارابي بالانحياز الكامل إلى الإنسان وتقديسه وتعظيمه؛ إذ عدّه العقل الثاني الصادر عن العقل الأول، إنه دياكتيك ينتج نفسه من جديد، في دورة كاملة، ففيه من عقل الله وروحه، وهو يقاوم نوازع الشر بفيضان ذاتي ينتخب أحسن ما في الأشياء ويهمل الرديء منها.

ولم يكن يرى في ذلك تناقضاً مع الوعي الإسلامي، فقد كان يرى ذلك غاية النص المباشر: ﴿رُسُولُهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة: ٩] وكرر مراراً ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَتَمَّالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] وأمام هذه النصوص الصريحة فإنّ مذهب الفارابي هو أن خدمة الإنسان هي لونه من العبادة لمكان الروح الإلهي في ابن آدم.

## البيروني

يعدُّ البيروني أشهر علماء الإسلام في الأنثروبولوجيا، وقد ساعدته خبرته الطويلة وقربه من الملوك الخزنوية في فهم أعمق للإنسان وبخاصّة في الديانات الأخرى، ويمكن فهم موقفه من الإنسان عموماً حين أنجز كتابه الكبير تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مردولة وكانت هذه الدراسة حصيلة إقامة سنوات طويلة في الهند واختلاطه بأهلها وعرفته العميقة بعقائدهم وشرائعهم.

وقد استطاع البيروني أن يكتب بإيجابية مدهشة عقائد الهند على الرّغم من اختلاطها واختلافها، وكان ينطلق من فكرة تأسيسية وهي أن جوهر الديانات خدمة الإنسان وتحقيق كرامته، وفي هذا السياق جاءت دراسته عن الهندوسية على أنّها ديانة توحيد،

وأكدَ أنَّ ذلك اعتقاد النخب الواعية في الهند، مع أنه أشار بوضوح إلى سقوط العوام في الخرافة والجهل وعبادة الأصنام.

### السلطان أكبر شاه

وهو حاكم الهند المغولي المسلم 1556-1605م وفي عهده كانت السلطنة المغولية في أوج ازدهارها وقوتها، وقد انحاز السلطان أكبر بشدة إلى القيم الإنسانية في فهم الدين، وألغى صور التفريق بين الناس على أساس أديانهم وعقائدهم، وأوقف العقوبات التي كانت تفرض على الزندقة وتغيير الدين، وعدَّ أنَّ تغيير الدين حقٌّ إنساني، وأمَّا الزندقة فهي لون من الاجتهاد والتفكير الحر، ولا يليق بمؤلاء المجتهدين أن يسموا بالزنداقة بل الأحرار، ودعا إلى احترام الديانات كلها في الأداء والممارسة، ونظراً لالتزامه الكبير والمباشر لإخاء الأديان فقد تعرض لهجوم عنيف من رجال الدين في الأديان الثلاثة الهندوسية والمسيحية والإسلام، ولكنه في الوقت نفسه حقق نجاحاً لافتاً على مستوى النخب الثقافية في الإسلام والمسيحية والهندوسية.

ومع أنَّ رسالته في ظاهرها كانت توحيد الأديان، ولكنها في الجوهر كرامة الإنسان وحقه في اختيار ما يشاء من دين، واحترام اختياره الإنساني، وتوفير الحقوق الكاملة لكلِّ إنسان بغض النظر عن شكل الآلهة التي يعبدها أو الأنبياء التي يتبعها.

وتعدَّ خطوات السلطان أكبر شاه جريئة ومثيرة، وقد أطفأت كثيراً من الأحقاد التي كان الصراع الديني يغذيها على وجه ماحق، ولكنه تعرض أيضاً لهجوم كبير من رجال الدين المسلمين نظراً لمواقفه الإنسانية التي عدَّوها مساساً بالثوابت.

## أبو العلاء المعري

ومن أروع أئمة المذهب الإنساني في الإسلام أبو العلاء المعري فيلسوف الشعراء  
وشاعر الفلاسفة:

ولو أني حُبَيْتُ الخُلْدَ فرداً      لما أَحَبَبْتُ بالخُلْدِ انفراداً  
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي      سحائبُ ليسَ تَنْتَظِمُ البلادا

وأما ثقته بالإنسان وإيمانه بأنه أهل للتشريع والاجتهاد والحرية:

أيُّها العَرُّ إنْ حُصِّصَتْ بعقلٍ      فاسألْنه فكلُّ عقلٍ نبيّ

## نجم الدين الطوفي

انفرد نجم الدين الطوفي بمواقف واضحة في مركزية الإنسان ومحوريته، وهو أول من  
صرَّح من الفقهاء بأنَّ مصالح الإنسان الحيوية هي مصدر كامل للشريعة، بل إنَّه  
صرَّح بوضوح أنَّها تتقدم على النَّصِّ نفسه، وأنَّ الاعتبار في كلِّ مسائل الشرع هو  
لتحقيق مصالح الإنسان، وأنَّ الاستصلاح مصدر تام وكاف.

## مدرسة ابن عربي

يعدُّ الإمام محيِّ الدين بن عربي أشهر أئمة الإسلام في مواقفه الجريئة والمباشرة في  
الدعوة إلى إعلاء شأن الإنسان، واحترام كرامته في الدين والاعتقاد والممارسة، وقد

كتب كتابه الإنسان الكامل، ومع أنَّ الكتاب في جوهره وصف للرسول الكريم ولكنه يحمل رسالة واضحة في أنَّ الشريعة يجب أن تأتي على وفق الإنسان وتستجيب لحاجاته.

ويتبنى ابن عربي نظرية كاملة في بيان قدرات الإنسان اللامحدودة، واشتهرت أبياته:

دواؤك فيك ولا تشـعر      دواؤك منك ولا تبصـر  
وتحسب أنك جرم صغـير      وفيك انطوى العالم الأكبر

ويمكن أن نحدد الجوانب الإنسانية التي كرّسها ابن عربي في مؤلفاته الكثيرة:

1. التأكيد على قوة الإنسان وأهليته ومحوريته، هو روح الله وسرُّه وصورته ومشروعه في الخلق، والتأكيد على وجوب كون الشريعة محققة لحاجات الإنسان، وأيُّ تشريع يأتي ضدَّ حاجات الإنسان الحيوية فهو تأويل فاسد لجوهر الدين.
2. التأكيد على إخاء الأديان وتشارك الرسالات في خدمة الإنسان، ووجوب البحث عن المشترك الإنساني في الديانات والأفكار والفلسفات كلّها، ورفض النزعة الاتهامية التي ترى في الناس خلواً من الحكمة والخير.
3. التأكيد على أنَّ الإنسانية وحدها معراج كافٍ للكمال، وفي هذا السياق فإنَّ ابن عربي يصدّم قراءة بموقفه من الشيطان ومن فرعون واعتقاده في فرعون الخير وتأكيده على أنَّ الأولياء والأصفياء موجودون في كلّ ملة، وإصراره أنَّ منهم مؤمنون ومشركون ومسلمون وكافرون، وأنَّ الإنسان حيث كان محل للخير الإلهي بغض النظر عن دينه وقومه وجنسه.
4. رفض فكرة العذاب الأخروي كما تدل لها ظواهر النصوص والذهاب إلى تأويل مختلف بقصد الدفاع عن كرامة الإنسان وعدالة الله، وفي سبيل ذلك فقد ذهب

إلى أنَّ العذاب هو العذوبة وأنَّ ما ورد في القرآن الكريم هو محض مجاز تربيوي، وأنَّ الإنسانية جمعاء مآلها إلى النعيم، وأنَّ النَّارَ والعذاب ليس إلا مطهرة مؤقتة للدخول إلى النعيم المقيم.

5. الحديث عن السمو الأخلاقي في التعامل مع الخلق كافة من بشر وحيوان ونبات بصفتها مظهراً لكمال الخالق وانبثاقاً منه وفيضاً، وفي ذلك اشتهرت كلمته: لن تبلغ من الدين شيئاً حتى توقر الخلائق كافة.

واشتهرت عن ابن عربي أبياته الثلاثة التي تشرح مذهبه بوضوح:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فَمَرَّعَى لِغِزْلَانٍ وَدِيرٍ لِرُهْبَانٍ
وَبَيْتٌ لِأَوْثَانٍ وَكَعْبَةٌ طَائِفٍ	وَأَلْوَابٌ تَوَارَةٌ وَمَصْحَفٌ مَدِينَةٌ
أَدِينُ بَدِينِ الْحُبِّ أُنَى تَوَجَّهْتُ	رَكَائِبُهُ فَالْحُبُّ دِينِي وَإِيمَانِي

وبلخص ابن عربي موقفه في ست حقائق يعدها أصلاً في التوحيد:

المقدمة الأولى: الإحسان إلى الخلق كافة؛ مؤمنهم وكافرهم، ظاهراً وباطناً.

المقدمة الثانية: أن الله تعالى لم يقصد إلى إفناء الكافرين، بل بقائهم، لتحقيق حكمة الخلق.

المقدمة الثالثة: أن الرحمة الإلهية وسعت كل شيء.

المقدمة الرابعة: أن الله تعالى يرزق في الدنيا، حتى مع الكفر.

المقدمة الخامسة: أن العقوبات الدنيوية تطهير وتنظيف، كالأعراض تصيب المؤمنين.

المقدمة السادسة: أهل الكبائر موحدون، وكذا من لم يعمل خيراً قط، وأنهم يخرجون بالشفاعة.

وفي سياق مدرسة ابن عربي يمكننا أن ندرج كثيراً من الأئمة العرفانيين، الذين عبروا بوضوح عن النزعة الإنسانية والإخاء الإنساني وعدوا ذلك من مسلمات الشريعة ومقاصد الإسلام.

ومن ذلك كلام عبد الكريم الجيلي في الإخاء الإنساني:

فسلمت نفسي حيث أسلمني القضا	ومالي في فعل الحبيب تنازع
فظوراً تراني في المساجد عاكفا	وإني طوراً في الكنائس راتع
فإن كنت في حكم الشريعة عاصياً	فإني في حكم الحقيقة طائع

وفي السياق نفسه كلام ابن الفارض في احترام الأديان والمذاهب والملل والنحل:

وإن تَآرَ بالتنزيل محرابٌ مسجد	فما بَارَ بالإنجيل هيكلاً بيعة
وإن خَرَّ للأحجار في البدءِ عاكفٌ	فلا وجَّهَ للإنكارِ بالعصية
وقد بلغ الإنذار عني من بغى	وقامت بي الأعذار في كل فرقة
وما زاغت الأبصار من كل ملة	وما راغت الأفكار في كل نحلة
وإن عبَدَ النارَ المجوسُ وما انطفت	كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم	سواي وإن لم يظهروا عقْدَ نيّة <sup>26</sup>

<sup>26</sup> ديوان ابن الفارض، تحقيق الدكتور درويش الجويدي 67.

## ابن رشد

يمكن اعتبار الإمام ابن رشد أحد أبرز الفلاسفة الإنسانيين في الإسلام، وقد ساعده الجمع بين الفقه والفلسفة على تقديم اجتهادات جديدة وجريئة في الإخاء الإنساني واحترام الذات الإنسانية.

ولعل أشهر أعماله في هذا السبيل هو كتابه (تهافت التهافت)، وهو كتاب إنساني كرسه للرد على التكفيريين الذين ذهبوا إلى تكفير الفلاسفة، وأكد ابن رشد أنَّ الفلاسفة يقدمون رؤيتهم الإنسانية لتفسير العالم وهي رؤية تستحق التقدير والاحترام، وأنَّ الفلاسفة وإنَّ ظهر في منطقتهم بعض ما لا يستقيم عند علماء الشريعة ولكنهم في المال يقدمون فكراً حراً يليق بالإنسانية، ويجب احترامه وتقديره، وأنَّ الإيمان يتسع لهذا اللون من الاختلاف مهما كان مفارقاً ومتبايناً، ويمكن اعتبار المقاصد الإنسانية سبيلاً جامعاً لكلِّ جهود الفلاسفة.

واختار دون تردد أن هذه المفاهيم التي انتهجها الفلاسفة هي محاولات للوصول إلى الله، وأنَّ على العقيدة الإسلامية أن تتحلى بالمرونة والاتساع لقبول هذه الهوامش من الاختلافات العقائدية تأسيساً على أنَّ الدين لله، وأنَّ الخلق عباده، وأنَّه لا يليق بالكمال سبحانه أن يرسل النبوات والرسالات لتتناحر وتتنازع، ولا يمكن أن يكون الهدى محصوراً بفتنة قليلة من الخلق وضعتهم المصادفات في المكان القريب وصار الآخرون محلاً لغضب الله وسخطه وكرهيته.

## جلال الدين الرومي

يعدُّ جلال الدين الرومي أشهر الفقهاء الإنسانيين في الإسلام، وقد تحدث بروح إنسانية غامرة ولم يتردد في توجيه رسائله بكلِّ وضوح فالإنسان أخ الإنسان والإنسان سرُّ الله وروحه في هذا العالم وهو جدير بالحب والاحترام والعشق والجمال.

ولم يشأ جلال الدين أن يكتب فكره بالحجج البرهانية والعقلية بل ذهب مباشرة إلى لغة العشق ولسان العرفان، وهناك استطاع أن يعبر بعمق وقوة عن روحه المتدفقة المؤمنة بروح الإنسان وقوته ومحوريته.

ويكرس الرومي رسالته لبعث الثقة في الإنسان لتنبهه إلى تلك الروح الجبارة التي أودعها الله في الإنسان وقدرته على إدارة هذا العالم بعيداً عن كل إيديولوجيا أو تذهب:

وفي مطلع ديوانه التبريزي يقول: "أنا نفسي لا أعرف نفسي، فلا أنا مسيحيٌّ، ولا أنا يهوديٌّ، ولا أنا مجوسيٌّ، ولا أنا مسلمٌ، ولا أنا شرقيٌّ، ولا أنا غربيٌّ، ولا أنا من البرِّ، ولا أنا من البحر، ولا أنا من الكون، ولا أنا من المكان".

«مسلم أنا ولكيَّ نصراني وبرهمي وزرادشتي، توكلت عليك أيُّها الحقُّ الأعلى، ليس لي سوى معبد واحد؛ مسجد أو كنيسة أو بيت أصنام».

وفي ضريحه النبيل في قونية يتجمع كل عام يوم 17 نوفمبر مئات العرفانيين من الأديان جميعاً للاحتفاء بالرجل الذي كرَّس مكان الإنسان كجوهر حقيقي لكفاح الأنبياء والأولياء على الأرض وأساس ينبغي أن تدور حوله شرائعهم، وكتب بلغة الحبِّ والعشق.

"إنَّ مولانا اشتق مذهباً جديداً في تأويل الدين ونصوصه، يمكن تسميته بـ(مذهب العشق). مذهب تغلب فيه الروح على القانون، ماهيته التراحم والمحبة، تتسع مدياته الإنسانية، بنحو يحرر البشرية من العدوان والتعصب، ويفتح آفاق التواصل والتفاهم بين مختلف المجتمعات. إنَّه عابر للأديان والثقافات، ليس نفيّاً للأديان أو مناهضة لها، وإنما تعبير عن المضمون العميق للأديان، إنَّه مرتبة متعالية من المعنوية والروحانية، تستوعب جوهر الأديان، وكأنَّه يحاكي ما يذهب إليه الشيخ محيي الدين بن عربي، عندما يعبر عن ذلك بصراحة:

أدينُ بدينِ الحُبِّ أُنِّي تَوَجَّهْتُ رَكَائِبُهُ فَالْحُبُّ دِينِي وَإِيمَانِي  
دين يتأسس على الحُبِّ والعشق، ينشد الجمال والفن، تبدو تمثلاته في الرقص والموسيقى والسماع، ويسكبها في قوالب الطقوس والعبادات، فتغدو سلماً للواصل مع الحقِّ، والمعروف لديهم أن «مدارج السالكين إليه بعدد أنفاس الخلائق». ينأى هذا التدين عن كلِّ ما من شأنه أن يقود إلى القتل والموت، ويسم الحياة بالحزن، ويلوِّث عوالم المعنى بالدم المسفوح. لذلك لا نعثر على دعوات للكراهية هنا، قد نجد من يشير إلى كراهية الخطيئة، بيد أنهم لا يكرهون الخاطيء، وإنما يشفقون عليه، ذلك أن معتقدهم ينبثق عن (لاهوت الشفقة) لم يتحدث مولانا عن القتل، ولم يطلب منا إعلان الحرب على الخطاة، ومن يختلفون معنا في المعتقد.

وجدت في مفهومه ديناً لا يكره الحياة، ديناً لا يخاف الفن، ديناً لا يزدري الفرح، دين جلال الدين هو دين التضامن ضدَّ الدعوة إلى الموت، دين يدعو للابتهاج،

دين يحتفي بالمسرات، دين مادته المحبة، دين تشرحه كلمات جلال الدين: "توضاً بالمحبة قبل الماء، فإن الصلاة بقلب حاقدا لا تجوز"<sup>27</sup>

وليس هذه بالطبع إلا أمثلة سريعة ملهمة حول رواد المذهب الإنساني في الإسلام، ولا أزعج على الإطلاق أنني وفيت هذا الفصل حقه، ولكنني أردت أن أقول إنَّ هذا الفهم الذي ندعو إليه من تكريس الإنسانية مصدراً أعلى للتشريعات والسلوكيات هو مذهب أصيل في التاريخ الإسلامي وله أعلامه ورواده ورجاله، ولكن يجب الاعتراف أن أحداً منهم لم يطرح فكرة إحداث مذهب بعنوان المذهب الإنساني، وتمَّ طرح النزعة الإنسانية في أعمالهم وأفكارهم وممارساتهم على أساس أنَّها نتيجة طبيعية للإيمان بأنَّ الله تعالى خالق الإنسان وأنَّ الكون مسخر بأمر الله لمصلحة ابن آدم.

### الأمير عبد القادر الجزائري

أمَّا الأمير عبد القادر المجاهد الجزائري الكبير فقد اختار الإنسانية مذهباً، وعلى الرغم من ثورته الضارية ضدَّ الفرنسيين وما لقيه منهم من عنت وظلم ونفي وتشريد فقد وقف بشجاعة يدافع عن المسيحيين في دمشق إبان طوشة النصارى 1860م وقد نجح في إيواء آلاف المسيحيين الذين كانوا يتعرضون لأعمال تأرية وانتقامية، وهو حدث مشهور، ولم يتوقف الأمير عند المشاركة الإغاثية بل اتخذ هذا المنهج الإنساني نهجاً وسبيلاً، وما قاله في هذا المعنى هذه القصيدة الفريدة، وفيها يؤكد على المعنى الصوفي العميق حول تجلي الكل في الواحد والواحد في الكل، وعن

<sup>27</sup> الرفاعي، عبد الجبار، الدين والنزعة الإنسانية، ص41.

نظرته الإنسانية الغامرة للأديان والمذاهب والملل والنحل كلِّها؛ إذ يعتبرها ذاتاً واحدة، ويصرح أنه مرآة يظهر فيها كلُّ جميل في هذا العالم وكلُّ ما في العالم جميل، ويعبر عن هذا الظهور بالأنا وقد صارت مجمعاً للقيم الإنسانية:

أنا الحب والمحجوب والحب جملة	فما زلت في أنا ولوهاً وحيراناً
ففي انا كل ما يؤمله الورى	فمن شاء قرآنا ومن شاء فرقاناً
ومن شاء توراة ومن شاء انجيلا	ومن شاء مزمارا زبوراً وتبياناً
ومن شاء مسجدا يناجى به	ومن شاء بيعة ناقوسا وصلباناً
ومن شاء كعبة يقبل ركنها	ومن شاء اصناما ومن شاء اوثاناً
ومن شاء خلوة يكن بها خالياً	ومن شاء حانة يغازل غزلاناً
ففي انا ما قد كان او هو كائن	لقد صح عندنا دليلا وبرهاناً
أنا الحب والمحجوب والحب جملة	أنا العاشق المعشوق سرّاً وإعلاناً

ومن روائع إقبال قصيدة بعنوان "العالم معبد الله"، وقد نقلها إلى العربية ونظمها الدكتور (عبد الوهاب عزّام):

إتّما العالم طرّاً معبد	كلّ من أحسن فيه يعبد
كلّ من أدلى بقول طيب	ينبت الخير كغيث صيب
كلّ من أحسن يوماً عملاً	كل من أحيا مواتاً هملاً
كلّ من في أرضه قد زرعاً	ليقيت الناس والعجم <sup>29</sup> معا
كلّ من يغرس مخضر الشجر	فيه للإنسان ظلّ وثمر

<sup>28</sup> الجزائري الحسني، الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية.

<sup>29</sup> يقصد بذلك: الإنسان والبهائم والجمادات.

كلّ من يحفر بئراً في السبيل	تنفع الظمآن من حرّ الغليل
كلّ من يبني بناء حسنا	كلّ من في صنعه قد أتقنا
كلّ من أحدث علماً للبشر	ينفع الناس ولم يقصد لشر
كلّ من في دهره قد أجملا	فكرة أو قولة أو عملا
كلّهم لله نعم العابد	كلّهم للخير نعم القاصد <sup>30</sup>

<sup>30</sup> عزام، عبد الوهاب، نظم ديوان إقبال بياض مشرق، وهي في ديوان إقبال للغوري، ج1،

## في الواقع المعاصر

ولا تقل: أمم شتى، ولا فِرْقٌ فالأرضُ من تربةِ والناسُ من رجل!

البحثري

### والآن أين نجد المذهب الإنساني في الواقع المعاصر؟

قناعتي أن المفكرين المسلمين كافة في التاريخ يحملون هذه الروح الإنسانية، وقد عبروا عنها من مرادف مختلفة، ولا شكَّ في أنَّ جمع تراثهم وتنظيم أفكارهم وتصنيفها سيجعلنا ندرك أنَّ المذهب الإنساني له رصيد هائل في التاريخ الإسلامي، وبالإمكان التعرف إلى أعلام المذهب الإنساني في تاريخ الإسلام عبر التصنيف الآتي:

- الصحابة الكرام والتابعيون الذين نادوا بحرية الإنسان ورفضوا العبودية والسبي والرق بصورة كلها، وأهمهم خديجة بنت خويلد وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة، ولا شكَّ في أنَّ رائد التحرير الأعظم هو النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.
- الفلاسفة الذين تحدثوا عن خلود الروح وقدسية الإنسان ومكانته عند الله، كابن سينا والرازي وابن باجة وهؤلاء رسموا مكاناً أعلى للإنسان، وراوا أنه جوهر الحياة ومعنى وجودها، وأن كل تشريع يحكم البشر يجب أن يلتزم المعيار الإنساني دون سواه.

- السادة الصوفية الذين تحدثوا عن الإنسان الكامل بوصفه مصدراً للشرعية والحقيقة وأشهر من كتب في هذا الباب ابن عربي وعبد الكريم الجيلي.
- الشعراء والأدباء في التاريخ الإسلامي الذين استطاعوا أن يكتبوا أدق التفاصيل عن الإنسان حراً عزيزاً كريماً زميلاً للناس وأخاً للبشر، وأشهرهم وإمامهم أبو العلاء المعري وأبو العتاهية وأبو الفتح البستي وابن عبد ربه.
- المفكرون الإسلاميون الذين كتبوا في العقود الأخيرة من زاوية إنسانية، بلغة بصيرة بشروط الحضارة وأصول الشريعة، ومن أهم ما صدر في هذا الباب كتاب الإسلام بين الشرق والغرب لعلي عزت بيغوفيتش وكتاب الإنسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً لجودت سعيد، وكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي وكتب محمد عمارة ومحمد الغزالي وخالص جلي
- الفقهاء والحقوقيون الذين انتدبتهم الدول الإسلامية لكتابة الدستور والقوانين بناء على روح الشريعة ومقاصدها وخبرات الأمم، ومن أشهرهم عبد الرزاق السنهوري ومصطفى الزرقا ومحمد أبو العلا عفيفي وغيرهم من أعلام القانون. وهم يعدون بالألوف في اللجان التشريعية والقانونية في العالم الإسلامي وكلهم قد أنتجوا دساتير واضحة وقوانين متبعة تمنع الرِّق بكل أشكاله وقوانين ترصد أي إهانة أو تبخيس للكرامة الإنسانية، ولا يوجد اليوم في العالم الإسلامي كَلِّه فقيه رسمي ينتمي إلى حكومة معتبرة يقول بالاسترقاق أو يأذن به أو يبرره، بل القول واحد عند الجميع وهو تحريم الاسترقاق والسبي كاملاً.
- المؤسسات الإسلامية الرسمية وهي وزارات الأوقاف والفتوى في البلاد الإسلامية وبشكل خاص الأزهر ورابطة العالم الإسلامي التي التزمت برامج الدولة في المواطنة وتوقفت عن تأييد الفتاوى التمييزية والاستعلائية.

- المنظمات الإسلامية الناشطة في حوار الحضارات والديانات والتي نجحت في اعتماد خطاب إسلامي متسامح وتوقفت عن الترويج لثقافة الاستعلاء والكراهية.

ولا بأس في أن نستطرد قليلاً ونذيع سرّاً إذا قلنا إن تطوراً كبيراً قد طرأ على الصنفين الأخيرين وقد اختارا توجهاً مختلفاً عن السياق التاريخي، وهو خلاف ما كانا عليه قبل عقود، وقد كانت المؤسسات الإسلامية وعلى رأسها الرابطة والأزهر شديدة في المواقف التمييزية ولم تكن الإنسانية محوراً في توجه هذه المؤسسات، وعنهما صدرت فتاوى تكفير واضحة بحق الطوائف الإسلامية ومواقف تنديد شديدة بحق الأديان، ومواقف شديدة ضد التوجه العالمي نحو حقوق الإنسان، وهو الأمر الذي توقف تماماً في الخطاب الرسمي، وإن كان لا يزال بشكل أو بآخر موجوداً في القاعدة العميقة لهذه المنظمات ويعيش جدل الحفاظ على البقاء، ولكن لا يبدو أن الأمور سترتد إلى مواقف التشدد السابقة في المستوى المنظور.

ويمكننا أن نشير إلى موقف واحد في هذا السبيل، وذلك عبر وثيقة مكة التي

2019

وقد وقّع عليه 1200 فقيه إسلامي برعاية رابطة العالم الإسلامي أشد منظمات الإسلام التزاماً بالكتاب والسنة، وحين نقارنها بالخطاب السائد وهي المفردات التي كانت تستخدمها الرابطة والأزهر قبل عقود قريبة سنجد أنها كانت تستخدم النص السائد الذي يبدو بوضوح مناقضاً حاداً للخطاب الإنساني الجديد:

نص الوثيقة	النص السائد
3- الاختلاف بين الأمم في معتقداتهم وثقافتهم وطبعتهم وطرائق تفكيرهم قدرٌ إلهي قضت به حكمة الله، والإقرار بهذه السُنَّة الكونية والتعامل معها بمنطق العقل والحكمة.. خير من مكابرتها ومصادمتها.	الاختلاف بين الناس هو إيمان وكفر، ولا يقر الكافر على كفره، بل تلزمه الجزية، فإن أبي فالسيف. ورسالة المسلم الدعوة إلى الله حتى تنقمع الأديان الباطلة كلها ويخرج الناس من الظلمات إلى النور
4- التنوع الديني والثقافي في المجتمعات الإنسانية..... يستدعي إقامة شراكة حضارية إيجابية، وتواصلًا فاعلاً يجعل من التنوع جسراً للحوار والتفاهم.	لا يجوز موالة غير المسلمين ويجب البراءة من كل مشرك
5- أصل الأديان السماوية واحد، وهو الايمان بالله سبحانه وحده جل وعلا لا شريك له، وشرائعها ومناهجها متعددة، 21- تحقيق العيش المشترك الآمن بين جميع المكونات الدينية والاثنية والثقافية على اتساع الدائرة الإنسانية، يستدعي تعاون القيادات العالمية والمؤسسات الدولية كافة.	لا يوجد إلا دين سماوي واحد، والأديان الأخرى باطلة مزورة محرفة لا يجوز احترامها لا يقر في دار الإسلام إلا المسلم، فإن أبي الإسلام فهو نوعان: الكتابي: الجزية أو السيف الوثني: الإسلام أو السيف
22- المواطنة الشاملة استحقاق تمليه مبادئ العدالة الإسلامية لعموم التنوع الوطني يحترم فيها الدستور والنظام المعبر عن الوجدان الوطني.	الاحتكام إلى قانون وضعي ردة وشرك، ومن ادعى ان يسوغ له الاحتكام إلى قانون وضعي فقد ارتكب ناقضاً من نواقض الإسلام

وفي الواقع فإن هؤلاء يشكلون رصيماً غنياً للمذهب الإنساني في الإسلام، ويمكن التماس عطائهم ونشاطهم في آثارهم التي كتبوها، وفي التيارات الفكرية والعلمية التي نجحوا في تأسيسها.

أمَّا الخطاب التقليدي الذي يصرُّ على وجوب طاعة الشرع دون تعليل، ويصرِّح بأنَّ مصالح الإنسان لا تصلح تفسيراً للشريعة ولا تعليلاً لها، بل إنَّ الشرع جاء

أصلاً بما يخالف هوى الإنسان ورغائبه، وأنَّ الشريعة لا تقر مبدأ المساواة الإنسانية وتأمّر بالتمييز بين المسلم وغيره فنجدّه أيضاً:

رجال الدّين عموماً، الذين يمارسون الخطابة والوعظ دون قيود حكومية، ويحسبون أنّ التوجه الرسمي للحكومات في تعزيز المواطنة والمساواة مؤامرة على الإسلام.

منظمات الدعوة الإسلامية التي تتخصص في التبشير الديني وتتولى الردّ على الأديان والتيارات العلمانية وفق أسلوب من الشحن المستمر القائم على صراع الحق والباطل. التيارات السلفية بشقيها الجهادي والعلمي؛ إذ تشترك في وجوب الاحتكام إلى الماضي وترفض كل تجديد فيه.

المدارس الشرعية التي لا تزال تلقن التعليم الديني القديم، ومنها للأسف مدارس الأزهر ورابطة العالم الإسلامي على الرغم من التطور الكبير على المستوى الاستراتيجي والخطاب الإعلامي لهذه المؤسسات.

وعلينا الاعتراف بأنّ قدرًا غير قليل من مشايخ الشريعة لا يقبلون الدور الإنساني إلا تبعاً ونتيجة، ولا يقبلون منحه أيّ دور قيادي أو إلهامي؛ إذ يحسبون الشريعة تنزل محسومة مفصلة، ولا دور للإنسان فيها إلا في مقام السمع والطاعة والخضوع، وأنّ الشرع مصدر عليّ مفارق، لا ينتظر من الإنسان رأياً ولا رشداً، ونحن أمة النَّصّ لا خيار لنا إلا الاتباع، وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداء من خلف.

ومن المؤسف أنهم يقدمون الإنسان في الخطاب الوعظي التقليدي محض كائن غبي فاسد أبله، نفسه أمارة بالسوء، وعقله مصدر ضلاله، تسوقه غرائزه ولا يكف عن الجريمة إلا بالعقاب، ولا يصلحه إلا السوط، وأنَّ الشريعة جاءت لتقمع هوى الإنسان وتوقف جموحه وسعار غرائزه، وأنَّ الأصل في النَّاس الضلال والجحود، وكلهم موبق بعذاب ربه إلا من نجا، والأصل في الناس الهلاك في جهنم إلا من أعتق الله رقبته من النار، وغير ذلك من الأشكال الاعتقادية التي تحول الإنسان من روح مبدعة خلقة إلى ذات جاهلة قاصرة غاية ما ينتظر منها الخضوع والخشوع والذل وصدق العبودية حتى تنجو ويمن عليها بالإعتاق من النار.

### في كرامة الإنسان عند إقبال

صور الوجود تموج نصب عيوننا	فاملاً عيونك ما ملأت عيوني
بين المحقق والفقير خصومة	عصفت بمنبر ذلك المسكين
لما رأى الحلاج فوق صليبه	كسر الصليب تعصباً للدين
ما بين منبر ذا وبين صليب ذا	لم ألق غير خصومة من طين <sup>31</sup>

وهذا الفصل أختاره لك من منصة إقبال، أكثر المفكرين الإسلاميين توثباً ونحوضاً، وهو يروي لك بدهشة وألم، طبيعة الصراع حول الإنسان الذي شهده

<sup>31</sup> ظاظا، زهير، نظم جناح جبريل لمحمد إقبال، وهي في ديوان إقبال باعثناء الغوري ج 1 ص 418.

التاريخ الإسلامي بين أهل العقل وأهل الجمود، بين المؤمنين بقدرة الإنسان على قيادة العالم وبين أولئك الذين ينتظرون أوامر الكهنوت، بين أولئك الذين رؤوا القرآن رسالة هدى ونور وبين أولئك الذين رؤوه قفصاً من زخرف، وبين الذين آمنوا بروح النَّصِّ، وبين الذين وقفوا عند ظواهره، إنه الصدام الذي ما زال قائماً بين العقل والنَّصِّ، بين الفقيه والمحدث، بين الظاهر والباطن، بين الإنسان والطبيعة:

إقبال لا يهدأ ساعة من معاركه التي لا تنتهي، يحدثهم برسائله الهادرة فيزعج فرشهم الكئيبة، يدعوهم للقيام فيرمقونه قاعدين، يخطب فيهم بما يجب أن يفعله الجمهور ولكنهم يريدون منه ما يطلبه الجمهور، فتضطرم في إحشائه إرادة الحياة، وكيف يرجى لأمة قيام وهي تحترف المنام.

أنا سيفاً خرجت من غير غمد      ضاع في غمرة المعارك غمدي  
يخرج الناس منطقي وكلامي      ويحارون في مرادي وقصدي<sup>32</sup>

ما الإنسان؟ إنَّه رسالته ومبادئه، وبغير ذلك فهو علقة تائهة أوَّلُه نطفة مذرة وآخره جيفة قدرة، وما له على الحيوان فضل قوة، وفي الكلاب والنواويس من هو أشدُّ منه قوة وأحد بصرأ وأكثر سمعاً...

والحديث عن محاربة الوثنية وتحريم عبادة الأصنام هو في الغالب شأن ديني، ولكن إقبال لم يقبل فصله عن سياقه النضالي كفاحاً في سبيل الحرية؛ إذ لم تكن تلك الأصنام إلا أدوات يستعملها المستبد في استرقاق العقل الإنساني، وراء كل صنم كان هناك سادن خاوي الروح مفتوح الجيب، يقوم بالتحدث نيابة عن الرِّبِّ،

<sup>32</sup> ظاظا، زهير، نظم جناح جبريل لمحمد إقبال، وهي في ديوان إقبال باعتناء الغوري ج 1 ص 468.

ويصف للبائسين الحالمين بالغييب ما يتيسر من عقاقير الوهم، وما يكفي لفتح جيوبهم على مصارعها، واستباحة ما تبقى فيها من مال وأحياناً من عرض ونخوة، بل إنَّ هذا السادن كان يمتلك إلى جانب مفاتيح الكعبة قرار الحرب والسلام، يشنه على المخالفين باسم الآلهة، ويستنفر أحابيش النَّاس ودهماءهم إلى الحروب باسم الآلهة وهي كليلة بكماء صماء، لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

كان العربي إذا هم بأمر يتوجه إلى الأزمات المائة، فيستقسم بها، أو إلى طائر أبله فيرشقه بحجر، فإن طار صوب اليمن تيامن وإن طار صوب الشام تشاءم، ولا شك أنَّه لا يوجد انحطاط في رسالة العقل وحرية الإنسان وكرامته أسوأ من هذا .

لذلك كانت رسالة الشريعة واضحة في هذا السياق، فلا بدَّ من الحرب على الوثنية الجاهلية إن أردنا إعادة الاعتبار للعقل والحرية، وبالفعل فقد أعلن النبي الكريم ثورته ضد الوثنية من دون هوادة، وفي هذا الجانب لم يقم أيُّ شكل من التصالح مع الأصنام، وهو ما قصده إقبال بقوله:

ليس السجود تهدل الكتفين من طول القعود  
ما كان أغنى عن سجود آخر فهو السجود<sup>33</sup>

إنَّه جوهر الرسالة الأولى التي بشرَّ بها خاتم الأنبياء حين أعلن رسالته في هدم الأوثان الزائفة أقبل عليه العبيد، بعد أن تسامعوا برحيق الحرية الذي يتنسم من معطفه، وحين كانوا يأنسون لرسالته في دار الأرقم بن أبي الأرقم كان دهاقنة مكة يغلون

<sup>33</sup> الأبيات نظم زهير ظاظا من ديوان إقبال الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير باعثناء عبد المالك الغوري ج2 ص 518.

بالغيظ، فالرجل رسول حرية، واللحظة لحظة الكفاح الإنساني للوصول إلى شاطئ الحرية الكبير، من خلال الحرية الموعودة والآمال الكبار التي تعلق بها الفقراء والعيبد، وهو كفاح لخصته آية قرآنية كريمة تحت عنوان: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ [النساء: 75]

وفي أعوام قليلة من الكفاح تبدل شكل جزيرة العرب، وبدلاً من السيد المخزومي والشريف القرشي وسراة بني عبد مناف ووجه معد يكرب ظهرت أسماء جديدة في سماء الكرامة العربية ليس لها أنساب عريضة ولا ماضٍ مجيد ولا ثروات طائلة ولا دم أزرق، وصعد على سطح الكعبة بلال العبد اللاجئ من الحبشة، وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، ونال الناس الحرية، وصار العبد القن شريكاً في صناعة بلده وبناء المستقبل.

هل جاءكم نبأ العقيدة عندما خرت لها الأيام للأذقان  
ومحت من الدنيا الفوارق بعدما محت الفوارق فطرة الإنسان<sup>34</sup>

لقد حققنا السعادة لأنفسنا ولمن لاذ بنا من الأمم، وأصبحت عواصمنا في دمشق والقاهرة وبغداد وقرطبة مراكز الرقي والتقدم العالمي...

ولكن كيف هبط العقل المسلم من سماء الاجتهاد إلى وهدة الهمود؟ ومن أفق الفكر إلى وادي التقليد، كل ما في دينه يدفعه للقيام ولكنه في حال سقوط مستمر:

أي عين قد أصابت ركبنا جعلته هائماً في كل واد  
نهبنا خيراتنا أجمعها لم نعد ننفع شيئاً للعباد  
فتنة في القلب قد أودت بنا نحن أبناء أطباء القلوب

<sup>34</sup> هذان البيتان لزهير ظاظا، وهما محاكاة لما ورد في ديوان إقبال ج 1 ص 72.

أين في ودياننا الماء الذي      قبل أحيينا به روح الشعوب  
 لم لا ينطلق التوق الذي      يوقد الجذوة في صدر الحرم  
 حجب غطت عيون المؤمنين      أن ترى زمزم قرب الملتزم<sup>35</sup>

وفي هذا السياق لا يخفي إقبال موقفاً مثيراً للدهشة في وعيه برسالة الإنسان، وموقفه من الوحي والغيب، ومسؤوليته في استئناف رسالة الأنبياء.

إنه لا يفهم اتباع الأنبياء بقراءة نصوصهم وتقليد ما فيها، إنه يدعو إلى قيام آخر، يكون فيه الإنسان هو النبي، وهو المخبر عن الله والقارئ في أكوانه، ويعلن إقبال فرحاً غامراً بحتم النبوة، وانتهاء سلطة الغيب على الشهود، والسماء على الأرض، وبداية عصر الإنسان.

ولكن حماس إقبال لإنهاء النبوة، وفرحه بموقف الرسول الكريم حين أعلن لا نبي بعدي، لا يعني أبداً نهاية الإشراق، وتوقف الفيض الإلهي... لقد كان إقبال حريصاً كأبي شاعر على تأمين موارد الإلهام، وقد صرح بذلك:

"فكرة انتهاء النبوة لا تعني أنّ العقل سيحل محل الشعور بشكل نهائي، إنه أمر غير ممكن، ولكن فكرة انتهاء النبوة تنزع العصمة عن أي فكرة تتدثر بالغيب وتخضعها للخبرة والتجربة، إن التصوف هو التجلي الأخير لاستئناف مدرسة الشعور بجوار مدرسة العقل بعد انتهاء النبوة." <sup>36</sup>

<sup>35</sup> إقبال، محمد، جناح جبريل، نظم زهير ظاظا ص 212  
<sup>36</sup> إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام ص 151

إنها إذن ليست نهاية ما بين السماء والأرض من موارد العطاء والتبادل الإشرافي، لقد أغلق الرسول باب النبوة ولكنه فتح باب الولاية، وهي حقيقة يتفق عليها أهل العرفان الإسلامي، فأولياء هذه الأمة ليسوا أقل شأنًا من أنبياء بني إسرائيل، ممنوع أن يغلق باب العرفان، فالإنسان بحاجة كل يوم لعبير قادم من السماء الأكثر طهورية ونقاء، إننا في حضرة غاره العظيم، ليس لنروي أخبار إشراقه، بل لندخل إلى الغار إياه ونلتمس الإشراق الذي غمر حياته ونور فؤاده:

أيها الصادق أشواقك في غارك العالي شفاء للقلوب  
كنت تلقيها على جناح الدجى وتلقاها على جناح الغيوب

قد وهى صبري أما من نفحة غير ما قد كان في غار حراء  
كيف ترجو العيش يوماً زهرة حجبت عن ري أمطار السماء<sup>37</sup>

لم يكن ليكف عن مناجاته ومعراجاته، والصخب الذي تمتلئ به السماء ينتظر القلوب الظامئة في الأرض، وفيما اختار ابن سبعين أن يسكن في غار حراء كان إقبال يرى في كل غار حراء وفي كل جبل نوراً، وكان يلتمس أن تفيض السماء من جديد، ويأخذه العجب كيف يتماسك أولئك الذين تنزل عليهم بوارق النور، لقد صعق موسى لما تجلي له قبس من الحق، وكان محمد تأخذه برحاء الوحي حتى يتفصد عرقاً وأنت تنظر إلى الحقّ نفسه في تبسم<sup>38</sup>

<sup>37</sup> الأبيات وما بعدها من نظم محمد حبش وهي في سياق ما تحدث به إقبال في باب ختم النبوة، تجديد التفكير الديني في الإسلام ص 16

<sup>38</sup> إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 140.

أنا شوقي فوق أشواق الكليم      ثم إني مدنّف في الحرم  
هو ولي حينما كلمته \*\*\*      وأنا وليت نحو الكلم

لا يتوقف إقبال عن السمو إلى السماء، لقد مرّ في تلك المدارس الرهيبة التي تخرج فيها الأنبياء، وعرف أسرار التنزيل، وبات يناجي الله بثقة واقتدار: "وجهك إيماني أنا، قرآني أنا، وجهك هو هدي الأسمى ومطمحي. إني ألفت نفسي غريباً تحت السماء، فقل لي: إني قريب؛ كي تغرب الشمس والقمر، فأعبر طلسم الأمس والغد".<sup>39</sup>

إن من قال «هو الله» لا يحتويه هذا النظام الكوني ذو الأبعاد، فالروح لا تحتويها الجهات، والرجل الخرمناى عن كل قيد.

لن أرى ذاتي حتى أبصرك      عند ساق العرش في عين الشهود  
سدرة أبصر فيها حضرتك      حين لا يبقى قيام أو قعود<sup>40</sup>

هل أحسن إلى النبوة أو إلى الرسول أولئك الذين زعموا بأن السماء قد قطعت صلتها بالأرض، وأوكلت الإنسان إلى مصائره، وهل كان وثوب العقل لعنة في مستقبل الإشراق حتى نحرم من وشائج الروح، وهل ستقول لنا السماء اذهبوا إلى حيث يطحن الفكر بعضه بعضاً ويذهب زبده ويفيض فيه ما ينفع الناس.

<sup>39</sup> إقبال، محمد، ديوان جاويد نامة (رسالة الخلود) ص 24

<sup>40</sup> هذه الأبيات وما سبقها وردت في سياق ما تحدث به إقبال في مطلع ديوانه صلصلة الجرس ص 72 وما بعدها، باعتناء الغوري وهي من نظم محمد حبش.

لا يشبع العاشق من أطلال حبه، يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحاً، كعاشق خط سطرًا في الهوى ومحاً، إن اعتكافي بالطور وجبل النور ليس لاقتباس نبوة جديدة، أنا من بشر بنهاية النبوات، إنّه موعد الإشراق الذي لا ينبغي أن يتوقف، إنه صوت الندى والري، حين ندرك أن في الروح ما لا تستطيعه الأجساد، أليس حراء منصة أمة وثبت في التاريخ فملأت الدنيا يقيناً وحباً وفرحاً ونوراً.

لا يطول به المقام حتى يستمع إلى حداء السماء وهو يبشره برحيق الغيب:

عطايانا سحائب مرسلات ولكن ما وجدنا السائلينا  
وكل طريقنا نور ونور ولكن ما رأينا السالكينا

ولم نجد الجواهر قابلات ضياء الوحي والنور المبين  
وكان تراب آدم غير هذا وإن يك أصله ماء وطنينا

ولو صدقوا وما في الأرض ماء لأجرينا السماء لهم عيوننا  
تجلي النور فوق الطور باق فهل بقي الكليم بطور سينا<sup>41</sup>

هكذا يريد إقبال أن يتقدم المسلم من جديد حراً تائقاً لمجد الفيض الأعلى: ها أنا بالباب صب ضارع، أصف قدمي في محراب تجلياتك، لا ألتمس في مشهد الغيب

<sup>41</sup> الأبيات من ديوان صلصلة الجرس لمحمد إقبال نظم الصاوي شعلان، وهو في ديوان إقبال باعتهاء عبد المالك الغوري ج1 ص 102.

ألواح موسى ولا قرآن محمد ولا شريعة حمورابي، إنني أبحث عن نور يقبسه القلب فيفيض به على الجوارح، وتشرق به الحياة...

لماذا يضمن منبع الوحي وموعد الإشراق عن عطاء جديد، النور الذي أتهيأ للتسريل به، لا يشتمل على مشروع رسالة جديدة، لقد أكملت للتو رسائلي من مصدر العقل الذي أهتمت به، وليس لدي توق لشريعة جديدة، إنني فقط أبحث عن استئناف فيضك.

إنه ينطلق إلى مشارق النور يلتمس تلك الأمواج النورانية التي سكبها الوحي في منطق الكلیم وروح المسيح وفؤاد محمد، ويرى أن ذلك حق طبيعي للعابد السالك، فمشواره إلى الله مشوار حب وتألق ونور، وإقبال على الرغم من ثقافته الغربية العميقة ونمط العقل الأوربي الذي كان لغة العلم والمعرفة في حياته الدراسية، ولكنه ظلّ مسكوناً بالروح ولم تغير الأيام توقه وشوقه:

كل عصر كان فيه حنفاء      لست وحدي في ضمير العالم  
ليس للعشاق وقت للرياء      \*\*\* فاحبني مجد الشهود الدائم<sup>42</sup>

ثم يروح يذكر بفخر وتوق نفحات الوصال التي ينجي بها أفق السماء الأعلى وهو أسير في قماط الجسد، إنه هناك؛ لأن من شأن كلِّ سالك أن يكون هناك...

<sup>42</sup> الأبيات هذه المرموز لها بثلاث نجوم \*\*\* وما بعدها من نظم محمد حبش، وذلك للأفكار التي وردت في ديوان صلصلة الجرس كما هي في ديوان إقبال للغوري ج1 ص 102 ولأفكار أخرى وردت في كتاب إقبال تجديد الفكر الديني عند محمد إقبال، الصفحات 41 وما بعدها وبشكل خاص الحوارات مع بروفيسور هوبكنغ وبروفيسور لوكاس.

غارك الموعود إشراق الحياة      باسط الرحمة مشدود القوى  
هات إشراقك نوراً أو نشيداً \*\*\* نزلة أخرى إذا النجم هوى

إنَّها آماله وأشواقه، وتوقه ووصاله، يلقيها في وادي الهوى على منصة الأسرار، ولكنه على الرغم من زفريات تمرده، يعود بالرغبة إلى محراب الشوق ويصف قدميه مع العابدين، ويلتمس كما كل عباده وعاشقيه رحيق الوصال الأبدي الموصول بنعيم الآخرة.

لم أزل أخلص في ديني على      رغم ما أجهله من حكمتك  
فمتى تنقل أشواقني إلى \*\*\* سدرة أبصر فيها حضرتك<sup>43</sup>

لا يكف إقبال عن مطاردة السراب، ولا يهّمه المعنى الفيزيائي للسراب، إنه معني بمعناه التربوي، إنه إرادة البحث عن الجديد واكتشافه، والغموض نفسه أكبر دافع للبحث عن الحقيقة.

لا تفرح إذا فقدت الرغبة في تعقب السراب، فالأماني ضرورية لمتعة البحث، والرجاء جوهر في كل إرادة.

أما آن لك أن ترتاح من جدل العقل وصخبه؟ الدين الحق ليس إدراكاً بل هو اتحاد، ليس نظرية بل هو سلوك، فتوقفوا يا أيها الواعظون عن تشقّق الكلام وتدبيح الخطب النارية، واجتثوا عن رحيق اليقين في ضوعه وعطره وشميمه، تماماً كما يصنع

<sup>43</sup> هذه الأبيات وما سبقها نظم محمد حبش وهي في سياق ما تحدثت به إقبال في تجديد التفكير الديني في الإسلام ص 155.

الصياد فإنه يركض في ابتغاء الغزال ولكنه فيما بعد يركض من أجل مسكه وطيبه،  
إنه أرقى ما يسعى إليه الصائدون.

## الفصل الرابع: تحديات المذهب الإنساني في الإسلام

فلنقدس الإنسانية طالما نعيش بين

البشر.

أندريه جيد

ولكن مشهد العالم الإسلامي والثقافة الإسلامية السائدة لا تعبر عن هذا الوصف الوردي لعلاقة الشريعة بالإنسان، وسنكتشف تحديات كبيرة وخطيرة في الممارسات والسلوك التي ما تزال في مناهجنا التعليمية والتربوية، تضع قيوداً صارمة على الاعتراف بالإنسانية؛ إذ يتم تلقين ثقافة التمييز والإقصاء، وتراجع إلى درجة كبيرة المعايير الإنسانية في المساواة والعدالة والفرص، لصالح الإيديولوجيا، بل إنه لا مناص من الاعتراف بأن كثيراً من السلوكيات والموروثات ذهبت إلى تكريس الكراهية كواجب شرعي نمارسها ضدَّ المختلف في الدين، وهو أسوأ ما يتصور من تربية وتحشيد.

ويمكن إجمال تحديات قيام المذهب الإنساني في الإسلام في البنود الآتية:

- ثقافة الكراهية التي يتم تدريسها بمرجعيات دينية
- ثقافة الجهاد والدعوة إلى الشهادة في سبيل الله
- الفتوحات وما ارتبط بها من ثقافة تمجيد العنف ونشر الدين بالسيف

- نظام الحدود الشرعي القائم على تعذيب الجسد بالرجم والبتر والصلب والجلد
- ظاهر النصوص التي تدل على احترام المسلم الملتزم دون سواه
- المواد التمييزية في الفقه الإسلامي التي تم تكريسها في مراحل مختلفة من الصراع التاريخي
- تيارات تحقير الدنيا وتبخيس قدر الإنسان وعدُّ الأصل فيه الخطيئة والفشل
- التعصب الديني الممارس ضد الإسلام والمسلمين والذي يغذي بدوره ثقافة الريب والقطيعة

## ثقافة الكراهية

إذا حكمت على الناس لن يكون  
لديك وقت لتُحبهم.

الأم تيريزا.

ويمكننا أن نرصد ثقافة الكراهية في الخطاب العام لرجال الدين في الإسلام الموجه ضدَّ الآخر المختلف دينياً ومذهبياً، وحتى سلوكياً، ويمكن تحديد أهم موارد ثلاثة لثقافة الكراهية كما الآتي:

- خطاب الوعظ الديني القائم على الحبِّ في الله للمسلمين والبغض في الله لغير المسلمين.
- ظاهر النصوص التي تدل على احترام المسلم الملتزم دون سواه من المسلمين.
- المواد التمييزية في الفقه الإسلامي التي تمَّ تكريسها في مراحل مختلفة من الصراع التاريخي.

فتاوى التحريم الشديدة لمشاركة النصارى أعيادهم أو الاحتفال مع أبناء الديانات في أيِّ مناسبة اجتماعية أو دينية:

نشر الرياضي الشهير (محمد صلاح) نجم ليفربول على صفحته تهنئة للمسيحيين بعيد الميلاد، وفيها يرتدي مع أطفاله زياً من بابا نويل الشائع في أوروبا، ويقدم التهنئة للمسيحيين في عيد الميلاد.

ولكن هذه المبادرة اللطيفة، التي لا تعدو كونها ممارسة اجتماعية عادية جداً جوبحت بطوفان ضارٍ من التمر على صفحة الرياضي الشهير، وأعقبها اتهامات لئيمة أطلقها عشرات الألوفا من المتابعين بالزندقة والردة للنجم المصري (الجاهل) الذي يحترم الأديان، ويشارك النصارى عيدهم! ولا يعلم أنّ النصارى مشركين، وأنّ الله تعالى تعبدنا ببغضهم وكرهيتهم!

ولو أنّ هذه الاتهامات كانت في الغرفة المغلقة لكانت إثارها إساءة للمجتمع، ولكنها للأسف لعناوين مبهرجة على صفحات الفيسبوك يقرؤها النصارى قبل المسلمين، والملحدون قبل الموحدين، ويتابعها الملايين بنزق وجاهلية واتهام وملاعنة متبادلة.

والفتاوى التي نقلها عشرات الآلاف من المتابعين على الصفحة لا تترك أيّ مجالاً لحسن التأويل، فالقوم ينقلون عن مشايخ السلفية نصوصاً واضحة في تحريم محبة غير المسلم ووجوب بغضه في الله! ووجوب اليقين والاعتقاد بأنّه من أهل النار وأنّ أيّ ودٍّ أو محبة تبذلها لبناء جسور الإخاء والمحبة مع غير المسلمين فهي انتهاك صارخ للعقيدة، وأشهرها فتوى نشرت بالمئات على الصفحة إياها منسوبة لابن القيم يقول فيها لو ارتكب العبد المعاصي كلها مجتمعة، فإنّه لا ذنب أكفر ولا أشدّ من تهنة النصارى بعيدهم!

ولا يفرق هذا الخطاب من الحقد بين الآخر المحارب أو الآخر المسلم، فالكل في طوفان الكراهية سواء، وما تزال المؤسسات الدينية تعلم أولادنا أن من أوثق عرى الإيمان الحب في الله للمسلمين والبغض في الله لغير المسلمين!

ومن المؤلم أنّ البغض للآخر هنا مؤسس على موقفه الاعتقادي فقط، وليس على أي ممارسة أخرى، فهو يستحق أشكال الازدراء والتحقير والكرهية كلها؛ لمجرد أنّه يحمل تفسيراً مختلفاً لنشوء الكون، والخريطة الدينية للبشرية.

وحتى لا نضيع في التحليل ونقدم أرقاماً تائهة، فإنهم يستندون إلى نص تراثي حدد بالضبط نسبة الأفراد الذين يجب أن يكرههم المسلم عبر حديث منسوب إلى البخاري وفيه أنّ الرّب يقول لآدم: "أخرج بعث النار من ذريتك! فيقول آدم: وما بعث النار؟ فيقول الرب: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون!"

هل نشعر بحجم الكارثة التي نمارسها حين نعلم المسلم أن يكره من حوله 999 من كل ألف إنسان؟

كيف يمكن لخطاب معزز بالإيديوجيا الحاقدة على كل ما هو آخر أن يصبح اليوم هو خطابنا الرسمي وأين ضاعت قيم الرحمة والمحبة التي أسسها القرآن الكريم للعلاقة مع الآخر المختلف؟

من المسؤول عن جعل الخطاب الديني الشعبي بهذا الهياج المستفز؟ وأين هي وصايا الإسلام ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

مع أن نصوص القرآن الكريم طافحة بالحديث عن الرحمة والمحبة للناس كافة، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، ورحمتي وسعت كل شيء، وقولوا للناس حسناً، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها.

ويمكننا القول إنَّ عماد الإنسانيَّة هو الفطرة السليمة، وعمل الخير للناس هو جوهر الفطرة السليمة، أو هي بتعبير الرسول الكريم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه (الإنسان) ما يحب لنفسه".

ومن المؤكد أنَّك ستسأل عن هذا القيد الذي لم نتعود أن نراه في كتب الرواية؛ إذ تنصرف أذهاننا إلى عبارة "حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ (المسلم) مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"، وللأسف فإنَّ هذا الفهم الذي تلقَّناه على مقاعد الدِّراسة هو النقيض الحديُّ والمباشر للإنسانية وهو أوضح تمييز يفسد المعنى الإنساني وينقلنا مباشرة إلى الاصطفاط الطائفي والقومي والعشائري، ويقيني أن الرسول الكريم الذي وصفه القرآن الكريم بأنه رحمة للعالمين لا يمكن أن يقصد إلا هذا المعنى الإنساني الرحيب.

وفي الواقع فإنَّ هذا التأويل الطارئ الذي يقيد الإخاء تقييداً إيديولوجياً ظل شأن اللاهوت الديني فيما ظل الشعب المسلم عموماً يميل إلى محبة الناس بوصفهم عيال الله وعباده ومحل رحمته وإحسانه.

ولكن هذه الروح من المحبة تُغتال عن عمد في ثقافة الرواية السلفية ولم أقل قصداً إنَّها الرواية الداعشية؛ لأنَّ معنى ذلك أنَّها اندثرت باندثارهم، ولكن الحقيقة أنَّها مستمرة تحت الشمس، ويتم تلقينها على أُنحى عرى الإسلام الوثيقة، استناداً لخيارات متأخري الحنابلة من مؤسسي التفكير السلفي، وهي حقيقة مُرَّة تفرض علينا مسؤولية مباشرة، وتلزمنا إطلاق ثورة حقيقية في التعليم الديني تخلص الجيل من ثقافة الكراهية التي نلقنها من حيث لا نريد للجيل الجديد بوصفها تمسكاً بالدين وعزيمة في اليقين.

وحتى لا نتهم بالتحامل أو الكلام المرسل فأرجو أن يعدَّ هذا المقال توصيفاً لكتاب الشيخ ابن تيمية البالغ الشهرة: "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم"،

وهو من أكثر كتب السادة السلفية تداولاً واعتماداً، ولا تخلو منه مكتبة ولا معرض كتاب، ويعدُّ تلخيصاً لكتب العقيدة عند السلفية على اختلاف توجهاتهم، ويتم تداوله على أساس أنه أوثق كتب العقيدة وفق المذهب السلفي، ويمكن عدّه مستمراً في أكثر من مئة كتاب من بعده.

يبدأ تلقين الجيل ثقافة البغضاء استناداً إلى حديث مشهور قوي السند، ونصّه: "أوثق عرى الإيمان الحبُّ في الله والبغض في الله" ومع أنّ هذا الحديث لا يشبه ما في القرآن من دعوة المحبة، ولكن يمكن تأويله بأنَّ المقصود هو بغض الأعمال السيئة من الإجرام والقتل والفحشاء فهذه أشياء ينكرها المسلم ويبغضها كما يبغضها كلُّ عاقل في الدنيا.

ولكن ثقافة البغضاء التي يتم تلقينها عن عمد لا تنصرف إلى كراهية الأعمال السوء بل تتخذ طابعاً شخصانياً يلزم المسلم بمواقف محددة في الكراهية وعدُّ ذلك غيراً على الإسلام وأهله وتمسكاً صادقاً بشعائر الإسلام.

ودون أدنى مبالغة يتلقى المسلم أولاً وجوب بغض الكافرين في الله، وفيما كانت كلمة الكافر في التنزيل تعني العدو المحارب، فقد صارت تعني البشر كافة من غير المسلمين، وتستلزم استنكار أديانهم وعاداتهم وأعيادهم، وتخصيص خطب الجمعة في تزييف كتبهم وأديانهم وشعائرهم ووجوب بغضهم في الله، وعدِّ ذلك دعوة إلى الله ودفاعاً عن دينه، ولا شك في أنّ إصرار غلاة السلفية على تعليم الكراهية لغير المسلم لا يمكن وصفه بأقل من المرض النفسي، وهو أمر مرفوض عقلاً وخلقاً وفضرة، وفيه إساءة ظن كبيرة بالخالق سبحانه الذي يخلق الخلق باستمرار فاشلين خائبين، مستحقين لجههم ولا يأذن لنا بجههم واحترامهم.

وهو يتناقض مطلقاً مع ثناء القرآن الكريم الواضح والجلي للصالحين من البشر والثناء تحديداً على كونهم قسيسين ورهباناً في الجانب المسيحي، أو ريبين وربانيين ومرتلين من أهل الكتاب، فهؤلاء في القرآن الكريم محل ثناء واحترام وهم يعتمرون عماماتهم الدينية ويضعون رموزهم وتقاليدهم عليها، وحتى لا ينحصر الظن بأتباع ديانة واحدة فإنَّ القرآن يؤكد أنَّ النبوات كثير، وكلها محل احترام ﴿مَنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]

ومع أنَّ غير المسلمين يشكلون 78% من سكان الكوكب، ولكن ثقافة الكراهية لا تنتهي عند هذا، بل يلتفت الخطاب السلفي المتشدد ليدرج في مناهج التعليم وجوب كراهية الفرق والطوائف من غير أهل السنة والجماعة بعديها فرقاً ضالة مارقة وأنها ليست الفرقة الناجية، وأن هؤلاء وهم مئات الملايين من المسلمين لا يستحقون الحبَّ ولا العطف بل يستوجبون البغض في الله.

ولا تنتهي قائمة البغضاء عند هذه الحدود بل يتم استيراد سلسلة فتاوى توجب عليك بغض تارك الصلاة باعتباره محاداً لله ولرسوله، والتحذير من الإحسان إليه والتزويج إليه، وتوجب عليك الغلظة وتمعر الوجه كلما لقيته بعده كافراً مستحقاً لحدِّ الردة.

ثم تتصل قائمة البغضاء فتتناول كلَّ الوسط الفني من المغنين والممثلين والموسيقيين، ومن يستمع إليهم من المجتمع الذين يتم وصفهم تلقائياً بأهل الفاحشة والخنا والمياعة والخلاعة مهما كان الغناء ملتزماً ووقوراً وأخلاقياً.

وتتصل قائمة البغضاء لتتناول من النساء كلَّ سافرة ومن الرجال كلَّ من يرضى السفور، وعدُّ ذلك خروجاً عمّا علم من الدين بالضرورة على الرّغم من أنَّ الحجاب كله لم يرد في نصِّ قرآني واضح ولا في حديث صريح صحيح، ولم يرتب القرآن

الكريم ولا السنة أي حدٍ ولا عقاب على اختيار المرأة للسفور أو للحجاب، وإنما هو اختيار واستحسان ذهب إليه كثير من السلف على أنه أدب الإسلام الجميل. ودون أيِّ مبالغة فإنَّ من أوردناهم من الأديان والمذاهب والفئات المستوجبة للبغض يدفع الطفل المتلقي لثقافة الكراهية إلى كراهية أكثر من 95% من سكان هذا الكوكب على أقل تقدير.!

ومن المؤسف أنَّ المعلم الذي يلقي هذه الثقافة يستأنف حديثه بشروح طويلة عن المحبة بين المؤمنين ووجوب التواضع لهم والإحسان فيهم، ولكن ما قيمة المحبة التي لا تتسع إلا لخمسة بالمئة من الناس، وتتبعها ثقافة الكراهية اللازمة المتفجرة بالبغضاء لباقي البشر.

إنني أعتقد أنَّ ثقافة الكراهية لا تتصل بشيء من قيم الإسلام الأولى التي بشر بها الرسول الكريم، ومع أنَّه قاد بنفسه قيام الدولة في فترة تأسيسها، ولكن قلبه اتسع لنصارى نجران ونصارى الحبشة ويهود بني عوف والوثنيين من خزاعة وكتب لهم من الوثائق الطافحة بالود والاحترام ما يليق بخاتم الأنبياء رسول الرحمة والمحبة.

شخصياً أعتقد أن مسؤوليتنا في مواجهة ثقافة الكراهية يجب أن تكون قراراً صارماً نهائياً تتعاون فيه مؤسسات الفتوى والقضاء والتعليم والدولة، وألاً نسمح تحت أيِّ ذريعة بنشر ثقافة الكراهية ضدَّ الآخر المختلف مهما كان دينه أو عقيدته أو سلوكه الشخصي أو مظهره الخارجي.

نعم هناك فضاء ممكن لمسلم يفيض بالمحبة للعالم، يخالف ما اختاره التيار السلفي، ولكنه يوافق ما اختاره فلاسفة الإسلام وحكماؤه، وأئمة العرفان الصوفي الروحي فيه، وفقهاء الحقوق الإسلامية الدولية الذين باتوا في لجان الدستور والقانون في

الدول الإسلامية المستقرة، يؤمنون بحكمة الله في الخلق ولا يرون في اختلاف الأديان والأفكار والسلوك الشخصي إلا آية عظيمة من آيات الله يتدبر فيها المؤمن، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا فَجَهَنَّمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ وَسَّعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]

وحتى لا تنتهم بالمبالغة فإنني طرحت الأمر في صيغة أسئلة محددة وأعتقد أن أي تطبيق عملي لهذه الأسئلة على شريحة من طلبة العلوم الدينية سيأتي بالنتيجة نفسها.

### الأسئلة السبعة: مواجهة مع جذور ثقافة الكراهية

#### 1. ما حكم الهندوس؟

كفار يعبدون البقر، ومأواهم جهنم وبئس المصير 1000 مليون إنسان

#### 2. ما حكم البوذيين في نيبال واليابان والصين؟

كفار مشركون يعبدون الأصنام، ومأواهم جهنم وبئس المصير 600 مليون

#### 3. ما حكم الكونفوشيين والطاويين من أهل الصين؟

ملحدون لا يدينون بدين، ومأواهم جهنم وبئس المصير 1000 مليون إنسان

4. ما حكم اللادينيين الذين لا يؤمنون بإله ولا يعتقدون بأي دين؟

ملحدون كفر، حدّهم جهنم وبئس القرار 700 مليون إنسان

5. ما حكم أتباع الديانات الأرواحية والوثنية في أفريقيا وأستراليا وأمريكا

اللاتينية؟

عبدة أوثان وأرواح كفار 200 مليون إنسان

6. ما حكم النصارى في العالم؟

مشركون حرفوا أديانهم ويتخذون مع الله ولداً، ومأواهم جهنم 2000

مليون إنسان

7. ما حكم اليهود في العالم؟

أشرار يعبدون يهوه وهو إله مزيف ولا أمل لهم في خلاص ولا نجاة 20

مليون إنسان

وبالنسبة إلى الأصناف الخمسة الأولى، فالحكم الشرعي واضح وصريح: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ.

أمَّا الصنفان السادس والسابع فهم أهل كتاب فلا يقاتلون في الدنيا بل تؤخذ منهم الجزية عن يد وهم صاغرون ومأواهم جهنم وبئس المصير .

وأما المليار المتبقي فهم المسلمون، ولكن ينقسمون إلى 73 فرقة كلها في النار وتنجو فرقة واحدة!

ليس في هذه الأسئلة أي تكلف ولا في هذه الأجوبة أي مبالغة، وهو خلاصة الجواب الذي يقدمه لك أي طالب يدرس الشريعة ولا أتصور أن جواباً آخر يمكن أن تسمعه من أي منهم إلا في طريقة العرض والأسلوب، أما المضمون فيشبه أن يكون إجماعاً واتفاقاً!

وسيتحفظ بالطبع دعائنا الأذكىاء فيقولون إنَّ الحكم بكفرهم لا يعني الإساءة لهم بل يجب التعامل معهم باحترام، ولست أدري كيف يكون الاحترام وأنت مأمور بقتال خمسة أصناف منهم، وإجبار صنفين على أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ! ثم نقول احترام!

من المؤكد أن المسلمين ليسوا كذلك، ولا ينبغي أن نبالغ في جلد الذات، فمعظم الدول الإسلامية والشعوب أيضاً واقعية وبراغماتية وتشهد تعايشاً جيداً ومقبولاً، ويقدم رجال الدين في العادة خطاباً وطنياً واقعياً، والعالم مملوء بصداقات رجال الدين وابتساماتهم على المنصات وعناقهم ومغزلاتهم، وهذا كله صحيح وواقعي ولكن من المؤكد أيضاً أن التلقين الفقهي والعقدي في مدارس الشريعة عموماً هو هذا الفهم الإقصائي الذي شرحناه بالضبط دون أي مبالغة!

نحن بحاجة إلى نفص شامل لعقيدتنا في الآخر، ولإعادة تموضع في هذا العالم الذي يتحول تدريجياً بسبب هذه الأفكار المتطرفة إلى غابات متوحشة يسحق فيها الإنسان!

في هذا السياق يمكننا فهم تصريحات مريّة من زعماء غربيين سمعها المسلمون في السنوات الأخيرة، ومع أنّها تتحدث عن واقع ظاهر وحقائق تعليمية واضحة ولكن المسلمين تلقوها بغضب شديد وعدّوها مسامساً بالقدس وتنمراً على الذات الإسلامية، مع أنه يمكن فهمها في سياق نقدي إيجابي، ويمكن أن تقدم الإجابات البراغماتية المقترنة بمجهود الإصلاح للرد عليها.

ومن ذلك تصريحات (ماكرون) بأنّ الإسلام يعيش في أزمة، أو تصريحات (بوريس جونسون) بأنّ ظاهر النصوص الدينية في الإسلام شديد للغاية في التعامل مع الآخر المختلف دينياً، وقد لا تروق لأيّ مسلم هذه التصريحات ولكنني لا أعتبرها عدوانية وشريرة بقدر ما أعتبرها نقدية واجتماعية، وهي على كل حال تختلف عن تصريحات الساسة الأوربيين قبل قرن من الزمان مثلاً حين كان تشرشل يصرح بوضوح أنّ الإسلام يقود نضالاً رجعيّاً ضدّ الحضارة، أو تصريحات البابوات المتتابعة التي قادت إلى الحروب الصليبية واستمروا يطلقونها دون توقف من العصور الوسطى إلى القرن العشرين.

ولكنّ هذه المقالة ليست معنية بالعلاقات الدولية والإقليمية، رغم خطورتها وبؤسها، بل هي معنية بجانب أكثر دقة وهو جوهر العقيدة الإسلامية في الله تعالى، وهو بالنسبة إليّ بوصفي مؤمن الجانب الأكثر مسؤولية وقلقاً!

كبشر محدودي الخبرة فنحن على يقين بأن هذه المليارات التي أوردناها لا زالت تولد وتموت ك Kafرة منذ قرون، وهي لن تدخل في الإسلام، على الأقل في العقود القادمة، ومن المؤكد أن هذه الأجيال التي تتوالى ستعيش على أديانها وتموت عليها، والسؤال الآن هو: لماذا يستمر الله بالخلق وهو أعلم بمصائر الناس؟ أليس من الحكمة والعقل أن يتوقف عن الخلق لما يترتب عليه من ظلم أبدي بحق مليارات البشر؟

سيتناولك مباشرة ذوي الاتجاه السلفي بالسؤال الاستنكاري: ﴿قُلْ أَعْمَلُونَ لِلَّهِ يَدِينَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٦]

﴿قُلْ إِنْ أَنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أُمَّرَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]

وسيتلقون في وجهك سلسلة النصوص المعروفة ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَنْ إِلَى اللَّهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]

إلى آخر النصوص الغنية والغزيرة في الباب في السنة والكتاب.

يبدو لأوّل وهلة أن الصراع هنا بين العقل والنقل، بين النصّ والاجتهاد، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وأنّ التسليم والخضوع لأمر الله هو أول شرط الإيمان...

ولكنني لا أعتقد بأنّه بات صراع العقل مع النقل، أو صراع الإيمان مع البرهان، إنّهُ بكلّ تأكيد صراع النصّ والنصّ، وصراع البرهان والبرهان، وجدل التأويل في النصّ القرآني الكريم الذي وصفه الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب بأنه حمّال أوجه!

إن تصور الاستمرار في الخلق وزجّ الناس في السعير يتعارض بشكل حاد مع آيات قرآنية كريمة ودقيقة:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنِ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٦]

وإن تصور هذا الظلم الفظيع في خلق الناس ودفعهم لمصائرهم في النار يتناقض تناقضاً جوهرياً مع نصوص قرآنية كريمة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦]

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٦٩]

وإن اعتقادنا بأن الله تعالى سيرفض أعمالهم الصالحة وسيستنكر لما قدموه من تضحيات وإنجازات من أجل الإنسانية وخدمة للخلق وعمل صالح يتناقض تناقضاً حاداً مع آيات صريحة في القرآن الكريم تزيد عن خمسين آية في عدالة الله ورحمته وغفرانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران: ١١٥]

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يُشْرِكُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران: ١١٩]

وإن عقيدة قتال النَّاسِ حتى يدخلوا في الدِّينِ الحقِّ أو يؤتوا الجزية عن يد وهم صاغرون تتناقض تناقضاً حاداً ومباشراً مع عشرات النصوص القرآنية الكريمة:

﴿وَأَوْشَاءَ رَبُّكَ لَا مَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾  
[يونس: ٩٩]

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

لا يجوز الصمت على هذه التربية التي تعلمها المدارس ويتلقاها طلبتنا على أنها أوامر الله وإرادته وحكمته، وهي تحشو ثقافة الكراهية في نفوس الجيل بشكل مريع، وتنتج باستمرار أجيالاً من الناقمين على العالم من حولهم، والمسكونين بوهم التفوق على العالم، والمنتظرين ليوم تدين لهم فيه العرب وتذل لهم العجم، وتنقاد لهم الأمم.

وحين نفشل في مشروعنا الجهني هذا فإننا نتشفى بمواعيدهم في الجحيم فيسقون حميمها وغساقها أ كَمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ [النساء: ٥٦]

إنها تساؤلات كبيرة وخطرة، ولكنها في الواقع جوهر ما يعاينه المسلم اليوم من السقوط والخيبة، ولا يمكن تجاوز ذلك إلا بالوعي بأنَّ الخلق كلهم عيال الله، وأنَّ النَّصَّ الديني محض نور يرشد وليس قانوناً يحكم ولا قيداً يأسر.

عقيدتي بوصفي مؤمناً في أنَّ الحقيقة الكبرى هي الله، وكل ما سواه محل نقاش، وعقيدتي أنَّ الله هو الحق... وما دونه الباطل.

وكل اعتقاد يجعل الله ظالماً أو غادراً أو غاشماً أو لا مبالياً.

فهو اعتقاد سوء وجهل، ولو ورد في الكتب المقدسة كلها.

الله أولاً، ثم ما روي من كتب ونبوات ورسالات وحكمة.

## ثانيًا: ثقافة الجهاد

من المؤكد أنَّ الجهاد قيمة دينية عظيمة، وقد أمر بها القرآن الكريم في آيات كثيرة،

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:

١٩٠

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَمَا فَتَنَ﴾ [التوبة: ٣٦]

وخلال العقود الأخيرة صدرت دراسات عدَّة ذات اتجاه سلفي تعد الأصل في

علاقات المسلمين بغيرهم هو الحرب، وأن المسلمين مأمورون باستئناف الجهاد إلى

يوم القيامة، وأنَّ هذا الجهاد هو ما سيقودنا إلى عزة الإسلام وكرامته، وأنَّ أيَّ إلغاء

لدور السيف في الدعوة هو لون من الهوان والخضوع للمشركين ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ

وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]

وما يزال النصُّ الأكثر شهارةً في المدارس الدينية هو الحديث المنسوب إلى النبي

الكريم برواية أبي هريرة: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد

رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم

وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله".

وفي الواقع فإنَّ هذا النص لا يخرج عن سياق العموم الوارد في نص القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غَاظَةً﴾ [التوبة:

[١٢٣

وقوله: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]

ولا شك في أنَّ ثقافة الجهاد بالمنطق السلفي الشائع اليوم في المجتمعات الإسلامية لا تسمح بازدهار المذهب الإنساني في الإسلام، فهو قائم على السلم والتشارك والإنسانية، وهي قيم تتناقض مع مفهوم الجهاد الذي يقدمه السلفية الجهادية اليوم صراعاً نهائياً مع غير المسلمين، وهو جهاد ماضٍ إلى يوم القيامة لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فكيف يمكن لدين يتمسك بخطاب الجهاد أن يؤسس لمذهب إنساني، وكيف يمكن الدعوة إلى مذهب إنساني والسيوف مبسوط في رايات المحاربين وعليه كلمة الشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهي رسالة واضحة بأنَّ السيوف هو من يحمي هذه العقيدة وينشرها.

وفي الواقع فإنَّ مواجهة ثقافة كهذه يمكن التعبير عنها من خلال النظر في التقسيم الفقهي الذي قام به الفقهاء للجهاد؛ إذ تم تقسيمه إلى نوعين:

### الأول: جهاد الطلب:

وهو قتال الناس ليدخلوا في الدين الحق، أو قل هو الدعوة إلى الله بالحوار واستعمال السيوف في وجه من يقف في وجه الدعوة، وفي الصيغتين فقد بات هذا اللون من

الجهاد غير مقبول في العصر الحديث، وباتت ثقافة الجهاد بهذا المعنى تحمل بعداً غير إنساني وغير قانوني ولا يمكن أن تكون مقبولة في أيِّ مكان من العالم.

وفي الواقع فإنَّ هذا اللون من التفسير للجهاد بات مرفوضاً إلى النهاية ليس على مستوى المفكرين والباحثين من تيار التنوير الإسلامي بل على مستوى الدول الإسلامية كلها، فقد التزمت الدول الإسلامية جميعها باتفاقيات الأمم المتحدة في احترام السيادة الوطنية والحدود، ولا يمكن على الإطلاق قبول جهاد الطلب تحت أي معنى، وأصبح هذا الالتزام دينياً واجب الطاعة تحت عنوان أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم.

بل إنني لا أتردد في القول إن هذه المسألة بالذات هي التي عبر عنها علماء أصول الفقه بباب الإجماع الناسخ للنص، فلا يوجد إجماع لذي رأي معتبر أوضح من هذا فقد أجمعت لجان التشريع في 57 دولة إسلامية هي البلاد التي فيها أغلبية مسلمة، وكذلك الجاليات في البلاد غير الإسلامية على وقف جهاد الطلب، والعمل بالقانون الدولي، وعنهم أخذت الحكومات الفتوى بترك جهاد الطلب ووقعت بناء عليه المواثيق الدولية، ولم يعد مقبولاً وفق علم أصول الفقه أيُّ عودة لجهاد الطلب الذي قبله القدماء.

وهذا يسمى عند عدد من الفقهاء نسخ النص بالإجماع، وله نظائر عدة في الموارث بخاصة، وقد أشار إليه من الأئمة ابن حزم والسوسي والشاطبي وغيرهم.

### الثاني: جهاد الدفع:

وهو الجهاد الذي شرحته الآية الأم في أمر الجهاد وهي قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190] وهذه الآية الجامعة مخصصة ومقيدة لما ورد في آيات الجهاد في مواضع أخرى؛ لأنها نص في موضوع الجهاد، وهي تحدد مناط الجهاد بأنه الدفاع عن الأمة، وهو مفهوم لا اعتراض عليه وتقوم به الأمم جميعها، وسبيل تطبيقه في وزارات الدفاع وقيادات الجيوش الوطنية، ولا يترك للفقهاء منه قليل ولا كثير بل هو شأن حكومي خالص تنظمه الاتفاقيات الدولية والوطنية.

ويمكن القول دون أي تحفظ: إن وجود جهاد الدفاع أو القوات المسلحة الخاصة بالدفاع هو أمر عادي في كل الدول ولا يتعارض في شيء مع المذهب الإنساني في الإسلام.

### ثالثاً: ثقافة تمجيد الفتوحات

قد يبدو إدراج ثقافة الفتوحات في باب تحديات المذهب الإنساني إشكالاً للقارئ الكريم، ولكن كاتب هذه السطور يتجه لعدّ الفتوحات برمتها نشاطاً سياسياً جرى في حقبة من التاريخ بشروطها وظروفها وتقاليدها، وكان بالإمكان أن يعامل كذلك، فهذا هو حال الأمم جميعاً منذ فجر التاريخ إلى زماننا هذا، ولا بأس أن يكون في

تاريخنا كما في تاريخ الأمم، فهذا سياق التاريخ نفسه وحكمه وقانونه، وقد أصبحنا اليوم في عالم آخر يحكمه القانون الدولي وحقوق الإنسان.

ولكن هذه الرؤية السردية للفتوحات لا تحظى بأيّ قبول في الشارع الإسلامي السلفي الذي يرى في الفتوحات بكل ما جرى فيها جهاداً عظيماً ونبيلاً، وتضحية من أجل الشريعة، وحين تمضي إلى التفاصيل يدهشك أنه يقوم بتبرير كل ما جرى في هذه الفتوحات من مظالم وكوارث، ويعتبرها ضرورة حقيقية لعزة الإسلام وكرامته، ويطلب دون تردد بوجوب إعادة حملات الفتح وتكريرها بوسائل العصر الحديث. ومن المؤكد أن تمجيد الفتوحات والمطالبة بتكرارها يعد موقفاً عدوانياً على المجتمعات المستقرة في العالم، بعد أن وافق الجميع على نظام الدولة الحديثة، وبات تغيير الحدود ممنوعاً في القانون الدولي إلا بوساطة اتفاقات ومعاهدات وشروط دولية دقيقة.

ويعد هذا اللون من الخطاب سبباً أساسياً في انتشار حمى الإسلاموفوبيا في العالم، وهو سبب التصريحات الكثيرة التي سمعها المسلمون من قيادات عالمية تحذر من الإسلام وتدعو إلى مقاومة حضارية عالمية ضد الإسلام.

فهل كانت الفتوحات في الحقيقة هي النمط الذي اختاره الإسلام لنشر الرسالة؟

وهل أنا بوصفي مسلماً مطالبٌ بأن نبرّر أعمال الفتح التي جرت في التاريخ وأن نعتبرها جهاداً مشروعاً في سبيل الله؟

وقبل الحديث عن تمجيد الفتوحات لا بدّ أولاً من النظر في موقف الرسول الكريم من الحرب، فهل كان بالفعل كما تصوره كتب السيرة مقاتلاً لا يضع سيفه عن عاتقه ولا يضني حصانه ولا يرهق سيفه، وأنه كان يجب أن ينتقل من غزو إلى غزو، وأنّه جعل رزقه في ظل رحمة، وأنه دعا المسلمين إلى الجهاد للحصول على الغنائم والوفرة واحتلال الأرض؟

للأسف فإنّ هذه المطالب التي ذكرها القرآن الكريم بأقصى عبارات الدم والتوبيخ لأولئك الباحثين عن الرزق والغنائم والمكاسب من خلال الجهاد تمّ تصويرها للمقاتلين على أنّها هدف مشروع وأنها إحدى مقاصد القرآن الكريم في الدعوة إلى الجهاد وأن الحرب ليست إلا مورداً مشروعاً للرزق الحلال، وبات من العاديّ جداً أن يقرن الواعظون مغنم الحرب في الدنيا من الأرض والمال والنساء بمغنم الحروب في الآخرة من الحور العين والولدان المخلدين، ولا شك في أنّ ذلك يتناقض تناقضاً تاماً مع أي توجه إنساني للشريعة التي باتت تأذن بتحصيل السعادة والغنى والثروة عن طريق نشر البؤس والفقر والشراد على الآخرين، وهو سلوك لا يوصف بأقل من كلمة سلوك متوحش لا يشبهه في شيء هدي الأنبياء ولا نور القرآن الكريم.

وفي السيرة النبوية فقد تعرّض النبي الكريم لمواجهة مع أعدائه ثمانية وعشرين مرّة في حياته الكريمة، ويدرس كتاب السيرة هذه المواجهات تحت عنوان الغزوات، وقد استقر العرف على دراسة السيرة النبوية تحت عنوان المغازي، وهو ما أعطى انطباعاً عاماً بأنّ الحرب هي طابع علاقات النبي الكريم بالناس من حوله، ولكن هذه النظرة

الحادة لا تفسر وقائع السيرة كلها، وبالدراسة الموضوعية لأحداث السيرة سنرى أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تمكن من منع وقوع الحرب في معظمها، أمّا المرات التي جرى فيها التحام حقيقي بين الرسول وأعدائه فهي خمسة أيام فقط فيما تمكن الرسول الكريم بدبلوماسية عالية وحكمة فريدة أن يوقف ثلاثة وعشرين حرباً كانت وشيكة الوقوع.<sup>44</sup>

وكان إذا جاءته كتائب قريش للحرب يقول: "يا ويح قريش! لقد حمشتهم الحرب، وماذا عليهم لو خلوا بيني وبين العرب فإن أصابوني كان الذي يريدون وإن أصبت منهم قاتلوا وبهم قوة، والله لا يدعونني إلى خطة رشد يعظمون فيها حرمان الله إلا أجبتهم إليها!

وهكذا فقد كانت الغزوات تنتهي عادة بالتصالح أو التحالف والتعاقد، ولم يقع الالتحام الحربي بينه وبين أعدائه إلا خمس مرات وهي تحديداً أيام بدر وأحد وخيبر وحنين، وما جرى يوم قريظة والمصطلق.

ومن المؤكد أنّ هذه الأيام الخمسة فرضت على النبي الكريم فرضاً ولم يكن يسعى إلى الحرب وفق ما قاله للصحابة بوضوح: "لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا"<sup>45</sup>، وهو ما يفسر المعنى الدقيق لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]

<sup>44</sup> جميع ما نورده هنا من الأخبار في السيرة مقتبس من سيرة ابن هشام وسيرة ابن كثير، وحيث نقل من سواهما فإننا نحيل إلى صاحب الرواية.

<sup>45</sup> البخاري، محمد بن اسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، الحديث برقم 1742.

وفي إشارة سريعة لأيامه الخمسة، فقد وقعت معركة بدر عند ماء بدر في أراضي منطقة المدينة قريباً من البحر فيما سار جيش قريش بألف محارب مسافة 282 كم لمحاربة النبي الكريم، ولم يكن أمام الرسول الكريم إلا المواجهة وقد كتب له الله تعالى النصر المبين.

أمّا معركة أحد فقد وقعت في جبل أحد على مسافة 6 كم من وسط المدينة فيما سارت قريش بثلاثة آلاف محارب مسافة 430 كم ولم يكن أمام الرسول الكريم إلا الدفاع عن المدينة، وقد دفع سبعون شهيداً من الصحابة الكرام حياتهم ثمناً لدفاعهم عن دينهم وأرضهم.

وفي يوم الخندق وصلت قريش بعشرة آلاف مقاتل؛ لاجتياح المدينة، وقد قام الرسول الكريم بحفر الخندق حول المدينة إصراراً على تجنب الحرب، وهو عنوان واضح على إرادته الجامحة نحو السلم ورفضه للحرب.

وقد أثار هذا المشهد حمية المشركين الذين أخذوا يستفزون المسلمين بالدعوة إلى الحرب وتعييرهم بالجبن والخوف، وألقى شعراؤهم قصائد التحدي والاستفزاز ليشعلوا الحرب، ولكن رسول الله ظلّ كارهاً للحرب وأمر الصحابة أن لا يردوا بشيء على استفزازات قريش، وظل صامتاً خلف خندقه ينتظر نهاية الحرب.

أمّا يوم خيبر فقد كان مواجهة استباقية لكيد يديره الكائدون لغزو المدينة، وكان حصاراً واقتحاماً لحصون منيعة انتهت بخسائر قليلة في الأرواح، وتمّ به تأمين حدود المدينة الشمالية.

أمّا يوم حنين فقد أغارت ثقيف وحلفاؤها بأربعين ألف مقاتل لاجتياح مكة بعد أن دخلها رسول الله بأيام قليلة ولم يكن أمام الرسول الكريم إلا الدفاع عن أرض مكة حرسها الله.

وأما يوم قريظة في أعقاب الخندق فلم يكن يوم حرب بل كان يوم قصاص، وقد عاقب رسول الله عدداً من المتآمرين على الدولة والناكثين للعهد، ولولا لطف الله لنجح مشروعهم الغادر في تأمين منفذ لقريش لاقتحام المدينة بعد أن عجزت عن اقتحام الخندق.

هذه هي الأيام التي وقع فيها التحام بين رسول الله وبين أخصامه، ولا يزيد الضحايا فيها جميعاً عن مئتين وسبعين من الفريقين، وفق أكثر الأرقام مقبولة وواقعية.

أمّا المعارك التي يذكرها المؤرخون وهي غزوات: ودان والأبواء والعشيرة وبدر الأولى وبواط وسليم وقينقاع والسويق وذي أمر وبحران وحمراء الأسد والنضير وذات الرقاع وبدر الآخرة ودومة الجندل والخندق ولحيان وذي قرد والحديبية وغزوة القضاء وفتح مكة وثقيف وتبوك، فجميعها لم يحصل فيها التحام حربي مباشر، ونجح الرسول الكريم في تحويلها لمعاهدات دبلوماسية أو مصالحات أو اتفاقيات عدم اعتداء، على الرغم من أن بعضها كان على وشك أن يصبح حرباً طاحنة كما في الخندق وتبوك والطائف.

وقد وقعت في هذه الأحداث بعض الأحداث الفردية، كما في المصطلق والخندق وفتح مكة وحصار الطائف، وهي لا تغير الحقيقة التي نشير إليها في أن الرسول الكريم نجح في تجنب الحرب بمعناها الشامل ثلاثة وعشرين مرة، وحوّل هذه المواجهات القاسية إلى برنامج هداية وسلام.

ويمكن القول دون أي تحفظ إنَّ هذه المعارك الأربعة قد وقعت جبراً لا خيار للنبي فيه، وأنه خرج منها بأقل الخسائر والأضرار، وأن تسميتها بالغزوات أمر لا مبرر له، بل إن كلمة غزوة لم ترد في القرآن الكريم أصلاً: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعَجَبْتَكُمْ كَيْفَ كُنْتُمْ كَائِمِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]

فلم يذكر القرآن الكريم كلمة غزوة، التي لم يكن غازياً بل إنه عُزِّيَ ثمانية وعشرين مرة وقد نجح في إطفاء أربعة وعشرين حرباً منها دون قتال.

ولكن هل استمر الأمر كذلك بعد رحيله؟ وهل كانت الفتوحات استمراراً طبيعياً لما سُمِّيَ بغزوات الرسول؟

تذهب هذه الدراسة إلى الاعتراض على ذلك بشدة، والتأكيد بأن الحروب التي خاضها الخلفاء بعد رسول الله كانت حروباً سياسية، يمكن تبرير بعضها ولا بد من إدانة بعضها الآخر، ولعلَّ موقف عمر بن الخطاب كان أكثر المواقف اعتدالاً فقد وافق على استمرار الحرب إلى تحرير الشام والعراق باعتبارها أرضاً عربية تخضع لاحتلال، فيما أمر بالتوقف بعد ذلك وقال بصراحة: "ليت بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم" وكذلك منع الانسياح في البحر ولم يوافق على غزو مصر، وقال: "وددت أن الأرض بيننا وبين الروم حمرة لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم".

ولكن الفتوح اندفعت بعد الخليفة عمر في سياق حربي طاحن، وتجاوز المحاربون أراضي العرب التاريخية في الشام والعراق وتحوم مصر واندفعوا في حروب طاحنة في

الشمال الأفريقي وصولاً إلى الأندلس وفي الشرق الإيراني وصولاً إلى السند وتخوم الصين، ومن المؤكد أن هذه الحروب لا يمكن فهمها أبداً في سياق الدعوة إلى الله فقد كانت جيوشاً وملاحم وفيها قطع رقاب ونحر أعناق، وكانت الحروب تنتهي بفرض الجزية وليس بإسلام المغلوبين، ولا شك في أن ذلك يمثل انتهاكاً صارخاً للروح الإنسانية التي أمر بها القرآن الكريم في آيات كثيرة: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢]

وكذلك في الآيات المتكررة: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝﴾ [الأنعام: ١٠٧]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ۝﴾ [الإسراء: ٥٤]

ويبدو هذا الكلام غريباً فهو يأتي في سياق مناقض لما تعودناه من التمجيد بالفتوحات، وتقديم الفاتحين في صورة القدوة للجيل وعدّ بطولاتهم مجداً للإسلام والمسلمين.

ولا تخفي هذه الدراسة توجهها في نقد الفتح الإسلامي، نقداً يتطابق تماماً مع هدي الخليفة الراشدي (عمر بن العزيز) الذي كان له موقف واضح من الفتوح، لم يكن يكتمه من قبل وهو مستشار للوليد وسليمان، فلما آل الأمر إليه أمر من فوره بوقف الفتوح الإسلامية وبدأ مراجعة واسعة للفتوح في مشروعيتها وممارساتها وآثارها ونتائجها.

وكان عمر بن عبد العزيز من أشدّ النَّاسِ كراهية للحرب، وكان على خصومة شبه دائمة مع (الحجاج بن يوسف الثقفي) الذي كان أشهر قادة بني أمية وأشدّهم بطشاً وفتكاً، وكان لا يكتفم موقفه المطالب بعزله ومحاسبتها، وقد صرح بذلك مراراً

للخلفاء الوليد وسليمان، وفي مجالس مختلفة، حتى قال لهم: "يا معشر بني أمية، والله لو جاءت كل أمة بذنوبها وجئتم بالحجاج بن يوسف الثقفي لغلبتم سائر الأمم".

وكان يمثل داخل البيت الأموي الجناح المناصر لحقوق الناس والمدافع عن كرامتهم، وكان يجتهد في وقف المظالم، وقد ولي المدينة ست سنوات، واشتهر فيها بالعدل والرحمة.

كانت إصلاحات عمر بن عبد العزيز كثيرة ولكن ما يعيننا هنا هو موقفه من الحرب، وتعزيزه للدور الدبلوماسي وقد ظهر موقفه هذا في الواقع بعد أن تولى الخلافة عام 99 هجرية.

فقد أعلن من البداية أن الإسلام رسالة حكمة وموعظة وليس رسالة حروب وغزو، وأطلق سفراءه إلى الدول المجاورة يحمل مبادرات متعددة للحوار والدبلوماسية.

وفي رصد مهم من الجانب الأوربي لعصر عمر بن عبد العزيز كتب (ول ديورانت) في قصة الحضارة: "قرب عمر بن عبد العزيز إليه أتقى العلماء في الدولة، واتخذهم له أعواناً ومستشارين، وعقد الصلح مع الدول الأجنبية، وأمر برفع الحصار عن القسطنطينية وعودة الجيش الذي كان يحاصرها، واستدعى الحاميات التي كانت قائمة في المدن الإسلامية المعادية لحكم الأمويين"<sup>46</sup>

<sup>46</sup> ول ديورانت، قصة الحضارة ج 22 ص 432.

وخلال الشهور الأولى من خلافته يمكن رصد تطور الأمور بوساطة الجبهات الثلاثة:

### وقف الحرب في القسطنطينية:

ففي الشمال كان المسلمون يحاصرون القسطنطينية، وكان هذا الحصار يستهلك خزينة الدولة؛ إذ يشارك به كبار أمراء بني أمية، وعلى رأسهم (مسلمة بن عبد الملك) وهو شقيق الخلفاء الأربعة، وكان الحصار يتم على الجانب الآسيوي من القسطنطينية؛ إذ أدى الحصار الطويل إلى ترهل كبير في الأداء ونفقات هائلة في العطاء.

كما كان هناك جيش آخر يحاصر القسطنطينية من جهة البحر بقيادة (هيرة بن عمر)، ولا شك في أن نفقات هائلة كانت تلزم الدولة الانفاق على الجيشين في حصارهما المرير للقسطنطينية.

ومن المعلوم أن حصار القسطنطينية بدأ مبكراً؛ إذ ذهبت أول حملة لفتح القسطنطينية أيام (عثمان بن عفان) وشارك فيها (أبو أيوب الأنصاري)، فهي مستمرة إذن منذ نحو سبعين عاماً، وهي ترتبط عادة بحديث منسوب إلى النبيّ الكريم يثني فيه على فاتح القسطنطينية وهي بشارة النبيّ الكريم لفتح القسطنطينية وقد تمناها كل واحد من قادة الفتح: "لنفتحن لكم القسطنطينية، فنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش".

وقد كان الوجود العسكري في الشاطئ الشرقي للقسطنطينية مع غياب المشروع الحواري سبباً في تكتل الدول الأوروبية ضدَّ الوجود الإسلامي، وقد أسس ذلك لتعاون بين الممالك المتعادية في أوروبا الشرقية من بلغار وبلقان ويونان للتعاون في ضد المسلمين، وكان ذلك يشكل من وجهة نظر عمر بن عبد العزيز انتكاسة حقيقية لجهود المسلمين في نشر الدعوة والسلام في الأرض.

وأدرك عمر بن عبد العزيز أنَّ الحصار ليس السبيل المناسب لفتح القسطنطينية، وأن ظروف الفتح العسكري غير متوفرة، وأن الفتح يمكن أن يتحقق من خلال الدبلوماسية والحوار والحكمة والموعظة الحسنة، وقرر وقف الحرب على القسطنطينية.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة بن عبد الملك يأمره بالقبول وكان يحاصرها من جهة البر، كما كتب لهبيرة بن عمر وكان يقود حصاراً بحرياً على القسطنطينية وكان معه مقاتلون من مصر وليبيا، وأمره بالانسحاب على الفور والحضور لدمشق.

وكان فتح القسطنطينية يتم بدوافع انفعالية غير واقعية، ولم تكن هناك مصلحة حقيقية للمسلمين بالاستمرار في حصار القسطنطينية، ولا توجد مؤشرات حقيقية على قدرة المسلمين على دخولها أو بسط السلم فيها، وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر بغزو القسطنطينية وحشد لها قوات كثيرة وأنفذ أخاه مسلمة لفتحها، وظلت قوات مسلمة تحاصرها مدة سنتين لاقت فيها مصاعب كثيرة دون أن تفلح في تحقيق هدفها، واستنزفت بذلك أرواحاً وأموالاً طائلة دون جدوى.

وكان سليمان بن عبد الملك مصرّاً على فتح القسطنطينية ولكن ذلك لم يكن واقعياً على الإطلاق وقد اشتد الضنى على المحاصرين، واشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع.

ولجّ سليمان في أمر الفتح، لا يرضى أفولهم حتى يفتح عليهم، فكان ذلك يغمّ عمر، الذي صرّح بوضوح إن الحصار غير واقعي، وهو إيراد للنفوس في المهالك، وإنفاق للمال في المسالك، ولا يزيد الناس عن الإسلام إلا بعداً.

فلمّا ولي رأى أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عزّ وجلّ شيء من أمور المسلمين ثم يؤخر فعله ساعة، فذلك الذي حمّله على تعجيل الكتاب، وقد وجه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين.<sup>47</sup>

وبالفعل فقد رفع المسلمون حصار القسطنطينية وعادت الجيوش إلى الشام، وبدأ عمر برنامجاً دبلوماسياً لبناء علاقات حسن جوار مع الروم في بلاد الأناضول وعلى تخوم القسطنطينية.

وجاءت الأيام بصدق ما فعل عمر بن عبد العزيز؛ إذ لم تكن أيّ ظروف واقعية متوافرة لهذا اللون من الفتح، وكان علينا أن ننتظر سبعة سنة أخرى حتى تتوفر الظروف لمحمد الفاتح في استئناف فتح القسطنطينية من جديد.

<sup>47</sup> ابن الأثير، عز الدين علي بن ابي الكرم، الكامل في التاريخ، ج 18 ص 40.

## إصلاح واقع الأندلس:

كان قرار عمر بن عبد العزيز الخروج من الأندلس! ولا شك في أنّ قراراً كهذا كان يمثل استراتيجية ثورية في سياق الأحداث وتطوراتها، ولم يكن من السهل إقناع الناس بمبدأ عمر بن عبد العزيز في وقف الحروب وفتح الحوارات وخطوط الدبلوماسية، ولكنه مضى في موقفه هذا وأرسل والياً جديداً على الأندلس وهو (السمح بن مالك الخولاني)، وعهد إليه بإخلاء الأندلس من المسلمين.

ومع أنّ عمر لم يتمكن من سحب الجيوش من الأندلس لأسباب موضوعية ولوجستية ظاهرة، ولكنه أدخل إصلاحاً جوهرياً فيها حين رفع عنها تبعية الشمال الإفريقي، وقرر أن أمراءها يرسلون من الخلافة مباشرة، ووطأ لقيامها دولة مستقلة، وهذا بالفعل ما حصل بعد 36 عاماً حين وصل إليها عبد الرحمن الداخل وأسس لدولة إسلامية أندلسية مستقلة تعنى بشؤون أوروبية بحثة وتسهم في بناء القارة الأوروبية على أساس من قيم الإسلام.

## وقف الفتح في الشرق:

أمّا في الجانب الشرقي فقد كانت حملات قتيبة بن مسلم الباهلي قد بلغت تخوم الصين وفي عام 94 هجرية 714 ميلادية اشتهرت غزوات قتيبة في سمرقند وبخارى، مستأنفاً فتوحات الأحنف بن قيس وحذيفة بن النعمان في إيران، وقد اندفع قتيبة شرقاً، وقاتل أهل تلك البلاد قتالاً مريراً، ويروي الطبري وابن كثير سلسلة فظائع

مرعبة عن ممارسات قتيبة في الغزو والسلب والسبي والاسترقاق وإحراق المدن الممتنعة، وقد اشتهر ذلك في كتب التاريخ حتى اقترن اسم قتيبة بالأهوال والمظالم، حتى وصل إلى كاشغر داخل الصين الحالية اليوم، ولكنه لم يقاتل أهلها، واكتفى بمراسلة ملك الصين عبر وفد يرأسه هبيرة بن المشمرج، ولسنا ندري تماماً من هو ملك الصين المقصود أهو الإمبراطور XuanZong كزان زونغ الذي كان بالفعل حاكماً للصين آنذاك من أسرة تانغ وعاصمتها تشيان، أم كان حاكماً محلياً في تركستان الشرقية<sup>48</sup> (سينكيانغ) وفي القصة أن المفاوضات انتهت بشكل ودي بين هبيرة والملك الصيني، وزوده بهدايا نفيسة لقتيبة، كما أرسل له بعض تراب الصين ليبرِّقسه الذي أقسمه أن يطأ أرض الصين، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

ولكن هذه الانتصارات لم تبد ذات بال في رأي عمر بن عبد العزيز وهي انتصارات يتلقاها الناس عادة بالابتهاج والتمجيد على أنها مظهر قوة الأمة وشموخها، وأنها تحقق انقياد الملوك إلى سطوتها وجبروتها، ولكن عمر بن عبد العزيز كان يراها في سياق آخر، وكان يرى هذا اللون من التحدي لا يخدم رسالة الهدى إلى الإسلام، وكان يراه مقدمة لإشعال الحروب، وأي فائدة للمسلمين أن يدخلوا في حرب مع أمة الصين العظيمة قد لا تنتهي بقرون طويلة.

ولم يكن عمر بن عبد العزيز قانعاً بحروب قتيبة، ولم يكن يكتفم موقفه من هذه الفتوح، بخاصة أن قتيبة كان من رجال الحجاج المقربين، وكان عمر بن عبد العزيز يتوعد الحجاج في مناسبات كثيرة، ويعدده طاغية غاشماً، وكان عمر يرى أن كثيراً من

<sup>48</sup> يرجح الباحث الصيني المتخصص بالعلاقات العربية الصينية لي هوا بينغ، أنه كان بالفعل الحاكم الصيني في تشيان العاصمة التاريخية للصين، وذلك في مقال له كتبه في مجلة الصين اليوم، بكين، توزيع المكتب الاقليمي بالقاهرة، عدد يناير 2007.

هذا القتال ليس مبرراً وكان يرى أنّ الحكمة والموعظة الحسنة تكفي في كثير من المواطن ولا حاجة للحرب.

وفي شهور قليلة من حكمه جمع عمر بن عبد العزيز اعتراضات السكان المحليين في آسيا الوسطى على طبيعة الفتوح التي حققها قتيبة بن مسلم الباهلي، ولم يكن يشارك الناس فرحهم بهذه الفتوح، فقد كان يرى أنها تتم على حساب مبادئ الإسلام في العدالة والحرية والإنصاف، واستقبل وفداً من رجال سمرقند الذين اعترضوا أشد الاعتراض على فتح قتيبة لبلادهم بالحرب والقوة دون إتاحة الفرصة للدبلوماسية والحلول الممكنة لتجنب الحرب.

وعلى الفور شكّل عمر بن عبد العزيز لجنة قضائية عليا لدراسة الفتوح التي وقعت في المشرق الإسلامي، برئاسة القاضي المعروف (جميع بن حاضر)، وانطلقت اللجنة القضائية إلى سمرقند لتسمع شكوى الناس وشهادات الشهود، وبعد شهور عدة استمعت فيها اللجنة لأطراف القضية من الأطراف كافة صدر قرار مبرم من الهيئة القضائية بأن الفتوح الذي قام به قتيبة بن مسلم لم يلتزم معايير الإسلام، وأنه تم عبر مباغطة وخديعة لا تلتزم أحكام الإسلام في السلم والحوار، وبنتيجة ذلك فإن الهيئة أمرت بسحب جيش قتيبة بن مسلم من سمرقند وما حولها خصوصاً.

كان فتح سمرقند قد تم قبل ذلك عام 92 هجرية والأرجح أن قتيبة قد مات عام 96 هجرية فيما ولي عمر بن عبد العزيز عام 99 ومع ذلك فإن مرور سبع سنوات

على الفتح، وموت قتيبة لم يؤخر عمر بن عبد العزيز على القيام بواجبه في تحقيق العدالة.

ومن المؤسف أن الرواة الذين يوردون هذا الموقف الشهير في خروج الجيش من سمرقند يوردونه في سياق حالة فردية، ولا يضعون الحدث في سياقه الطبيعي وهو المراجعة الشاملة التي قام بها عمر بن عبد العزيز لأحكام الجهاد، ووجوب وضع حد لمغامرات الجيوش في الغزو والفتح التي كان تبرر عادة بعنوان الجهاد، دون أن يناقش ما يدور في سياقها من مظالم ومخالفات وتجاوزات.

وفي الواقع فإن موقف عمر بن عبد العزيز في مناهضة الحرب ورفض الفتوح يمثل مذهباً إنسانياً فريداً حظي باحترام المسلمين، ولكنه ونظراً لقصر خلافة عمر بن عبد العزيز لم يصمد طويلاً؛ إذ عادت نشوة الحرب ومغامتها تدفع الخلفاء إلى التزبد من هذه الحروب، وربطها بالمقاصد الدعوية والتبشيرية للإسلام.

وتذهب هذه الدراسة إلى التأكيد بأن الفتوح الإسلامية هي حرب من الحرب فيها ما هو مبرر ومشروع للدفاع، وفيها ما هو بغي وظلم وعدوان، وليست هذه الدراسة مؤهلة للحكم على ما جرى من فتوح، وليست غايتها من هذه الدراسة، وإنما تهدف هذه الدراسة تحديداً إلى تحييد الفتوحات من مكانها في الذهنية الإسلامية كحروب مقدسة إلى مكانها في التاريخ كحروب سياسية، بغض النظر عن نتائجها وآثارها، وأن مكانها في ضمير المسلمين يجب أن يكون العبرة والنقد وليس التقديس والعصمة، وهو منطلق القرآن الكريم الذي قال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَآكَرَمًا كَسَبَتْ وَلَا تَسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]

ومن اللافت أن القرآن الكريم أورد هذه الآية مرتين متتاليتين باللفظ نفسه في صفحة واحدة وكان السياق نفسه أيضاً؛ إذ أورد الآية بعد ذكر أخبار الأنبياء والأولياء والمرسلين إبراهيم وإسماعيل وإسحق والأسباط وموسى وعيسى، وهؤلاء أنبياء ومرسلون وليسوا مجرد محاربين وفاتحين، ومع ذلك لم يرض منا أن نلتزم حياتهم وسلوكهم على سبيل الوجوب بل قال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَرَأَىٰ

كَسَبَتْ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥١﴾ [البقرة: ١٤١]

## رابعاً: نظام الحدود

التعذيب يهدر الكرامة الإنسانية، ليس فقط كرامة المتهم بل أيضاً كرامة الحاكم؛ لأنَّ هذا الأخير بتعذيبه إنساناً مثله يكون فاقداً معنى الإنسانية بكاملها.

فولتير

ولعلَّ أكثر ما يشكل في طرح المذهب الإنساني في الإسلامي هو أحكام الحدود القاسية، القائمة على تعذيب النفس، وفيها القتل والصلب والرجم والقطع وهي عقوبات شديدة وصارمة، ولا يمكن فهمها في سياق إنساني؛ لأنها لا تتجه لإصلاح الجاني وإنما لإتلافه كلياً أو جزئياً، ويتم تبرير ذلك عادة بأنه إتلاف للواحد وإصلاح للمجتمع وبذلك يتحقق المعنى الإنساني مآلاً وإن كان الظاهر التعذيب والقسوة.

فكيف يمكن تبرير هذا اللون من العقوبة في ظل مذهب إنساني؟ وهل يمكن القبول بنظام قضائي يمارس القتل والصلب والقطع والرجم في عصر تحولت فيه البشرية إلى العقاب الإصلاحي وتخلت نهائياً عن العقاب الجسدي؟

تتجه هذه الدراسة إلى التصريح بأنّ نظام العقوبات برمته نظام قابل للتطوير في الإسلام، وأنّ الإصرار على النمط الذي كان سائداً في تلك المرحلة من التاريخ لا مبرر له، ويمكن تجاوزه عبر دراسة أصولية مقاصدية تبقي على مقاصد الدين في قمع الجريمة ونشر الأمن، وتطور الوسائل القديمة التي كانت تستخدم في تحقيق ذلك.

ولا تذهب هذه الدراسة إلى مناقشة تأويل الآيات والأحاديث التي تتصل بنظام العقوبات، فهي تفضل فهمها كما فهمها السلف، ولا تنكر أنهم طبقوها كذلك، باستثناء الرجم الذي نكره لأسباب موضوعية وروائية مختلفة وسنشرح ذلك في فصل خاص، ولكن هذه الدراسة لا ترى أن تطبيق السلف لهذه العقوبات ملزم لمن بعدهم، وتؤكد أنه لو شهد السلف تطور الحضارة ووسائلها لسبقوا إلى تطوير هذه العقوبات باتجاه العقوبة الإصلاحية ولقاموا بتجاوز الشروط القديمة في تطبيق العقاب.

ومن الواقعي تماماً أن ننسب هذه الخطوة الجريئة إلى عهد متقدم في التاريخ الإسلامي، وبالذات إلى العمرين الجليلين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز. فقد اشتهر عن عمر بن الخطاب أنه أوقف تطبيق حدّ السرقة، وتوقف عن تنفيذ هذه العقوبة، وكان العنوان العريض هو عام الرمادة، حين اشتد الجوع والقحط فرأى عمر أن جوع الناس شبهة تدرأ الحد، وأمر بمنع القطع خلال عام الرمادة.

ولكن تتبع الرواية يكشف لك أن عمر أوقف العقوبات الجسدية كلها وبدأ التحول إلى العقاب الإصلاحية، على الرغم من نزعته الصارمة وشخصيته القوية، ولم نحصل على روايات قوية تثبت أن عمر أذن بشيء من الحدود فيما عدا القصاص والجلد، فقد توقف في عهده قطع السارق وصلب المحارب ورجم الزاني، على الرغم من القصة المشهورة أنه نادى بتطبيق الرجم وعدّه منصوصاً عليه في القرآن الكريم وهي مسألة سنناقشها كما قلنا قبل قليل.

ويوسعك التأكد أن العهد العمري الذي استمر عشر سنين وكذلك عهد عثمان من بعده لم يشهد أي حادثة بتر أو رجم أو صلب، وكان الجلد يطبق في إطار محدود فيما ظل القصاص بالقتل سائداً.

ونحن نعتبر أن هذا الموقف هو أول تحول للعقوبات الإنسانية في الإسلام وأول تخلص عن العقوبة الجسدية التي كانت مشهورة في العرب والعجم على السواء.

أما عمر بن عبد العزيز فقد أعلن عن إجراءات جديدة في مواجهة نظم العقاب الجسدي كلها بما فيه القتل قصاصاً؛ إذ أمر الولاة جميعاً بأن يتوقفوا عن تنفيذ أي حكم في الدماء إلا بعد عرضه عليه.

وبذلك فإنه أوقف العمل بالحدود إلا في إطار موافقة أمير المؤمنين نفسه، وعدّ أن القضاء في الدماء والصلب ليس من اختصاص القضاة المحليين وأنه يتوقف على تصديق الخليفة نفسه، ولا شك في أنّ ذلك زاد في هيبة الدولة وقلل من وقوعات الحدود.

وفي الحقيقة فإنَّ الإسلام في جانبه التشريعي كان يتماشى مع العرف، وكانت أحكامه التشريعية تتشابه مع الأنظمة السائدة في العالم، التي كانت تتقبل العقوبة الجسدية، ولم يكن هناك انتقاد محدد للإسلام في قضايا الحدود؛ إذ كان هذا اللون من العقاب معروفاً وسائداً في العالم كله.

وفي سياق مطالعة تاريخية لوقوعات الحدود الجسدية في التاريخ الإسلامي فإنني أنقل لك هذا النص من كتابي "العقوبات الجسدية وكرامة الإنسان":

كانت عقوبات الرجم والجلد والصلب معروفة تماماً في الحضارات السائدة وكانت تطبق في الإمبراطورية اليونانية الفارسية والرومية، وهو أمر لا يحتاج إلى دليل ويمكن القول إنَّ أوروبا ظلت تطبق هذه الأحكام إلى عهد قريب، وما زالت المقصلة بنوعيتها لقطع الرؤوس وقطع الأيدي وقطع الأرجل موجودة في المتاحف وبجوارها إحصاءات لا تنتهي من تطبيقات هذه الحدود.

ومن أدوات التعذيب التي اشتهرت في العصور الوسطى مقلاع الثدي وشوكة الهراطقة والمرشة الحديدية وكاسر الأصابع والمخلعة والتابوت الحديدي وعجلة كاترين ومهشم الرأس والإجاصة وكروسي المسامير والحمار الأسباني والنشر بالمنشار والخازوق والربط بالأحصنة والتعذيب بالجرذان...<sup>49</sup>. وهي أدوات تغني أسماؤها عن رؤية

<sup>49</sup> انظر الصور المربعة لهذه الأدوات في موقع مملكة الخوف.

<http://www.kabbos.com/index.php?darck=83>

أشكالها الرهيبة التي قام بها الإنسان بسحق أخيه الإنسان تحت عناوين حقوقية وقانونية ودينية.

وكانت الجزيرة العربية تعرف هذا اللون من العقاب الجسدي وقد مارست القبائل العربية هذا اللون من العقاب ومارسته كذلك القبائل العربية المختلفة، وفي مجتمع مكة والمدينة كان هناك رجم وقطع وصلب، وهو ما أقره الإسلام في نصوص قرآنية معروفة، ومع أن هذه الحدود قد أعلنت في القرآن الكريم ولكن تطبيقها ظل محدوداً وفي نطاق ضيق.

وشهد عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه تطوراً حقيقياً في قيام الدولة ويمكن اعتبار الفاروق منعطفاً مؤسساً للانتقال من عهد شبه الدولة إلى عهد الدولة؛ إذ كتبت في عهده الدواوين وفرض الخراج وصكت العملة واستحدثت السجون الإصلاحية، وقامت علاقات دبلوماسية جيدة مع دول الجوار ونصب اثنا عشر ألف منبر للإسلام وتم فتح المشرق العربي وخرج الاحتلال الفارسي من العراق والرومي من الشام، وتم بالفعل تجاوز عصر الجماعة إلى عصر المجتمع، ونجح في تحديد ملامح الحكم الإسلامي على معيار الدول واستحقاقاتها.

وفي عهد عمر توقف العمل بعدد من الأحكام التي كانت سائدة، وبخاصة الصلب والرجم وقطع اليد، وقد وردت أخبار متناقضة عن عمر بن الخطاب أنه أقرّ الرجم وأنه نهى عنه، وأنه أمر بقطع اليد وأنه نهى عنها، ولكن من المؤكد الذي لا خلاف

فيه بين المحدثين أن أياً من هذه العقوبات لم تستخدم في حكمه الذي امتد عشر سنوات.

وفي التاريخ الإسلامي فإنَّ التطبيق العملي لحدود الرجم والقطع والصلب كان ينحسر إلى حد بعيد عندما تستقر الدولة وتتعزز الحياة المدنية، وعدَّ موقف عمر بن الخطاب بمنزلة سنة متبعة في وقف العمل بهذه الحدود، وفرض عقوبات تعزيرية إصلاحية باستمرار، دون المساس بثبوت النص القرآني في القطع والصلب، أو ثبوت نص الحديث في مسألة الرِّجم.

والتأمل في جوهر التطبيق الحقوقي لهذه الأحكام سيكشف لنا عن مفاجأة صادمة، وهي أن الفقه الإسلامي العملي، وبالتحديد القضاء الشرعي قد توقف عن تنفيذ عقوبتي الرجم والقطع منذ أكثر من ألف عام، وأن الفقه الإسلامي تمكن بالفعل من مجازاة التطور الحقوقي العالمي بوساطة تقرير العقوبات التعزيرية الإصلاحية المختلفة، في حين أوقف وبشكل شبه كامل عقوبة قطع اليد وعقوبة الرجم، ولكن دون أن تظهر صكوك تشريعية واضحة في ذلك.

ويمكن القول إنَّ تطبيق هذه الأحكام قد توقف منذ اتخذ الحكم الإسلامي شكل الدولة، وهو شكل يفترض أنه لا يملك نزع التآر والانتقام، ويقوم مقام الراعي من الرعية، واستمر الأمر كذلك إلى ظهور حركات السلفية الجهادية وأهمها الحركة الوهابية الأولى في القرن الثامن عشر التي رفضت هذا الواقع وعدته تخلياً من الأمة

عن الشريعة وعموم ردة، وفرضت تطبيق حدود الرجم والصلب والقطع والجلد وفق ما كان قد توقف قبل ألف عام.

وهكذا فإن ما مارسه القضاء الشرعي الإسلامي نحو عشرة قرون كان يقضي بتجنب قطع اليد ورجم الزناة، ولم نسجل حوادث تذكر قام فيها الخلفاء بقطع أيدي لصوص أو رجم زناة، بل كانت العقوبة دوماً تذهب إلى التعزير؛ إذ يقرر ولي الأمر العقوبة المناسبة بعيداً عن القطع أو الرجم أو الصلب.

فما الذي جعل الأمة الإسلامية تعرض عن إقامة القطع والرجم والصلب أكثر من ألف عام حتى قامت الحركات الثورية الإسلامية بإعادة إحيائه من جديد؟

لا شك في أنه الوعي بمقاصد الشريعة والاستجابة لتطور الزمن، وإدراكهم بأن القرآن الكريم نور يهدي وليس قيلاً يأسر، وأن ما ورد فيه من أحكام جسدية في زمانه لا يلزم العصور جميعاً.

ولكن السلفية الجهادية اليوم تقدم جواباً مختلفاً، وهو أن الأمة أعرضت عن شريعة الله قروناً طويلة، وتركت الحاكمة واختارت الكفر والشرك، (ويشمل هذا الدول الإسلامية كلها القائمة كما يشمل الدول الإسلامية التي قامت تاريخياً كالأُموية والعباسية والحمدانيين والفاطميين والأخشيديين والطولونيين والسلاجقة والخورزمية والنورية والزنكية والأيوبية والعثمانية) وعطلت الجهاد والحدود ولا بدَّ من ثورة إسلامية جديدة لإعادة تطبيق شرع الله.

وفي العقود الأخيرة تطور الأمر إلى مستوى غير معهود وقامت الحركات الجهادية الجديدة بإعلان إحياء الجهاد وإقامة الحدود، وعدت العالم الإسلامي كله مرتداً أو بتعبير أدق قد دخل في عموم الردة، ويجب قتاله حتى يعلن الحاكمية ويبدأ تطبيق الحدود، وذلك تحت عنوان: عموم الردة وهو حكم يشمل أبناء الأمة الإسلامية كافة الذين لم يبايعوا أمير الجهاد، وعُدَّ المسلمون حكومة وشعباً مرتدين عن قوس واحدة؛ لأنهم أقروا دولهم على حكم وضعي كافر لا يستمد من كتاب الله وسنة رسوله، على حدِّ التعبير الشائع للحركات المتشددة<sup>50</sup>.

والسبيل الوحيد عندهم لعودة المجتمعات المسلمة إلى الإسلام الحق هنا هو الولاء والبراء، ومعنى البراء التبرؤ من كلِّ نظام أو حكم يحكم بغير الشريعة، والمقصود بالولاء مبايعة أمير الجهاد واللاحق به في قتاله للمشركين وإقامة الحدود.

والمقصود هنا بالشريعة تطبيق مرحلة محددة من السلف لها وهي تشتمل بالطبع على قتال الكفار (العالم كله بما فيه الحكومات الوطنية) حتى تنبذ التشريعات الوضعية وتقام الحدود.

وهذا بالضبط هو المستند الفكري الذي تقوم عليه الحركات الجهادية وطالبان والمحاكم الإسلامية في الصومال والجماعة السلفية للدعوة والقتال في الجزائر وتنظيم الدولة في الإسلامية في العراق والشام، وهو بالضبط ما بدأت الحركة الوهابية في انطلاقها الأولى قبل قرنين من الزمان.

<sup>50</sup> انظر كتاب معالم في الطريق لسيد قطب ص 158 وما بعدها.

ولكن فهم السلفية الجهادية لمسألة الحدود وإن كان واضح الدلالة في النص لم يكن متطابقاً مع مواقف المؤسسات الدينية في العالم الإسلام، وكان الفقهاء والعلماء يقدمون للدول الإسلامية المتعاقبة بدائل مشروعة للعدول إلى عقوبات إصلاحية ليس فيها قطع أو صلب أو رجم، وبدا خلال التاريخ الإسلامي أن حد القطع في السرقة وحد الرجم في الزناة والصلب وقطع الأيدي والأرجل من خلاف هي حدود زجرية أقرها المشرع الإسلامي الأول في إطار مواجهة الجريمة، في سياق ما كان شائعاً في العقوبة... ولكن تطبيقها توقف بشكل شبه تام مطلع التاريخ الإسلامي، منذ أعلن الفقيه المجدد الكبير عمر بن الخطاب سلسلة اجتهادات مهمة أشهرها: منع نكاح المتعة، ووقف توزيع غنائم الحرب ووقف قطع السارق ومنع تطبيق حد الرجم.

ومع أن هذه المواقف صدرت عن الخليفة عمر بن الخطاب باتفاق الرواة، ولكن الفقهاء عادة يعللون هذه المواقف الفقهية الجريئة بتعاليل مختلفة، وحول القطع يقولون إنه منعه في عام الرمادة، أما حد الرجم فقد عللوا عدم تطبيقه في حادثة المغيرة بن شعبة بأنه كان لعدم كفاية الأدلة مع أن الشهود أربعة، ومع ذلك فإن الرواة ينسبون إليه حديث الآية الضائعة: والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة.. ولكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا رواية قام فيها عمر برجم أحد.

على كل حال فإن تطبيق حد القطع أو الرجم كان نادر الحدوث، ولا نكاد نقف على حوادث تذكر في التاريخ الإسلامي.

وقد تم تطبيق القطع والرجم في عصر ما قبل الدولة، حيث الحكم لأعراف القبائل، وقد بدأ تنفيذ قطع يد السارق قبل الإسلام ونسب إلى اثنين: أبرهة الحبشي الذي كان يقطع يد المتأخر عن العمل والوليد بن المغيرة الذي كان قطع يد غلام سرقه.<sup>51</sup> وأما رجم الزانية فقد كان شريعة التوراة كما في سفر التثنية وقد طبقه بعض زعماء القبائل العربية قبل الإسلام وأشهرهم زعيم قبيلة أسد ربيعة بن حدار الأسدي وذلك أن امرأة منهم هويت رجلاً واحتالت حتى هربت إليه، ثم لقيها بعض بنينها فعرّفها ورفع أمرها إليه فأمر بوجمها فرجمت.<sup>52</sup>

وقد وردت روايات متعددة أن النبي الكريم قام بتطبيق هذا الحد مرتين في زمن الرسالة، ويقال إن الرجم وقع على ماعز والمرأة الغامدية، وإن كنت أستبعد حصول ذلك كله، ولو حصل فلا شك في أنه قبل نزول آية الجلد في الزنا في سورة النور.<sup>53</sup> وأما قطع اليد فقد ورد أنه وقع على المرأة المخزومية<sup>54</sup> وعلى سارق رداء صفوان بن أمية، وورد في حديث مرسل أن النبي قطع يد عبد الله بن الحارث، وهو أخو أم المؤمنين جويرية بنت الحارث زوجة النبي الكريم، وهي أحاديث مرسلة لا تصح سنداً، ومن المستحيل أن الرسول الكريم لم يجد شبهة يدرأ فيها الحد لسارق ثوب أو مجنة أو سارق بيض.

<sup>51</sup> المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 10 ص 321.

<sup>52</sup> المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 6 ص 91.

<sup>53</sup> سنأتي على تفصيل الأدلة وموردها في الفصل الآتي.

<sup>54</sup> انظر صحيح مسلم ج 3 ص 1311.

واشتهر عن عثمان أنه أمر برجم امرأة وضعت مولوداً لستة أشهر، وكان هذا التطبيق أحد الأمور التي أخذها الثائرون على عثمان بن عفان؛ إذ عدَّ تطبيقاً خاطئاً للحد، مع أنه كان تطبيقاً لظاهر نص إثبات التهمة بقريئة الحمل، وهو معنى دل له النص بوضوح، ولكن عثمان عدَّ متعجباً حين عدَّ الولادة قبل الشهر التاسع حملاً من سفاح.

وكانت هذه من أهم ما نغمه عليها الثائرون، وفي تاريخ اليعقوبي فيما نغمه الناس على عثمان أنه كان رجم امرأة من جهينة ولدت لستة أشهر، فأمر عثمان برجمها، فلما أخرجت دخل إليه علي بن أبي طالب فقال: إن الله عز وجل يقول: وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، وقال في رضاعه حولين كاملين، فأرسل عثمان في أثر المرأة، فوجدها قد رجمت وماتت.<sup>55</sup>

وقد وردت القصة عن عمر أيضاً ولكن الرجم لم يتم.

ولكن كتب التاريخ كلها تؤكد أن هذه الممارسة توقفت بشكل شبه تام بعد ذلك، ولم تكن في قرارات القضاة الشرعيين لأكثر من ألف سنة تالية، مع إعلان الدول الحاكمة في هذه الفترات الطويلة عن التزامها بالإسلام وتقديسها للقرآن الكريم وهدية وأحكامه، مما يعكس قناعة المسلمين الذين مارسوا بالفعل مهمة القضاء

<sup>55</sup> رويت القصة في الموطأ بلا إسناد (1561) وعند البيهقي في السنن الكبرى (15967) ورويت موصولة عند ابن جرير إلا أن في إسنادها محمد بن إسحاق وهو مدلس.

والحكم بأن هذه الحدود زجرية وترهيبية وأنها قابلة للتأويل والتطوير بما يلي حاجة الزمان والمكان.

وآخر مرة روي فيها قطع اليد على السارق كان قبل 1350 عاماً على يد الحجاج وهو رجل لم يتوقف عن ارتكاب الفظائع ولا يعتبر حجة في فقه ولا دين، وقال عمر بن عبد العزيز: "والله يا بني أمية، لو جاءت كل أمة بذنوبها وجتتم بالحجاج لغلبتم سائر الأمم!"

ولم نعثر في تاريخ الخلافة الراشدة والخلافة الأموية والعباسية على أسماء بعينها تم قطع يدها حداً، ولا لنساء حكم عليهن بالرجم وتم تنفيذ ذلك، مع احتمال أن يكون ذلك قد جرى ولم يتم تدوينه، وفي استعراض دقيق لأهم كتب التاريخ الإسلامي: تاريخ الأمم والملوك للطبري والبداية والنهاية لابن كثير والكامل في التاريخ لابن الأثير وتاريخ دمشق لابن عساكر ولابن منظور وتاريخ اليعقوبي وتحفة النظار لم أعثر على قطع يد واحدة تمت في حد السرقة في إطار قضاء دولة إسلامية محترمة، مع أن الرواة ذكروا عدداً من جرائم قطع اليد التي كانت لأسباب سياسية واضحة.

وهناك حادثة واحدة رأيتها نسبت إلى علي بن أبي طالب أن علياً رجم شراحة بنت مالك الهمدانية، ضربها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله، وقد لقي هذا الموقف اعتراضاً شديداً من الصحابة.<sup>56</sup>

<sup>56</sup> انظر البخاري باب رجم المحصن، وكذلك سبل السلام للصنعاني ج 5 ص 490.

أما المشهد الإسلامي الدولي اليوم، فهناك 57 دولة إسلامية توقفت بالكامل عن تنفيذ عقوبة الرجم، ولا يوجد أي دليل على تطبيق عقوبة الرجم منذ نصف قرن على الأقل في أي مكان في العالم الإسلامي، وتعد الوقوعات التي سجلت في نطاق حكم طالبان والمحاكم الصومالية وداعش مجرد ارتكابات جرمية، خارجة على القانون، لا تمثل أي حكم شرعي عند أي من الفقهاء؛ لأنها افتتات على ولي الأمر ولم تصدر عن قضاء صحيح، ومعظمها نفذ بلا قضاء أصلاً وإنما وفق هياج شعبي وقبلي لا علاقة له بالقضاء ولا الفقه.

وقد صدرت أعمال تلفزيونية عدة تشير إلى عقوبة الرجم ولكن لم يثبت أن هذا قد حدث في أي بلد إسلامي على الإطلاق.

وأما الصلب في الحراة فقد توقف تماماً كحد شرعي إلا في إيران؛ إذ لا تزال المشانق تنصب للمخالفين والخارجين على الحكم في إيران ولا شك في أن هذه الممارسات تواجه باستنكار شديد في العالم الإسلامي كله.

وأما قطع اليد فقد توقف بصورة شبه تامة في العالم الإسلامي كله، ولم يسجل منذ ثلاثين سنة في السعودية إلا أربع وقوعات قطع يد، وعدد أكبر في إيران التي تكتفي بقطع الأصابع، ولم يتم الإعلان عن أي عملية قطع يد في العالم الإسلامي كله منذ سبع سنين، ولا يبدو أنها ستتم في البعد المنظور.

وأما عقوبة الجلد فلا تزال موجودة في بعض البلدان الإسلامية وغيرها، وهي إلى انحسار، وقد ألغت الدول العربية كلها عقوبات الجلد منذ القرن الماضي، وقد استمرت اليمن والسودان وموريتانيا وإيران والسعودية نادراً، ولم تسجل حالات جلد

في السنوات العشر، وقد صدر عن السعودية مؤخراً نهي واضح عن استخدام الجلد كعقوبة، ووجوب التحول إلى العقاب التعزيري.

أمّا عقوبة القصاص بالقتل فلا زالت معتبرة في معظم الدول الإسلامية، كصك تشريعي، ولم توقع على اتفاقية الأمم المتحدة لإلغاء عقوبة الإعدام إلا خمس دول إسلامية هي تركيا وتركمانستان وكازاخستان وقرغيزستان وجيبوتي، ومع ذلك فقد امتنعت الدول الإسلامية عموماً عن تنفيذ القصاص أخذاً بالذرائع والشبهات التي أوصى النبي الكريم بدرء الحدود بها، ويمكن القول إن عقوبة الإعدام قد توقفت من الناحية العملية في دول الشمال الإفريقي؛ إذ لم يسجل أي وقوعات قصاص منذ خمس وعشرين سنة، ويمكن القول إن عقوبة الإعدام باتت في الدول الإسلامية محصورة في تلك الجرائم التي تثير الرأي العام لبشاعتها ولؤمها الجرمي، فيما لا تزال أربع دول إسلامية تمارس عقوبة القتل وهي العراق وإيران ومصر والسعودية؛ إذ سجلت في هذه الدول الأربع 88% من وقوعات الإعدام في العالم كله ما عدا الصين، وقد سجلت السعودية في عام 2020 تراجعاً كبيراً في وقوعات الإعدام السنوية؛ إذ انخفض التطبيق إلى الربع مما كان عليه في السنوات السابقة.

وهكذا يمكن القول اليوم إن العقوبات الجسدية عموماً قد تم تجاوزها في العالم الإسلامي في إطار القانون، وتم التحول إلى العقاب الإصلاحية بصور مختلفة، ووقعت الدول الإسلامية في مجملها على اتفاقية الأمم المتحدة على منع التعذيب

وهو ما يشكل تطوراً قانونياً واضحاً نحو إنهاء العقاب الجسدي من الناحية القانونية بعد أن توقف من الناحية الفعلية.

وتعتبر هذه الدراسة أن التطور الهائل الذي حصل على مستوى إلغاء العقاب الجسدي إنما تم بفضل الفقه الإسلامي المستنير، وقدرة الفقهاء على تقديم البدائل الشرعية المناسبة في العقاب وفق قاعدة تطور الشريعة وتغير الأحكام بتغير الأزمان، وإنني أتوق لتنظيم مؤتمر فقهي عالمي يصدر عنه بيان واضح بإنهاء العمل بالعقوبات البدنية كلها، واعتبار ذلك نجاحاً تاريخياً للفقه الإسلامي.

تبقى المشكلة مستعرة بالنسبة إلى رجال الدين الذين لا يوافقون أبداً على خطوات الفقهاء ويعدونّها خضوعاً للسياسة والسلطة، وعبئاً بالثواب الشرعية، ولا شك في أنّ لرجال الدين جمهور كبيراً في المجتمع الإسلامي ولكن لا يجوز أبداً أن ننكر حضور تيار الفقهاء المجددين أيضاً بخاصّة على مستوى النخب العلمية والثقافية وكذلك في أفق التنوير الديني الذي بات يسابق الفقهاء في اقتراح التطوير الملائم للشريعة مع الحياة.

وهكذا فإنّ التحول من العقاب الجسدي إلى العقاب الإصلاحي الإنساني بات أمراً ناجزاً في معظم البلدان الإسلامية، ويمكن بكل دقة أن نطلق عليه حكم الإجماع الشرعي؛ إذ تمثل الهيئات القانونية الرسمية في البلاد الإسلامية أوضاع صورة لاجتماع الفقهاء وإقرارهم، وبات ما يصدر عنهم بمنزلة حكم شرعي ملزم لكل مسلم، ولا عبرة لمخالفة رجال الدين واعتراضهم، وبات بإمكاننا أن نستنكر بشدة كل ممارسة

تعذيب جسدي في أي بلد إسلامي ليس على أنها مرفوضة حقوقياً ودولياً فقط، بل لأنها مرفوضة إسلامياً؛ إذ يعتبر الإجماع أحد مصادر الإسلام القوية، وقد اعتبره كثير من الفقهاء ناسخاً للنص القرآني نفسه وللجنة الصحيحة كما بيناه.

ومن البدهة أن نقول إن المذهب الإنساني في الإسلام يوافق بشدة هذا الإجماع الإسلامي ويستنكر سائر العقوبات الجسدية موافقة للإجماع الإسلامي، ويرفض كذلك عقوبة الإعدام دون تردد في كل الجرائم الموصوفة فيها إلا القصاص في القتل العمد، الذي لم يحظ إلا بالغاؤه بصيغة إجماع إسلامي، ومع ذلك فإن التيار الإنساني يسعى بالسبل كلها لإقناع الفقهاء بالتعجيل في إلغاء عقوبة الإعدام لأسباب وجيهة معروفة<sup>57</sup>.

ولكن الكارثة الأشد بؤساً هي قيام الدكتاتوريات العربية بممارسة صور الانتقام الوحشي والتعذيب كلها في سجون لا تخضع لقانون ولا رقابة، ولم يستح أن يقرر هذه الجرائم في قوانين يصادق عليها مجلس الشعب وتسمح للسجانين والجلادين بممارسة السادية المتوحشة ضدّ النزلاء في حماية القانون.

وفي هذا الجانب الأسود فلن يكون التيار الإنساني إلا عدواً للاستبداد وسيرفع صوته في كل مكان للرد على هذه الممارسات المتوحشة ولن يشفع لها تبرير بالدين أو

<sup>57</sup> راجع كتابنا في إلغاء عقوبة الإعدام، أساليب الشريعة في مناهضة عقوبة الإعدام، إصدار مركز الدراسات لبحوث الحضارة والتنوير، 2021.

الوطن أو المصلحة العامة، وسيشير إليها بوضوح كجرائم تامة وسيستمر في الطلب من محاكم الجنايات الدولية ملاحقة مرتكبي هذه الجرائم مهما صفتهم القانونية أو الرسمية أو الدينية.



## خامساً: التمييز ضدَّ المرأة

تعاني الأحكام الفقهية ضد المرأة من تناقض واضح، فهي توفر للمرأة حقوقاً استثنائية في جوانب ولكنها تمارس عليها وصاية قاسية من جانب آخر وتعاملها بصفة القاصر العاجز.

فهي في القرآن الكريم نبية تتلقى الوحي من الله كما في مريم وأم موسى، وليس فوق رتبة النبوة رتبة، وصفها بالنبوة ليس كلاماً نلقيه على عواهنه بل هو اختيار لعدد من أشهر الفقهاء المحافظين ومنهم ابن حجر والقرطبي وابن حزم، ومعنى وصفها بالنبوة أنها لا تصد عن رتبة في المجتمع لتوفر أهليتها للنبوة وتلقي الوحي وهي أعلى المراتب، ولكن هذا الأمر يصطدم بخيارات تمنع حقها في تولي المناصب العامة حتى على مستوى القضاء والشهادة، وهو موقف تمييزي يتناقض مع الروح العامة في الإسلام لجهة تكريم المرأة المنصوص عليها في الآية الكريمة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]

ومعنى ذلك حق المرأة أن تكون ولياً على الرجل، كما حق الرجل أن يكون ولياً على المرأة، وأن المؤهل هنا للولاية هو الكفاءة والقدرة وليس الجنس.

وفي محاولتي لمعالجة هذا الجانب كتبت كتاباً خاصاً بعنوان "المرأة بين الشريعة والحياة" تناولت فيه حق المرأة في الخلاص من التمييز وتحقيق المساواة التامة، وقد لقي هذا العمل قبولاً من الشارع الإسلامي وطبع حتى الآن ست طبعات، فيما تعرض لتنمر عنيف من الجهات الوصائية الدينية التي رأت فيه مساساً بالثوابت وعبثاً بالشريعة.

وقدمت قراءة سريعة لواقع المرأة المسلمة وتراجعها عن الأفق الذي بلغته في عصر الرسالة عبر فرض قيود صارمة من الحجاب في اللباس ومنعها من السفر دون محرم، وإغلاق كثير من الفرص في وجهها، واعتبار ذلك كله من المسلمات والثوابت.

نعم إن فرض النقاب على المسلمة بل فرض الحجاب عليها كما مارسته السعودية وإيران هو موقف لاإنساني، يلغي جريتها بالكامل ويجعلها أسيرة لوصاية ذكورية غاشمة، وإن فرض المحرم على المرأة في السفر هو موقف لا إنساني أيضاً وهو يهدر فرصاً كبيرة في التعليم والسياحة والحرية، وإن نظام الزواج والطلاق الذي تقرره قوانين الأحوال الشخصية يعاني من اختلال فاضح في المساواة وحقوق المرأة، وكل ذلك يتطلب اجتهاداً جريئاً يعيد للمرأة حقوقها وكرامتها الإنسانية.

إن النظر إلى المرأة على أنها محض عورة وعيب، يشكل من وجهة نظري انتكاساً عميقاً لموقف الشريعة من تكريم المرأة، الذي جعلها في مكان النبوة، وأساء إساءة بالغة لكرامة المرأة وزجها في ركن مظلم من المجتمع يمنعها من تحقيق أي مشاركة عادلة أو واعية، كما أن فرض الحجاب سواء بالقرار القانوني الحكومي أو بالضغط المجتمعي يعدُّ لوناً من الإكراه مناقضاً بالمطلق لقول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

إن الفقه الإسلامي في صيغته المتقدمة ليس محض شرح للنص المقدس، بل هو جملة خيارات مفكري هذه الأمة في فترة صعود حضاري، وهو وإن لم يصرح بذلك، ليس متوقفاً في مورد النص، بل إن نشاطه يتصل بتخصيص النص وتقبيده وتقرير حقيقته

ومجازه، وتحقيق مناطه وتنقيحه وتخريجه، وتقرير اقتضائه وعبارته وإشارته، بل ونسخه والتوقف فيه، إضافة إلى فضاء الاجتهاد المطلق فيما سكت عنه النص.

وهذه الآفاق الواسعة مغيبة في الاجتهاد الاسلامي منذ قرون ولكنها لم تكن كذلك في فترة التألق الحضاري للأمة، وإذا أضفنا إلى ذلك إمكانية النص في ذاته لاحتمال الوجوه المختلفة، أمكننا حينئذ أن ندرك غنى الفقه الإسلامي الذي نتطلب منه الحلول في المرحلة الراهنة.

وإن إصرار هذه الدراسة على تلمس الحلول في الفقه الإسلامي، أو وفق أصوله، إنما هو نتيجة وعي بالعقل الإسلامي، وثقة بخيارات أئمة الاجتهاد في عهد الصعود الحضاري، وهذا الأسلوب. من وجهة نظري. هو الذي يحظى في الواقع بأكبر قدر من الاحترام لدى المرأة العربية المسلمة المقصودة أصلاً بهذه الدراسة.

إني لا أزعم هنا أنني أقدم مشروعاً نهضوياً متكاملًا للمرأة في المجتمع الإسلامي، فذلك ما تشترك فيه مئات الدراسات والبحوث، ولعلها بمجموعها لم ترتق لهذا الدور بعد، ولكنني أحاول أن أضع يدي على بعض المسائل الملحة في نشاط المرأة التي يبدو أنها تشكل رهقاً ظاهراً على مشاركة المرأة في الحياة، وهي بشكل أو بآخر تنتمي إلى الفقه الإسلامي.

وربما كان مهماً هنا أن أشير أن هذه الدراسة فريدة من جهة أنها تصدر عن منبر المسجد لجهة تحرر المرأة وتوثبها ووجوب تخلصها من التخلف، وهي الأزمة التي

طالما كنا ننفيتها ونؤكد أن المرأة لا تعيش أي حاجة للتحرر، وأنَّ تمام تحررها في دوام انعزالها وغيابها عن الحياة، وأن تحرر المرأة مرادف لانحرافها وشرودها.

وأجد نفسي من البداية مضطراً إلى الاعتذار للمرأة؛ ذلك أن هذه الدراسة تناولت بإسهاب مسائل تتصل باللباس والزينة والنظر وهي هموم تقزم في الواقع روح المرأة وآمالها التي تتجه إلى أرحب الآفاق، فيما قصرت هذه الدراسة في طرق جوانب بالغة الأهمية في حياة المرأة كالثقافة والتربية والفن، وعذري في ذلك أن المرأة تنتظر من الفقه الإسلامي بيان هذه المسائل، في حين لا يناع أحد بعدئذ في مواهب المرأة ودورها ومزاياها كقلب وروح ورسالة.

إن مسحاً سريعاً للأحداث الكبرى التي تعيشها المرأة في العالم الإسلامي يكشف لك عن التفاوت الهائل الذي تعيش المرأة ظروفه أو يفرض عليها تحت عباءة الشريعة.

في أفغانستان أصدرت حكومة "طالبان" قراراً يقضي بإغلاق مدارس البنات؛ سداً لذريعة الفتن، وأمرت المرأة الأفغانية بلزوم بيتها، وصرفت الموظفات كافة بقرار واحد، والأمر نفسه تكرر مع الإمارات الإسلامية في الشمال السوري، ولكن في الوقت نفسه تم تعيين السيدة ابتكار معصومي بمنصب معاون رئيس الجمهورية في إيران، أما (ميغاوتي سوكارنو) فقد فازت بمنصب الرئيس في أندونيسيا أكبر بلد إسلامي، وتم انتخاب السيدة (بنازير بوتو) في باكستان لمنصب رئيس الوزراء وهو من الناحية العملية أعلى سلطة تنفيذية في ثاني أكبر بلد مسلم في العالم، وكذلك

أصبحت الحكومة والمعارضة تحت قيادة النساء في بنغلادش وهي البلد المسلم الذي يزيد سكانه عن مئة مليون مسلم، وذلك كله في ظلال حكومات متجاوزة تعتبر الفقه الإسلامي المصدر الرئيس للتشريع، وتقوم بتطبيق أحكام الشريعة في أكثر قوانينها، ويشرف على تطبيق الشريعة فيها لجان متخصصة من علماء الشريعة الإسلامية ربما تخرج أعضاؤها من جامعة إسلامية واحدة!.

ويعكس هذا المشهد حقيقة التفاوت الهائل الذي عوملت به المرأة من جهة حقوقها وواجباتها في الغابر والحاضر.

ومن المؤكد أن هذا التفاوت الكبير ليس بدعاً في واقع الأمة، بل هو في الواقع المشهد ذاته الذي كان سائداً في التاريخ الإسلامي منذ أن أصبحت الأمة أكبر من (قريش) وحتى يومنا هذا؛ إذ كان الوعي والهمود يتطرحان باستمرار في مواقع متناوبة.

وللأسف فإنَّ خصوم المرأة المسلمة يعتبرون الطريقة الطالبنانية إزاء المرأة هي النمط الوحيد الملتزم بهدي السلف، مما يؤكد حتمية عزل المرأة عن الحياة العامة في الأدب الإسلامي، ووجوب إقامة مجتمع "ذكوري"، ويسعون عامدين إلى إخفاء الصورة الأخرى للمرأة المسلمة التي أصبحنا نألفها اليوم وزيرة ونائبة ومديعة وأستاذة جامعية وهي على أكمل صورة من العفاف الإسلامي الذي تأمر به الشريعة.

ومع أنني أتهم الفريق الآخر هنا بالانتقائية في الخيار التاريخي والواقعي، ولكنني لا أبرئ نفسي من هذه التهمة، وبحسبي أن أذكر هنا أن ما أختار المضى فيه من

رسالة المرأة ودفعها للمشاركة في الحياة العامة وإسهامها في البناء هو منهج كان وما زال أكثر جمهوراً ورفداً في تاريخ الأمة وحاضرها، بل هو أكثر إلزاماً بمقاصد النص المقدس وغاياته.

ومن أجل تقرير هذه الحقيقة فيني سأبادر في كل مسألة بالاعتصام برأي فقهاء التنوير في عصر المجد الإسلامي.

ويمكن قراءة هذا التفاوت من خلال رؤيتين شائعتين لدى الفقهاء:

الأولى: خير أحوال المرأة ألا ترى الرجال ولا يراها الرجال، وليس للمرأة أن تخرج من دارها إلا مرتين، مرة من دار أهلها إلى دار الزواج، والثانية من دار الزواج إلى القبر، ونعم الصهر القبر، عورة سترت ومؤونة كفيت... الخ، وهي صيغ ظلامية روجت للخنوع والعجز والوهن في المرأة المسلمة في عصور الانحطاط.

والثانية: امرأة في مجتمع النبي الكريم هي خولة بنت ثعلبة، تجيء إلى النبي شاكية أمر ظهار زوجها منها، فيفتيها النبي الكريم - وهو أعلى سلطة تشريعية وتنفيذية - بوجوب مفارقتها، فتشب المرأة منتصرة لحقوقها، وتجادل رسول الله، بعد أن أصدر فتواه، ولا تزال تجادل تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني!. وعندما كرر عليها فتواه عادت تقول مجادلة: إن لي صبية إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا.. وما زالت تجادل رسول الله حتى نزل فيها قرآن يتلى، وسورة سميت باسمها (المجادلة) ومطلعها: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]

وهكذا فإنه نتيجة موقفها الحر وإصرارها وحوارها وجدالها حتى مع صاحب الشريعة النبي الكريم نزل الوحي بتعديل الشريعة وتصويب رأي المرأة.

إنها امرأة أخرى بكل تأكيد، لا تشبه في شيء تلك المرأة المائتة المسحوقة التي يصورها لنا فقه الانحطاط رمزاً للعفاف والاستقامة.

### وقد أجملت الأهداف التي قصدها الكتاب في النقاط التالية:

- إظهار الأفق الواسع للاجتهاد لدى فقهاء عصر المجد الإسلامي، والتأكيد على أن النص جاء هدى ونوراً للفقهاء الإسلامي، وليس غلاً وإصراراً يحول بين الأمة وبين قدرتها على التشريع.
- التأكيد على طبيعة المجتمع الإسلامي في عصر الرسالة، وأنه أقرب إلى الفطرة في التسامح واليسر.
- الدعوة إلى اكتشاف ما في الفقه الإسلامي من غنى وثراء ونضج، ومقاومة المحاولات التي ترمي إلى اعتبار الفقه (غير السائد) فقهاً غير مقبول، وبيان أن الآراء الفقهية الغائبة قد تكون أكثر تناسباً مع الواقع من الآراء السائدة.
- مقاومة التشدد الذي يرمي إلى عزل المرأة عن الحياة وتجهيلها وبيان أن هذا المنهج الذي يضر بموقف المرأة هو أيضاً ضعيف الحجة في الفقه الإسلامي، وأن الخيارات التي تدعو إلى مشاركة المرأة وتفوقها أكثر حجة وأقوى دليلاً في الفقه الإسلامي.

- فك الارتباط بين مسألة التحرر ومسألة اللباس؛ إذ ظلت منظمات كثيرة تتبنى فكرة ربط التحرر بنزع الحجاب، وهو موقف أساء إلى التحرر كما أساء إلى المرأة، وبيان أن التحرر مسألة تربوية ترتبط بالثقافة والتنوير وليس بالأزياء المختلفة.
- التأكيد على الغاية الحقيقية للباس التقوى وهي تحقيق العفاف الاجتماعي، والتأكيد على المسؤولية المشتركة للرجال والنساء في تحقيق هذا الجانب.
- التأكيد على أن الحجاب أدب إسلامي جميل، ترعّب فيه الشريعة، وليس ركناً من أركان الدين، وأن المرأة هي التي تقدر شكله ومداه، وتقرر أين يكون خماراً وأين يكون دثاراً وأين يكون رمز توجه للطاعة والعبادة.

ومع أنّ هذه المقاصد هي قدر مشترك بين قادة التيارات الإسلامي، ولكن يجب القول إن الأساليب التي ننتهجها للوصول إلى هذه الغايات قد لا تتطابق ضرورة وهو ما جعل عدداً من الأصدقاء يختلفون معي في الرأي في تقويم الكتاب وتقرير ما خالفني أو خالفني فيه التوفيق.

## الجحيم

لا خلاف أن الإيمان بالدار الآخرة هو أوثق أركان الإيمان، وقد ورد في القرآن الكريم أكثر من ألف مرة، وهو الحقيقة التي يقوم عليها الاعتقاد في الإسلام، ولا يوجد في مذاهب الإسلام من أنكر الدار الآخرة، فقد اقترن الإيمان بالله بالإيمان بالدار الآخرة، في الكتاب والسنة وسائر مصادر الشريعة.

ولكن الإيمان بالآخرة كدار عدالة وكرامة ولقاء بالمولى سبحانه وتعالى ينبغي أن يتأسس على العدالة الإلهية والكمال الإلهي، وكل تصور يستلزم الظلم والمكر من الله تعالى هو تصور لا يجوز حمله على ظاهره بل يتعين تأويله بما يليق بكمال الله تعالى وجلاله.

وفي سياق ذلك فقد بدأ الجدل في دلالات الآيات الكثيرة التي تحدثت عن العذاب الأبدي والحرق بالنار والزقوم والغسلين والحميم والسلاسل وغيرها من صور العذاب الموصوفة في القرآن الكريم بما لا يمكن إنكاره بوجه من الوجوه.

وتعدُّ آيات العذاب والجحيم مادة خصبة للوعظ الديني؛ إذ يعد من أكثر الوسائل تأثيراً على الناس، ويشتهر به خطباء مشهورون بتكريس ثقافة الخوف والخضوع، وما يصحبها من بكاء وعويل يزداد تلقائياً مع كل تفصيل جديد في أخبار العذاب والجحيم.

ولا شك في أن هذه النصوص الكثيرة تضعنا أمام سؤال مركزي وواضح: كيف يمكن ربط هذه الأشكال من العذاب القاسي المستمر دهوراً ودهوراً إلى الأبد مع النظرة

الإنسانية في الإسلام القائمة على ربط التشريع كله بسعادته الدنيوية والأخروية وماذا يتبقى للإنسان من سعادة إذا حكم عليه بعذاب الأبد إلى أبد الأبدین ودهر الدهرين؟ ومتى يتسنى لهذا الإنسان أن يحظى بالرحمة والحكمة من الخلق وهي الحكمة القائمة على إسعاد الناس؟

وكذلك أين هي الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء؟ وما ورد من عظيم رحمة الله ورحمانيته وغفرانه وعفوه وهذا كله لا يمكن أن يتطابق مع ظواهر النصوص؟

وفي هذا السياق نجد أنفسنا في تحدٍ كبير للمفهوم الإنساني في الإسلام الذي سيبدو في غير معنى، ولن تنفع فيه التبريرات التي يقدمها الواعظون فالعذاب الأبدي يتناقض تناقضاً كلياً مع غاية الخلق ومع أخلاق المولى سبحانه القائمة على العفو والغفران. وفي الحقيقة فإن الخطاب السلفي لا يلتفت مطلقاً إلى هذه التحديات والتساؤلات ولا يرى فيها إلا وهناً في الدين وعجزاً في اليقين وأنها هادمة للتوحيد، وأنّ الشك بهذه النصوص الظاهرة ما هو إلا شكل من الزندقة والردة أعادنا الله منها، وعلينا التسليم بظاهر النص كما فهمه السلف، ومنكره منكر لما علم من الدين بالضرورة وقد وقع في الردة وحده القتل.

أمّا الخطاب التأويلي فقد اختار أسلوبين اثنين:

الأول: الحديث عن قوانين مختلفة تحكم العالم الآخر لا تشبه عالمنا، فكما أدركنا على هذه الأرض أن هناك عالمين مختلفين تماماً: عالم المادة وعالم الطاقة، ومع أنهما متجاوران في الأرض ولكن لا يشبه أحدهما الآخر في شيء، وكل ما ترويه من

الطباع الفيزيائية للإنسان سيتغير تماماً لو تحول من مادة إلى طاقة، فحين ذلك لن يجده مكان ولا زمان، ولا يعني الحرق بالنار شيئاً شأن أي ذات تسير بسرعة الضوء وتحول إلى طاقة، وسيغدو في عالم مختلف تماماً، وفي هذا السياق يمكن القول إن الأمر متعلق بالغيب ولا يتعارض الإيمان بعدالة الله مع إيماننا بأن العذاب سيكون على هذه الأجساد بعد أن يكسبها الله فيزياء العالم الآخر، ولن يكون فيها ما يسيء إلى عدالة الله على الرغم من الدلالة الواضحة للنصوص.

الثاني: القول بالمجاز، وهو المجاز هو وصف النص القرآني بأنه يستعمل الرمز والمثل في الخبر عن الشيء ولا يراد به حقيقته، فتكون الآيات محض ميثولوجيا ورمز، يراد به التهويل والترهيب دون أن تكون الحقيقة مرادة، ومع أن السادة السلفية تقبلوا فكرة المجاز فيما يتصل بصفات الله، يد الله وعين الله ورجل الله وركض الله وهرولة الله، ولكنهم لم يتقبلوها قط في تأويل آيات العذاب.

وحين نذكر المجاز فلا بد أن نشير على أهم تجربة في التاريخ الإسلامي في التأويل بالمجاز وهي العمل الجليل الذي أطلقه اللغوي والمفسر (أبو عبيدة معمر بن المثنى) المتوفى 209 هـ في عهد مبكر في الإسلام وذلك في كتابه الشهير "مجاز القرآن"، وأسس بذلك مدرسة لغوية دقيقة في فهم النص القرآني والوقوف على ما فيه من وجوه البلاغة والإيجاز والمجاز والإطناب.

ولكن أهمية الكتاب لا تتوقف أبداً عند الجانب البلاغي، إنها من وجهة نظري تتصل بالجانب الأصولي والتشريعي للكتاب العزيز، وكانت جرأة بالغة من أبي عبيدة أن يقتحم هذا الباب ليعلم منذ القرن الثاني أن القرآن الكريم نص أدبي وأنه

ليس فقط يسير على نسق النصوص الأدبية بل هو يلهم الأدب العربي والبلاغة العربية كثيراً من فنونها، وأنه إذن ليس نصاً يعمل بظاهره وإنما يعمل بمقاصده ومراميه.

وفي هذا الكتاب الجليل يمكنك أن ترصد أكثر من مئة موضع قال فيها أبو عبيد: "والنص غير مراد، أو لا يصح اتباعه، أو لا يلزم منه الوجوب مع أن صيغته الوجوب، ولا يلزم منه التحريم مع أن صيغته التحريم".

لقد مرَّ هذا الكتاب على الأمة الإسلامية سناً وعسلاً وتقبلته الأمة المسلمة في ذلك العصر الحضاري؛ إذ كانت الدولة العباسية في فترة انطلاقها وكانت الدولة القائمة كما هو حال الدولة الإسلامية في العصور كلها دولة مدنية طبيعية، تنتج تشريعاتها وفق مصالح الناس، ولا بأس أن نعترف بأن مصالح الناس كانت في الواقع هدفاً تالياً بعد مصالح الحاكم، ولكن التشريع في النهاية كان سياق تطور مجتمعي يتحدد بحاجات المجتمع أكثر مما تحكمه نصوص سرمدية لا يأتيها المجاز من بين يديها ولا من خلفها.

ولكن فكرة المجاز في القرآن تعرضت لنقد شديد من قبل الفقهاء المعاصرين له واللاحقين بعد أبي عبيدة، بخاصة عندما أدركوا المقصود الحقيقي منها وهو إيقاظ العقل ووقف الاستغناء بالنقل، وكان (الأصمعي) يغضب كلماً ذكر له كتاب أبي عبيدة، أما (الفرّاء) فقد اشتد في نقده حتى طالب أن يضرب أبو عبيدة لمسلكه في تفسير القرآن، ورأى (أبو حاتم) أنه لا تحل كتابة «المجاز» ولا قراءته إلا لمن

يصح خطأه ويبينه ويغيّره وكذلك كان موقف (الزجاج)، و(النحاس)، و(الأزهري) منه.

وفيما بعد ظهر معارضون كثير لفكرة المجاز في القرآن واعتبار أن القول بالمجاز هو اعتراف بالكذب والقرآن مبرأ منه، ومن الذين أنكروا المجاز (أبو إسحق الاسفرايني) و(ابن تيمية) وفي عصرنا (ابن باز) و(ابن عثيمين) وقد كتب الشيخ السلفي (محمد الأمين الشنقيطي) كتاباً خاصاً بعنوان "منع جواز المجاز".

وقد رأى هؤلاء وغيرهم أن القول بالمجاز في القرآن الكريم مرفوض لأنه يستلزم بالضرورة منع التشريع بالقرآن لان نصوصه مجازية وغير واقعية واعتبروا ذلك هرطقة وردة.

ولكن ما اختاره أبو عبيد حظي باحترام عدد كبير جداً من الفقهاء في التاريخ فقد اعتمد عليه ابن قتيبة (ت 276) في كتابيه "مشكل القرآن" و"غريب القرآن" ونقل عنه البخاري (ت 255) في الصحيح، واعتمد عليه الطبري (ت 310) في تفسيره، والزجاج (ت 311) في معانيه، وابن النحاس (ت 333) في معاني القرآن، وكثير من الفقهاء في التاريخ.

ومن الأمثلة القريبة على المجاز في القرآن: عرش الله وكرسي الله ويد الله وعين الله وأذن الله وساق الله، وفي السنة: ضحك الله ومشى الله ورجل الله وهولة الله وشير الله وباع الله... وهي كلها مصطلحات متناقضة مع العقيدة في الظاهر وجماهير الفقهاء يرون صرفها عن ظاهرها واجباً شرعياً وإلا وقعنا في الشرك.

ومن المفارقة أن القرآنيين المنكرين للسنة يرفضون الاعتراف بالمجاز، وقد كتب الدكتور (الشحرور) في كتابه "الكتاب والقرآن" أن المجاز والترادف يحسنان في الشعر ولا يحسنان في القرآن، وأن القرآن خالٍ تماماً من المجاز ومن الترادف، وفي الحقيقة فإن هذا الرد ينسجم مع فكرة صمدية القرآن، فالنص الذي سيحكم في كل زمان ومكان لا يجوز أن يكون فيه مجاز ولا ترادف.

وبالطبع فإن النتائج التي وصل إليها القرآنيون من إنكارهم للمجاز لا تشبه في شيء تلك التي وصل إليها السلفيون من إنكار المجاز، وإن كان السبيل الذي سلكوه واحداً.

قناعتي أن موقف أبي عبيد الشجاع من المجاز ليس إلا تقريراً لحقيقة تحتاجها الأمة وهي احترام القرآن وإجلاله، والنظر في مقاصده وتجاوز ما دلت عليه ظاهر العبارة، وهذا الموقف هو أيضاً ما قرره علماء التفسير على مختلف مذاهبهم من تقرير وقوع الناسخ والمنسوخ في القرآن وكذلك الظاهر والمؤول والعام والخاص والمطلق والمقيد، وهي أبواب كثيرة فتحها الفقهاء وهي تخدم حقيقة واحدة وهي أن النص القرآني نص أدبي جميل، ولكن لا يصح أن نتظر منه بيان الحقائق الفيزيائية والجغرافية والاجتماعية، وهو نور يستضاء به ونص يستأنس بإشاراته ولكن لا ينبغي انتظار بيان الأحكام التشريعية من خلال ظاهر لفظه بل من خلال مقاصد عباراته ومعانيه.

الإقرار بالمجاز في القرآن هو الذي يوفر لهذا الكتاب العزيز حقه من الاحترام والإجلال في عصر العلم، أما تنزيهه منزلة النص التشريعي على النسق الذي تحرر

به القوانين فسيقودك إلى نتائج متناقضة وهو بالضبط ما نراه في اختلاف المذاهب والتفاسير، وهذا الاختلاف يحول دون استنباط أحكام نهائية بلغة قانونية حاسمة بل يلزمك الاختيار من هذه المذاهب، ومن ثم فإن اختيارنا من المذاهب في التشريع يعني أننا نمارس الاجتهاد الذي أمر به القرآن الكريم نفسه، ونتحرر من قيد ظاهر النص.

وهكذا فإن ما ورد في القرآن الكريم من تعذيب المشركين والشماتة بهم وتحقيرهم وإذلالهم في الجحيم إلى الأبد لا يمكن قبوله على ظاهره، وليس إنساناً من يرى إنساناً يهان فلا يتحرك لأجله، وليس إنساناً من يتنعم في الخلود المقيم والخور العين وهو يسمع صراخ الأبد من الهالكين المعذبين ثم يكتفي بالقول: "ذوقوا ما كنتم تعملون، اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون".

وخلاصة القول: إن عقيدة الجحيم بالصورة التي نرويها عن السلف هي عقيدة لا تتفق أبداً مع كرامة الإنسان، ولا يمكن أبداً فهم النصوص المرعبة في صور العذاب وصور الجحيم على الظاهر الذي رواه السلف، ولا بد من تأويل جوهري يصرف هذه الأشكال من العذاب من الظاهر إلى المجاز.

وقد سبق إلى التأويل في هذا المعنى بالذات فيلسوف الإسلام ابن سينا؛ إذ تولى الحديث عن وجوب القول بالمجاز فيما يتصل بآيات العذاب، وتأويل ظاهر النص فيما يكون في الآخرة من عذاب وانتقام وزقوم وغسلين ونار سوداء ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]

فقد اختار أن هذه النصوص كلها من باب المتشابه الذي نرتله ولا يلزمنا الاعتقاد بظاهره، وإنما هو على المجاز في ذلك كله، وأن الأصل عدل الله تعالى ورحمته وغفرانه وما أمرنا به من العفو والإحسان، وأن البعث يكون للأرواح على وجه يعلمه الله، وأنه قرب إلينا المعاني بعبارات من الظاهر وسبيلها المجاز.

وفي الواقع فإن ما ذهب إليه ابن سينا واللاحقون من الفلاسفة حول عدل الله تعالى، ووجوب تأويل كل نص يوهم الظلم لصرفه عن ظاهره تأسيساً على وجوب تنزيه الله عن كل نقص، هو مذهب الفلاسفة كافة في الإسلام وفي الأديان الأخرى، وقد تطورت هذه المدرسة في عصر الأنوار تطوراً كبيراً، وقد كتب فيها الفيلسوف (ليبنتر) أطروحة فلسفية كاملة بعنوان "الثيوديسيا"، صارت عنواناً لكل جدل فلسفي يركز على سؤال التناقض والشر في العالم الأول والعالم الآخر، ووجوب تنزيه الخالق عن إرادة الشر في الدنيا والآخرة.

وقد ظهرت الثيوديسيا في الفكر الإسلامي بوجه خاص لدى المعتزلة؛ الذين تمسكوا بمبدأ العدل والتوحيد في الذات الإلهية.

ومع أن ابن سينا لم يكتب مباشرة في إحياء الأديان، ولكن مذهبه واضح من تقديس النفس الإنسانية، وعدُّ أثر الله تعالى فيها وأنها حرة بالخلود، وأنها في دار النعيم إلى جوار الله تعالى، وهذا عام في كل أهل الملل والأديان.

ويمكن عدُّ ما روي عن الناسكين الأوائل في الإسلام مؤسساً لهذا اللون من الوعي، قال (أبو سليمان الداراني): "إنَّ لله عبادةً لا يشغلهم عن الله رجاء الجنة

ولا خوف النار"58، وقال (الفضيل بن عياض): "إني لأستحي من ربي أن أعبده خوف ناره"59، وقالت (رابعة العدوية): "إن قوماً عبدوه خوف ناره فتلك عبادة العبيد، وقوماً عبدوه رجاء جنته فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوه؛ لأنه الله فتلك عبادة الأحرار"60، وقال (إبراهيم بن أدهم): "اللهم إنك تعلم أنّ الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة إن أنستني بذكرك، ورزقتني حبك، وسهلت علي طاعتك"61.

قد تبدو هذه المسألة أشد صور التحدي في الجمع بين المذهب الإنساني وبين دروس العقيدة التقليدية التي نتلقاها على مقاعد الدرس، وهو ما يستوجب مراجعات عميقة، للإجابة على أخطر تساؤلات الناشئة في مسائل الإيمان.

قناعتي أنّ النص القرآني في أمر الآخرة برمته نص ميتولوجي لا يراد ظاهره في شيء بل هو أسلوب تربوي، نافع للعامة، ويجب على الخاصّة أن يصرفوه عن ظواهره فالإيمان بعدالة الله ورحمته أولى من الإيمان بظواهر النصوص.

وقد سبق إلى هذا الموقف كما رأينا علماء كثر، ونسجت عليه مذاهب عقلانية جريئة، وهو باختصار موقف فلاسفة الإسلام الكبار في وعيهم بروح النص القرآني.

58 الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، ج4، ص310.

59 المصدر السابق نفسه.

60 الأصفهاني، أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، حليه الأولياء، ج8، ص35.

61 المناوي، محمد عبد الرؤوف بن علي، الكواكب الدرية، ج1، ص288.



## سادساً: الإسلاموفوبيا

ويقتضي المنطق أن نشير إلى تحدٍ مختلف وله أثر سلبي في تمثيم المذهب الإنساني في الإسلام وهو الإسلاموفوبيا، والمقصود بالطبع خطاب الكراهية ضدَّ الإسلام الذي تروج له مؤسسات حاكمة على الإسلام، من التيارات اليمينية في الغرب والعلمانية المتطرفة في الشرق، فهذا الخطاب في الواقع يؤدي دوراً سلبياً في تشويه الإسلام وهو يحقق اصطفاً للتطرف والتعصب في صفِّ واحد ضد خطاب المذهب الإنساني، ويجعل الحجج التي ينادي بها الإنسانيون في الإسلام دون معنى؛ إذ يتلقاها الطرف الآخر بروح حاكمة موتورة، وسيبدو التيار الإسلامي ساذجاً ودرويشاً في صدام الثقافات، وسيحول دون قيام خطاب متوازن لفريقي متجاورين على هذا الكوكب.

لقد كانت جريمة نيوزيلاند 2019 بخاصةً إحدى أوضح صور هذا التحدي، فقد هزت هذه الجريمة مسمع العالم؛ إذ أقدم موتور صليبي حاقد على قتل عشرات المصلين في مسجد بنيوزيلاند في ظاهرة غير مألوفة ولا معروفة في هذا البلد المتقدم الهادئ، والذي يصنف دولياً على أعلى درج التسامح والإنسانية في العالم، ولم يترك هذا المجرم أي مجال للشك بنواياه فقد كان يقصد تماماً ما فعل، وصرَّح أمام المحكمة بأنه يهدف بالضبط إلى قتل أكبر عدد من المسلمين، وأنه مستعد للقيام بهذا العمل مرة أخرى، وحين صادرت الشرطة رشاشه الإجرامي فوجئ الجميع بالمنشورات التي

كتبها على رشاشه بكل عناية ودقة، "لقد جئنا لقتلكم ولم ننس تاريخكم في غزو أوروبا وعليكم أن ترحلوا إلى الجحيم، رسالتي هي قتل كل مسلم، وهذا هو واجب كل أوروبي حقيقي!"

إنَّ مثل هذه المواقف الإجرامية لا يمكن أن تمر دون ارتدادات وفي الواقع فإنها ستدفع كثيراً من أصحاب الاتجاه الإنساني في الإسلام إلى مراجعة أفكارهم، والتخفيف من توجهاتهم الغاندية الإنسانية والتفكير بمنطق إن لم تكن ذنباً أكلتكَ الذئاب.

وفي الواقع فإنَّ الحوادث العنيفة التي جرت ضدَّ المسلمين في نيوزيلاند وكندا وفرنسا على قلتها كانت مؤثرة جداً وبخاصَّةً أمَّا حظيت باهتمام إعلامي كبير وباتت تقدم أدلة تتألى بالمجان لتيارات الصراع والمواجهة وتمشم في الوقت نفسه خطاب التسامح والمحبة والإنسانية.

وإلى جانب العمل العنيف فإنَّ التصريحات العنيفة ضدَّ الإسلام والمسلمين كان لها دور أشد سوءاً فهي أكثر انتشاراً وحضوراً وراهنية، وفيما كانت الأعمال العنيفة مدانة من قبل الجمهور الأوربي والأمريكي فإنَّ التصريحات العنيفة الكارهة للإسلام والعرب لا تعامل بالشيء نفسه، بل هي محمية بقوانين الحريات والديمقراطية وهو الأمر الذي لا يستوعبه عموم المسلمين إلا في سياق التآمر على الإسلام والمسلمين.

ومع ذلك فإنَّ الحكومات الديمقراطية في أوروبا وأمريكا بدأت تدرك هذا الواقع، وهي تبذل باستمرار جهوداً متتالية لوقف حملات الإسلاموفوبيا، وتشير إلى هذه الظاهرة بأنَّها ظاهرة مناقضة للحضارة وللإنسانية، ولكنها في الوقت نفسه لا

تستطيع أن تمضي في مواجهة الإسلاموفوبيا خارج حدود القانون الذي يسمح بقدر كبير من الحرّية في إطار التعبير والنقد والسُّخرية.

وعادة ما يقارن المسلمون ما يواجهونه من تنمر ضدّ الإسلام بمسألة الهولوكوست اليهودي الذي صار خطأً أحمر لا يمكن التجرؤ عليه بعد أن قامت دول أوروبية عدّة بتجريم التشكيك في الهولوكوست، وفي الواقع فإنّ التشكيك بالهولوكوست كان إلى عهد قريب محض حرّية تعبير وما زال كذلك في دول كثيرة منها بريطانيا والدول الإسكندنافية وغيرها. ولكن النضال الحقوقي اليهودي المتواصل نجح في النهاية في حمل عدد من البرلمانات على إقرار مؤيدات عقابية على من ينكر المحرقة تأسيساً على منع الشماتة بالمنكوب، وفيما نجح النضال الحقوقي اليهودي في تحقيق هذا النجاح الجزئي فإنّ النضال الحقوقي لحماية المقدس الإسلامي لم يتجاوز الصخب الإعلامي ولم تنجح الهيئات الإسلامية في حمل أيّ برلمان أوروبي على إقرار تشريع عقابي ضدّ الاستهزاء بالمقدّس الإسلاميّ.

ويتعين في هذه النقطة ألا ننسى القرار المهم في المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان 2017 التي رفضت عدّ شتم النبيّ محمّد حرّية رأي، وأمرت بإجراء عقابي ضدّ رجل نمساوي شتم امرأة في عقيدتها شتماً مهيناً، ويعدّ هذه القرار مؤسساً واقعياً لهذه الجهود الحقوقية المأمولة.

وبذلك يمكنني القول بأنّ ظهور المذهب الإنساني في الإسلام يتأثر إلى حدّ بعيد بالمزاج العالمي ضدّ الإسلام، وفي حين يستفيد أصحاب المذهب الإنساني في الإسلام من كل سلوك أو تصريح أو قانون أو ممارسة تقوم بها الشعوب المتقدمة؛ لدعم التوجهات ذات الطابع الإنساني ووافق الحضارات وإخاء الإديان وكرامة الإنسان، فإنّ التصريحات الحاقدة والموتورة ضدّ الإسلام والمسلمين وتعاطم

الإسلام فوبيا تقوم بدور عكسي تماماً وتؤدي في النهاية إلى وهن الخطاب الإنساني في الإسلامي الذي سيبدو حياً من طرف واحد.

## الفصل الخامس: الحضارة والأداء الإنساني

الفائض الحضاري ينتج فائضاً أخلاقياً

هل نجحت الحضارة الحديثة في إحياء قيم الإنسانية، وكرامة الإنسان؟

تفترض هذه الدراسة الجواب بالإيجاب، وتؤكد أن الفائض الحضاري ينتج فائضاً أخلاقياً، وهو جواب سيصدم بالطبع كثيراً ممن يتولون الخطاب الإسلامي، وكذلك أولئك الذين يراهنون على حتمية الصراع بين الشرق والغرب وبين الإسلام والكفر وبين العرب والحضارة الحديثة.

وعلى قوة الأدلة التي سنسوقها في هذا السبيل ولكي سأسبق القول بأن شريحة كبيرة من القراء الكرام سيعترضون على هذا الموقف، وسيرونه تعميماً مجانياً لحضارة غارقة في الأنانية والظلم والاستعمار، وسيرون أن مثل هذا التصور محض كذب وخديعة طالما أن الدول الكبرى تعيش في رفاهية وسعادة وأنا نعيش في ذل وهوان، وهو موقف تقليدي تغذيه باستمرار فكرة المؤامرة التي باتت تطبع سلوكنا وحياتنا دون توقف منذ عهد بعيد، وباتت الطريقة المثلى لحكامنا في الدول الفاشلة لتبرير الانهيار الاجتماعي والحضاري والاقتصادي الذي ساقتنا إليه سياساتهم الخاطئة.

ويجب القول إن تربة سياساتنا من الخطأ والفشل واتهام الدول المتقدمة بالأناية والاستهتار ليس إلا أهون الأمرين؛ إذ ينتشر بشكل أكبر وأوضح الاتهام الجاهز بأن هواننا وفقرنا وشتاتنا يتم بمؤامرة وكيد منهم، وأنا لم نقم بأي خطأ فيما يقومون في الخفاء برسم الحكومة العالمية الماسونية وسرقة خيراتنا ونهب ثرواتنا.

وفي الواقع فإن هذا اللون من الاتهام التبريري لم يعد يقنع أحداً، فالدول مصالحة وليست مؤامرات، وهذه الشكوى البائسة لم تعد تصدر إلا عن الدول الفاشلة، فيما تعيش ثلاثة وخمسون دولة إسلامية فيها عدد من الدول الناجحة تماماً، كما ليزيا وأندونيسيا ودول الخليج العربي والمغرب وتركيا، وقد حققت تفوقاً حضارياً كبيراً وباتت في المقدمة في مؤشرات جودة الحياة والقوة الاقتصادية والرعاية الصحية والتعليمية وغيرها، ولم يقم أحد بوقف طموحات هذه الدول وتدميرها بدافع المؤامرة الكونية، وبات من المؤكد أن العالم قائم على تنافسية واضحة، وأن الدولة الناجحة قادرة أن تقيم علاقات محترمة متوازنة مع دول العالم، فيما تستمر الدول الفاشلة بمعادة العالم وتسخيفه واتهامه بالتآمر الأمر الذي سيؤدي تلقائياً إلى الانسحاب من البرامج الرائدة التنموية لهذه الدول ومن ثم انغماسها في الفوضى والفشل.

إن قيام العالم المتحضر ببناء شراكات مع الدول المتخلفة والنامية هو أمر مشروع ومنطقي ويكون عادة في مصالح الدولة الأضعف والأفقر، وبخاصة إذا كان بإشراف الأمم المتحدة ووفق مثلها وقيمتها؛ إذ تفرض القيم البرلمانية في الدول المتحضرة أن تقوم الدولة بمبادرات حيوية لمساعدة الشعوب الأكثر فقراً، وهو ما حصل ويحصل

باستمرار، وقد استفادت منه دول نامية كثيرة، فيما ظلت الدول الفاشلة تكتفي بإغلاق نوافذها على كل موارد الانفتاح والاكتفاء بلعن العالم وتخوينه وشتمه، والانضمام إلى المحاور المتطرفة التي تمارس السياسات نفسها؛ لتقيم مع هذه الدول الفاشلة اتحاد المتعوس مع خايب الرجا.

ومع ذلك فلن نتحدث هنا عن عصمة الحضارة في التكافل الاجتماعي والإنساني، فكل الأنظمة معرضة للخطأ والإخفاق، وهناك بالطبع تجارب محبطة، وهذه طبيعة الحياة، ووفق غاندي: "لا تفقدوا الأمل في الإنسانية، إن الإنسانية محيطة، وإذا ما كانت بضع قطرات من المحيط قدرة فلا يصبح المحيط بأكمله قدرا، ويصبح الإنسان عظيماً تماماً بالقدر الذي يعمل فيه من أجل رعاية أخيه الإنسان"



## كرامة الإنسان في دول الحضارة الناجحة

إذا كان أصلي من ترابٍ، فكلُّها بلادِي، وكل العالمين أقاربي!

أبو العرب بن أبي الفرات الصقلي

تتبنى هذه الدراسة الحديث عن نجاح حقيقي في مستوى الدول المتقدمة على مستوى حقوق الإنسان والتكافل الاجتماعي، وذلك بخلاف نظرات سائدة تجهد في وصف النجاح العالمي بالنجاح الزائف، وأن الإنسان مسحوق وضائع وأن الحضارة للآلات فقط وللأغنياء والماكرين، فيما يعيش الإنسان بؤساً وجهاً وتخلفاً وأنانية!

تحاول هذه الدراسة أن تثبت أن النجاح الذي تحقق على المستوى الإنساني هو نجاح حقيقي، وهو أمل تتمناه شعوب الأرض كافة، وأن علينا أن نبحث عن سر هذا النجاح ونحذو حذوه.

وما نتحدث عنه بالطبع هو العالم المتحضر في العقود الأخيرة، وبالتحديد بعد قيام الأمم المتحدة والقانون الدولي واستقرار الديمقراطيات، وليس خلال حروبه المضنية في التاريخ التي لا تختلف عن هذا الشرق التعيس، ولا في حملاته الهمجية ضد المستعمرات البائسة والأراضي المفتوحة، فهذا كله سجل غير إنساني وليس فيه ما يشرف، فلم يكن هذا العالم المتحضر في الماضي قدوة في شيء؛ إذ كان الاستبداد

والظلم والكرهية في كل مكان، وارتكبت حروب ومجازر مخجلة يندى لها وجه التاريخ.

ولكن الجانب الأهم هو أن الغرب المتحضر اليوم لا ينكر جرائم الآباء والأجداد، ولا يمنحها القداسة والعصمة، وهو يتحدث عنها بنفس الروح التي تهاجمها فيه وربما أكثر، فليس لدى الجامعات المتقدمة ولا مراكز الأبحاث ولا الباحثين المحترمين أي دافع لتبرير الجرائم التاريخية، أو الانتماء إليها، وهناك باستمرار مطالبات بتهشيم رموز نصبها المستبدون في عصور بغيهم واستبدادهم، يتم اليوم تحييدها وتجاوزها، وربما محاكمتها وإعلان البراءة منها، وأحياناً التعويض على المتضررين من سياسات كهذه، وفي هذه النقطة بالذات نختلف في قراءتنا للتاريخ فبينما يمتلك المؤرخ الغربي شجاعة الاعتراف بالخيبة والفشل يصير المؤرخ العربي على أننا كنا في هذا العالم رسل سلام ومحبة، وأن كل ما تم ارتكابه من حروب وقتل وسبي كان عملاً نبيلاً ضرورياً لنشر المحبة والسلام!

وأعتقد أن هذا الاستهلال ضروري للوقوف على حقيقة التقدم الحضاري، وجوهريته وجدديته، وعدم الربط بين نجاحات اليوم وجرائم الماضي.

وبالطبع فالدراسة غير معنية بالحديث عن الجانب التكنولوجي والصناعي والرفاهي فهذه الأشياء محسومة لدى الجميع، ومن الطبيعي أن يتفق الجميع على التفوق العلمي والتكنولوجي للدول المتقدمة، ولكن ما تطالب به هذه الدراسة هو الانتباه للتفوق الاجتماعي في الدول المتقدمة وفهم أسباب ذلك ووسائله.

نجحت المجتمعات الأوروبية والأمريكية في توفير حياة كريمة للإنسان وتحقيق مساواة حقيقية في الفرص والحقوق والواجبات، ويكفي مشهد الشعوب البائسة التي تراحم على سفارات تلك الدول تطلب الحياة فيها أو تلقي بنفسها في البحر خلاصاً ونجاة من البؤس والشقاء، ويكفي مشهد الإنسان الأبيض والأسود والمسلم والمسيحي في أرقى درجات السلطة والقرار والمسؤولية، ولكنني مع ذلك سأستعين بالجانب العلمي والموضوعي الإحصائي لفهم الواقع الاجتماعي والإنساني الذي تحقق في دول الحضارة الحديثة لجهة حقوق الإنسان وكرامته وسعادته.

وسأكتفي هنا بتحليل رادار وهو إحدى أهم المؤسسات الأكاديمية الألمانية المتخصصة بالإحصاء وقد قامت بدراسة تحليلية دقيقة للواقع الاجتماعي في الدول المتقدمة الأربع والثلاثين في العالم وهي الدول التي تنتظم في مجلس التعاون الاقتصادي والتنمية.

وقد تمت الدراسة بوساطة عدد من الباحثين في جامعة برتمن الألمانية بإشراف ورعاية من مؤسسة برتسلمان الألمانية، التي تقوم بدراسات مختلفة لدول مجلس التعاون الاقتصادي والتنمية لرصد واقع التلاحم المجتمعي وتطوراته في البلدان المتقدمة، وهي التي يرمز لها عادة:

### OECD Organization for Economic Co-operation and Development

وتشمل قائمة البلدان 34 دولة متقدمة منها 27 في الاتحاد الاوربي + سبعة أخرى وهي: سويسرا والنرويج والولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلاندا وكندا وإسرائيل.

وقد جاء التقرير في 57 صفحة لشرح المعايير والأسس المتبعة في التقرير، و76 صفحة لتقديم الجداول الإحصائية التي قدمت في غاية الدقة والعناية والموضوعية. ويقدم التقرير نتائج في غاية الدقة لبيان وصول هذه الشعوب إلى الأفق المنهاجي في تحقيق التكافل والتلاحم المجتمعي والمساواة ومنع أشكال التمييز والاستعلاء كلها، وكان الرصد يشتمل على تقييم موضوعي للمحددات الآتية:

المؤشر	الوصف	
توفر الشبكات الاجتماعية	يملك الناس شبكات اجتماعية قوية	العلاقات الاجتماعية
الثقة بالمجتمع	يثق الناس بعضهم في بعض	
القبول بالتنوع	يشعر الأفراد بأنهم يعيشون بسلام على تنوعهم	
الارتباط بالهوية	يشعرون بالارتباط بالهوية الوطنية	الترباط
الثقة بالمؤسسات	يشعرون بالثقة بالقوانين والهيئات الحكومية	
الثقة بالعدالة	يشعرون بالثقة بالقضاء والعدالة	
التضامن والتكافل	يشعرون بالتضامن مع الآخرين وتقديم العون	الأرضية المشتركة
احترام التقاليد الاجتماعية	يحترمون القيم الاجتماعية والأخلاقية	
المشاركة المدنية	يشاركون في الحياة المدنية والسياسية	

واستطاع التقرير أن يرصد بدقة الواقع الإنساني في هذه المجتمعات، وقد قسم التقرير درجات الأداء إلى سبعة وعَدَّ التقرير رقم الصفر يعني اكتمال الحقوق المجتمعية، وغياب الشكاوى الجدية، فمجتمع الصفر مجتمع دون مشاكل ولا هموم، يتوفر فيه

للإنسان الحقوق الأساسية كلها، ثم يبدأ الارتقاء فوق الصفر إلى 3.5 رفاهاً وكماليات، كما عُدَّ التقرير الهبوط عن الصفر إلى -3.5 مؤشراً لوجود قلق في حقوق الإنسان ينبغي الالتفات إليه ومعالجته.

ووفق دراسة المرصد فإن تجاوز بلد ما رتبة الصفر يعني أنه أنجز بالكامل تأمين الحقوق الإنسانية كلها لشعبه من الطعام والشراب والصحة والتعليم، وأنجز التكافل فلم يعد في المجتمع فقير ولا ذو حاجة، وأن المجتمع أنجز المساواة والمواطنة والعدالة فلا يعاني الناس من تمييز ولا تنمر ولا ازدراء، وأن المجتمع أصبح يقدم مبادرات إيجابية نحو الشعوب الأخرى ومنها احتضان اللاجئين ومساعدة الدول الفقيرة في الإغاثة والتعليم والصحة ومواجهة الأوبئة.

وقد عُدَّ التقرير رتبة 3.5 أعلى ما يطمح إليه المجتمع الإنساني من تكافل وتضامن، ومن الضروري القول بأن أحداً لم يبلغها بعد وفق معايير رادار، وأقصى ما قدمه الجدول هو رتبة 2.06؛ إذ سجلتها الدنمارك في حقل الثقة بالمجتمع، وهي وفق المعايير تمثل أرقى ما وصلته البشرية من التكافل والتضامن والتعاون في الموجة المنتهية بعام 2012.

فيما يعبر الهبوط عن الصفر عن وجود ثغرات في النظام الاجتماعي والإنساني يتعين دراستها ومعالجتها، وعد التقرير أن رتبة -3.5 هي أدنى رتبة في الخلل الإنساني والاجتماعي، وفي الدول المتقدمة فإن أدنى هبوط تم تسجيله هو -0.92؛ إذ سجلت رومانيا هذه النسبة المتدنية في العلاقات الاجتماعية.

أما الرتب الأدنى من ذلك فغير موجودة في الدول المتقدمة، ولكن توجد في الدول الفاشلة والمتخلفة؛ إذ لا أمان ولا ضمان ولا كرامة.

وقد تمّ رصد هذه الدول الأربعة والثلاثين عبر أربع موجات، كل موجة في نحو خمس سنوات، وعبر عن كل واحدة منها بحرف W وقد غطت الفترة من 1989 إلى 2012م

Country	cohesion_w4	d11w4	d12w4	d13w4	d21w4	d22w4	d23w4	d31w4	d32w4	d33w4
1 Denmark	1.32	1.45	2.06	0.87	1.64	1.61	2.03	0.60	0.31	1.35
2 Norway	1.16	0.82	1.75	0.78	0.19	1.69	1.64	0.61	0.97	2.00
3 Finland	1.05	0.80	1.58	1.37	0.82	1.31	0.55	0.57	0.89	1.59
4 Sweden	0.95	0.58	1.54	1.45	-0.18	1.58	0.96	0.17	0.52	1.95
5 New Zealand	0.89	0.84	0.79	0.90	0.27	0.80	1.82	1.56	0.68	0.36
6 Australia	0.88	0.99	0.53	0.97	1.13	0.69	0.85	1.73	0.48	0.52
7 Canada	0.83	0.60	0.77	0.95	0.93	0.79	1.05	1.44	0.73	0.18
8 United States	0.82	0.09	0.45	0.74	0.84	-0.04	0.76	1.67	1.27	1.58
9 Switzerland	0.65	0.58	1.12	-0.61	0.55	1.36	1.08	0.33	1.15	0.33
10 Luxembourg	0.62	0.42	-0.30	1.35	-0.24	1.38	0.90	0.08	1.28	0.71
11 Netherlands	0.58	0.84	1.21	-0.25	-2.22	1.00	1.10	1.19	1.30	1.02
12 Ireland	0.54	1.17	0.35	0.44	0.77	-0.26	0.10	1.84	0.61	-0.13
13 Austria	0.52	0.65	-0.03	-0.28	0.60	0.69	0.26	0.84	1.35	0.59
14 Germany	0.39	0.65	0.42	0.14	-0.90	0.58	0.32	0.31	1.14	0.81
15 United Kingdom	0.24	0.84	0.30	0.40	-1.62	0.12	0.55	1.02	0.39	0.12
16 France	-0.07	0.12	0.22	-0.77	-0.48	0.11	-0.40	-0.75	0.78	0.59
17 Spain	-0.11	0.42	-0.23	0.28	-0.69	-0.23	0.08	-0.37	-0.27	0.00
18 Belgium	-0.20	0.41	0.40	-0.68	-2.92	0.22	0.44	-0.44	0.38	0.37
19 Estonia	-0.32	-0.52	0.72	-0.45	0.01	-0.03	-0.10	-0.95	-0.70	-0.85
20 Malta	-0.33	0.07	-0.99	-0.77	-0.37	0.21	-0.49	0.24	-0.82	-0.08
21 Poland	-0.33	0.16	-0.54	0.25	0.68	-0.62	-0.75	-0.74	-0.55	-0.91
22 Slovenia	-0.42	0.30	-1.10	0.13	0.33	-0.91	-1.29	-0.51	-0.23	-0.48
23 Czech Republic	-0.47	-0.05	-0.44	0.08	-1.37	-0.81	-0.47	-0.96	0.39	-0.65
24 Italy	-0.49	-0.77	-0.67	-0.07	-0.09	-0.83	-0.46	-0.26	-0.99	-0.27
25 Hungary	-0.53	-0.65	-0.73	0.04	0.31	-0.53	-1.46	-0.87	-0.04	-0.84
26 Portugal	-0.57	-0.87	-0.65	0.83	-0.06	-0.75	-0.64	-0.73	-1.27	-1.01
27 Slovakia	-0.65	0.03	-1.12	-0.89	-0.26	-0.82	-0.99	-1.14	0.12	-0.76
28 Israel	-0.77	-0.03	-0.25	-3.47	0.41	-0.47	-0.86	-0.07	-1.51	-0.64
29 Cyprus	-0.77	-1.90	-1.49	-2.19	1.32	-0.33	-0.30	0.06	-1.48	-0.60
30 Lithuania	-0.93	-0.24	-0.34	-0.11	-0.52	-1.70	-1.37	-1.19	-1.42	-1.51
31 Latvia	-0.97	-1.33	-1.19	-0.63	-0.20	-1.34	-1.05	-1.01	-0.63	-1.33
32 Bulgaria	-0.97	-1.48	-1.35	-0.11	1.19	-1.33	-1.38	-1.50	-1.56	-1.20
33 Greece	-1.26	-2.09	-1.78	-0.94	0.89	-1.52	-1.22	-1.65	-1.66	-1.31
34 Romania	-1.28	-2.92	-1.03	0.26	-0.78	-1.62	-1.26	-1.10	-1.60	-1.49

ويمكنني أن أرصد هنا عدداً من الجوانب الإنسانية الأساسية التي تلتزمها الدول المتقدمة بصرامة وحزم:

- الالتزام الكامل بإعلان حقوق الإنسان ومنع أي تمييز أو إكراه أو استعلاء ضد الإنسان، ومنحه حقه الكامل في الحياة والمسكن والتعليم والسفر والدين والتعبير والتجمع.
- تحقيق أعلى درجات التكافل الاجتماعي والنجاح بصورة رقمية حاسمة في القضاء على الفقر والتسول والتشرد بشكل يكاد يكون تاماً.
- تحقيق أعلى درجات التضامن الاجتماعي مع الدول الفقيرة والمنكوبة والمتضررة من الحروب والكوارث.
- تطبيق أرقى معايير احترام اللاجئين وتوفير أمنهم وحقيقتهم في الحياة بغض النظر عن موقفهم السياسي في مواجهة حكوماتهم الظالمة.
- توفير تأمين صحي للمواطنين كافة يحقق الكرامة والطمأنينة الصحية ويوقف انتشار المرض والأوبئة والكوارث للشعوب.
- توفير الحياة الكريمة والأمن لكبار السن والعناية بهم في دور أولادهم أو في دور الرعاية وتوفير المورد الكريم للشيخوخة بغض النظر عن الالتزامات التعاقدية.
- توفير أكرم العيش لذوي الإعاقة، ومساعدتهم على تحقيق الذات والمنافسة الاجتماعية.

إنَّ تحقيق كل هذه الالتزامات يدون في تقرير رادار بصيغة الصفر، على اعتبار أنه التزام واجب للناس على الدولة وأن الدولة التي تحقق ذلك تصبح مشاكلها صفرًا مع المجتمع، وبعد ذلك يبدأ تدوين كل إضافة تحقّقها الدول في سجل الناتج الإجمالي، وكل أداء فاشل لا يرقى إلى هذه النتائج فإنّه يصنف دومًا تحت الصفر، مع أنّه قد يكون حلمًا تحلم به شعوب العالم النامي والمتخلف.

ولكن هذه النجاحات التي ينظر إليها سكان الأرض كافة بالإعجاب والدهشة، وتتمناها الشعوب النامية والمتخلفة تبدو تحدياً مباشراً لدول الاستبداد التي فشلت في تحقيق هذه الغايات لشعوبها نتيجة الفساد وسوء الإدارة، وهو ما عانته بلادنا باستمرار منذ الاستقلال وبدلاً من إصلاح أنظمة الإدارة والعدالة فإنَّ أنظمتنا الشمولية راحت تصبُّ اللعنات والشتائم على الأمم الناجحة، واتهامها بسرقة خيراتها ونهب ثرواتنا من أجل بناء حضارتهم الزائفة، ويتولى فريق من الواعظين تبرير هذه الدعاوى، وبات قسم كبير من شعبنا مقتنعاً تماماً بأننا لا نرتكب شيئاً من الأخطاء إنما هي المؤامرات التي لا تنتهي التي يقوم بها الأعداء الطامعون بخيراتنا وهم المنتشرون في الأمم الناجحة والذين سرقوا أموالنا وبنوا أمجادهم!

قد لا يتسع المقام هنا للنقاش في ذلك كله، ولكنني أود تقديم موقفي في هذه المسألة وأود أن يعلم القارئ الكريم أن كاتب هذه السطور يبارك للأمم الناجحة نجاحتها ويتمنى لها المزيد، ولا يرى سبباً لتبرير فشلنا وإخفاقنا بما صنعه الآخرون، وقد حققت دول إسلامية من حولنا نجاحات كبيرة وباتت في الدول المتقدمة بحسن إدارتها

وانفتاحها، وهي لا تعاني عقدة المؤامرة التي نعانيها في بلادنا الفاشلة، ونشير دون تردد لبلاد مهمة مثل ماليزيا وسنغافورة وأندونيسيا وبروناي وتركيا والمغرب ودول الخليج العربي فهذه كلها بلاد إسلامية يعيش أهلها في رغد وتفتح لمواطنيها سفارات العالم كله، وما زال مواطنوها يرغدون بما توفر لهم من الانفتاح والنجاح ولا يجدون سبباً لاتهم العالم بسرقة أحلامهم ووأد مكتسباتهم.

وفي إشارة ذات دلالة يشير تقرير دول مجلس التعاون والتنمية لعام 2019 أن هذه الدول أنفقت في التنمية والمساعدات للدول الفقيرة والنامية ما مجموعه 152.8 مليار دولار، وهو رقم يعادل 17 ضعفاً الموازنة الكاملة لسورية عام 2020 البالغة 9.2 مليار دولار.<sup>62</sup>

ولا شك في أنّ هذه الأرقام كافية للقضاء على الفقر والجوع في الدول المنكوبة في العالم لولا الفساد وسوء الإدارة وتحويل الأموال إلى التسلح والاستعداد للحروب.

وفي مقارنة ذلك فإنه لم نعثر على رقم دقيق لإسهامات العالم الإسلامي في الخير الإنساني ولكن هناك تصريح للأميرة البندري بنت عبد الرحمن الفيصل أن دراسة أجرتها شركة ماكنزي العالمية تبين أن حجم العطاء الخيري في منطقة الخليج يتراوح بين 15 و20 مليار دولار سنوياً.

<sup>62</sup> <https://www.oecd.org/dac/financing-sustainable-development/development-finance-data/ODA-2019-detailed-summary.pdf>

وتشير تصريحات رسمية صادرة عن وزارات الخارجية إلى أرقام التفصيلية الآتية، فيما أنفقته دول الخليج في المساعدات الخارجية الإنسانية كما يأتي: الإمارات 8 مليار 2018، السعودية 4 مليار 2018، الكويت 3.5 مليار 2015، قطر 3 مليار، ولم نجد رقماً عن عمان والبحرين وسنقدره بمليار دولار، وبذلك نطاق التقدير الذي رجحته الأميرة البندرة نقلاً عن مركز ماكنزي.

### اتحاد المقصد الإنساني بين الإسلام والحضارة الحديثة<sup>63</sup>

في دراسة لافتة صدرت عن جامعة جورج واشنطن قدم الباحثان (حسين عسكري) و(شهناز رحمن) دراسة موضوعية عام 2010 عن واقع تطبيق قيم الإسلام الإنسانية في العالم، تحت سؤال محدد: ما هي الدول الأكثر إسلامية في العالم؟

بعيداً عن العناوين والشعارات بدأت الدراسة بمجهود كريم بذله الباحثان للوصول إلى القيم الإنسانية العليا في الإسلام، وقد عمداً إلى سؤال أكبر المرجعيات الإسلامية في العالم سؤالاً واحداً وهو: ما هي أهم القيم الإنسانية في الإسلام، وقد تمّ ترميزها بالمنطق الاقتصادي الأكثر تعاملاً مع الأرقام، وهي القيم التي جاء الإسلام مبشراً بها، ودعا الدولة والمجتمع إلى التزامها، ووصل الباحثان إلى تحديد اثني عشر بنداً

<sup>63</sup> يمكنك أن تجد الدراسة كاملة على:

تعدُّ على رأس أولويات الإسلام في بناء الحياة السعيدة، وهي تشتمل على حقِّ الإنسان في الحرية والحياة والطعام والشراب والصحة والتعليم والحرية والنظام، ومسؤولية المجتمع في تحقيق الجودة في الإنتاج والعدالة في التوزيع والحماية للبيئة، وجاءت كل قيمة منها معززة بآية أو بحديث.

هذه القيم لن تختلف كثيراً لو طلبتها من الأزهر أو الفتوى أو أي مركز من مراكز الإفتاء المعتمدة في العالم.

بعد تحديد البنود الاثني عشر وضع الباحثان مؤشرات معيارية لقياس تطبيق هذه القيم، ثم ذهب الباحثان إلى الإحصائيات الرسمية المعتمدة في الأمم المتحدة لما حققته دول العالم في هذه الحقول، وتم رصد 208 دول بمن قیها الدول ناقصة السيادة، وجاءت النتيجة أن أكثر الدول في العالم تطبيقاً لهذه القيم الإسلامية العليا كالآتي:

1- نيوزيلاند

2- لوكسمبورغ

3- إيرلندا

4- إيسلندا

5- فنلندا

6- الدنمرك

7- كندا

8- بريطانيا

9- أستراليا

10- هولندا

وأول دولة إسلامية دخلت التصنيف كانت ماليزيا في المرتبة 33 والكويت 48 ،  
أما السعودية فكان تصنيفها 91 وإيران 139 وسوريا 168 والسودان 190

وفي الواقع فإن الدراسة كانت تعتمد الجانب الموضوعي بدقة كبيرة، وقد طبقت فيها شروط المعرفة الصارمة، وقد اعتمدها جامعة جورج واشنطن 2010 ونال بها الباحثان ترقية أكاديمية.

وقد تزايد الاهتمام بالمؤشرات التي طرحتها الدراسة فتطورت فيما بعد فصارت مؤشراً سنوياً يصدر وفق المعايير إياها تحت عنوان المؤشر الإسلامي العالمي: Islamicist Indices وبات بالإمكان متابعة التقرير السنوي المستمر منذ 2015 حتى تاريخه، وبات المؤشر يتضمن أربعة حقول أساسية:

- الأداء الاقتصادي
- التشريع والحوكمة
- حقوق الإنسان
- العلاقات الدولية

ويمكن متابعة التقارير السنوية على الموقع:

<http://islamicity-index.org/wp/indices2015>

وسيظهر لك في الموقع تطور واقع حقوق الإنسان في البلاد الإسلامية، ولكن بات من المؤكد أن واقع البلاد الإسلامية في حقوق الإنسان لا يزال متدنياً فيما سعدت بلاد إسلامية عدة إلى مراتب متقدمة في الاقتصاد والحكومة والعلاقات الدولية. ولا نحتاج إلى التعليق على الواقع الإنساني في هذه التقارير الدقيقة بأكثر مما كتبه إدارة الموقع على لسان الشيخ محمد عبده:

"لقد زرت أوروبا فرأيت الإسلام ولم أرَ المسلمين، وعدت إلى مصر فرأيت المسلمين ولم أرَ الإسلام".

وهكذا فإنَّ تطبيق معايير القيم الإسلامية بدقة يكشف أننا لا نحقق مقاصد الإسلام العميقة، وإنما نكتسي ببعض ملامحه، وكأننا المقصودون بوصف الرسول الكريم: "يَأْتِي زَمَانٌ عَلَى النَّاسِ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رِسْمُهُ". وقد نالت الدراسة اهتماماً كبيراً؛ نظراً لاعتمادها وسائل معيارية بالغة الدقة، واعتمادها على إحصائيات وبيانات رسمية لا يمكن التشكيك بها، ونشرتها كبرى الصحف العالمية.

ولكنَّ الدراسة تعرضت أيضاً لسلسلة مقالات ناقدة، ولعلَّ من أهمها الدراسة التي أصدرها الباحثان (مروان عبد الدايم) و(سعيد الدليمي) 2018 من جامعة العلوم التطبيقية في مملكة البحرين.

ولخص الباحثان اعتراضهما على الدراسة في ثلاث نقاط:

- اعتماد بعض القيم الغربية المناقضة للإسلام كتجارة القمار والربا.

- تغييب القيم التي انفرد به الإسلام وأهملتها الحضارة كالزكاة والأمانة والتكافل.
- عدُّ القيم التبديرية قيماً معيارية في حال أنها محرمات أو مكروهات إسلامية.

وتقدم الباحثان باعتراض منهاجي يفترض أنَّ التصنيف الذي اعتمده عسكري وشهرزاد يستند إلى القيم الغربية وليس إلى القيم الإسلامية؛ إذ كرس بعض القيم المشتركة كالمساواة بين الجنسين، والتمييز، وسوق العمل، وسهولة ممارسة الأعمال التجارية، والحرية الاقتصادية، وحرية الأعمال.

وقد ذهب الباحثان أن هذه القيم ذات خلفية أوروبية وأنها ليست في مكان القيم في الإسلام، بل إن التمييز بين الرجل والمرأة في سوق العمل وفي الإنتاج والتسويق أمر مشروع ومبرر، وإن كانت الحضارة الغربية لا تفهم معناه.

ومع أن الباحثين لم يدخرا وسعاً لتقديم الأدلة على هذه الرؤية فإنني لا أتفق معهما في ذلك وأعتقد أن قيم الإسلام الاقتصادية لا تكاد تتعارض في هذه الجوانب مع قيم الحضارة الحديثة، وأن التمييز ضد المرأة ورفض المساواة ليس مجداً إسلامياً يستحق الثناء بل هو تعصب مارسه رجال الدين في مراحل مختلفة من التاريخ وابتعدوا به عن روح الإسلام الواضحة في قوله تعالى في وصف الجنسين على قدم المساواة التامة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]

ووجه الباحثان نقداً جوهرياً آخر للمؤشر باتهامه بالغفلة عن القيم الإسلامية الرشيدة في سوق العمل كتحریم الربا والاختلاس والقمار والمضاربة والرشوة، واعتبر أن الاقتصاد العالمي لا يبالي بهذه المخالفات بل يشرعنها ويبررها، وبذلك فمن غير

المعقول أن نتجاهل هذه المواقف الإسلامية الرشيدة ثم نقيس الأداء الاقتصادي في حضورها دون اعتبار لهذا الفارق.

كما اعترض الباحثان على قياس الأداء الاقتصادي العالمي دون تمييز تجارات الاحتكار والإنفاق التبذيري التي يحرمها الإسلام وتعتبرها الحضارة فرعاً من جودة الحياة.

ولكنني لا أتفق مع الباحثين في أن المؤشرات الاقتصادية للدول المتقدمة خالية من القيم الأخلاقية، وأنها تتعامل مع الكتلة النقدية بشكل آلي صرف لا مكان فيه للأخلاق، بل إن قراءة واعية للدساتير الحديثة ونظم الإنفاق في الدول المتقدمة يكشف لك عن كثير من الإجراءات الأخلاقية الملزمة للدولة، ولعلَّ أوضح الأمثلة على هذه الحقيقة ما رأيناه خلال السنوات العشر الماضية من موقف أخلاقي نبيل التزمته الحكومات الأوروبية في إيواء أي وافد إلى أرضها، ومن المؤكد أن ذلك ليس عائداً إلى حسن أخلاق الحكام ومهاراتهم القيادية بل هو عائد بشكل أساسي إلى القوانين الأخلاقية الملزمة التي اقترحتها البرلمانات وصوت عليها الشعب وفق حجج أخلاقية وإنسانية واضحة، مع أنني لا أنكر وجود مصالح اقتصادية دفعت إلى إقرار هذه القوانين.

ويجب القول هنا إنَّ المنكرات المشؤومة التي حاربها الإسلام تحاربها اليوم وبالضراوة نفسها قيم الحضارة الحديثة، فالربا عدو مركزي للاقتصاد، ولا ينظر الحكماء في الشرق ولا في الغرب إلى الربا على أنه أداء اقتصادي مشروع، وتعمل البرامج

الحكومية باستمرار على مكافحة الربا وتعدُّ تدمير المال دون إضافة قيمة فيه اقتصاداً غيباً وجاهلاً، ويمكنني القول إنَّ هناك اتفاقاً عالمياً بين رجال الاقتصاد بأنَّ الربا يخل بالنزاهة والعدالة، وأنه في الدورة الاقتصادية عمل مشؤوم.

ولعلَّ من أكثر الأمور دلالة على الاستنكار الجماعي للربا الحرام؛ مسرحية "تاجر البندقية" التي كتبها شكسبير واستقبلتها المسارح الأوروبية كلها وفجواها بؤس الربا وشقاء المرابي.

ولكن من المؤسف أن التفسير الفقهي السائد للربا لا يلتفت إلى تعليله بالظلم والقهر والاستغلال فقد قرر فقهاء المصارف الإسلامية أن هذه العلة غير منضبطة ولا معيارية، وذهبوا بدلاً من ذلك إلى تحريم ما لزمه الوصفان: الثمنية والمكيالية، وهي معايير مادية بحتة ليس لها أي تفسير أخلاقي إلا الالتزام بنص القدماء، وقد تنتج نقيض مقاصد الشرع، وأعتقد أن المعيار الأخلاقي هو المعيار الأكثر ملاءمة لمعرفة موقف الشرع من النشاط الاقتصادي.

وما قلناه في الربا هو أيضاً ما نقوله في القمار والرشوة وإساءة استغلال السلطة والتهرب من الضرائب والقرصنة الإلكترونية، فهذه جرائم بشعة يستوي في محاربتها الفقه الإسلامي والفقه الاقتصادي الحديث، ولا يمكن القول إن الاقتصاد الحضاري يرحب بهذه الجرائم ويعتبرها جزءاً من دورة الاقتصاد المعافى.

تكمن المفارقة فقط في أن الحضارة تتعامل مع هذه المعطيات بوصفها حرية وملكية خاصة ولا تملك إزاءها موقفاً باطشاً صارماً لمكان الحرية في التشريع الحديث،

ولكنها تفرض فيها الضرائب والعقوبات وتضع في سبيلها العوائق وتبالغ في الاشتراط والمخاير وذلك بهدف التضييق عليها وتحييدها من الدورة الاقتصادية فيما يذهب فقهاء الإسلام إلى الضرب بيد من حديد عليها ولا يرون الحرية والملكية الخاصة مبرراً كافياً لشرعنة هذه الممارسات.

ومع ذلك فإنني لا أملك إلا أن أشير إلى وجهة هذا الاعتراض؛ إذ لا يمكن المساواة في الموقف التشريعي بين موقف يحارب الربا والقمار والخمور بكل صرامة ويعددها جرائم اجتماعية، وبين موقف يفسرها ويعللها ويتعامل معها على أساس أنها شر لا بد منه.

ومع ذلك فإن من الجوانب التي تسجل لعدد من هذه الدول المتقدمة تحديداً أنها منعت تجارات القمار والربا وضيقت للغاية تجارة الخمور.

ويمكنني القول بثقة ويقين إن عصر الاستعمار وحكم العسكر والملكية الاستبدادية قد ولى، ودخل العالم المتقدم عصر الديمقراطيات، وإن القوانين التي أنجزتها البشرية لجهة تحقيق المساواة والكرامة الإنسانية تجعل الوفاق في حقل القيم أكثر من أي وقت مضى.

كما يرى الباحثان أن المؤشر أهل قيمياً إسلامية أساسية في الاقتصاد مثل حقوق العمال ومحاربة الفقر والبنية التحتية الاجتماعية والمعايير الأخلاقية والصدق والأمانة.

ومع تقديري لوجهة نظر الناقدين، ولكنني لا أعتقد أن أي نظام أوروبي حديث يهمل هذه القيم الإسلامية ولعل أوضح دليل على ذلك نجاحهم في القضاء على التسول والفقر والجوع، وقيامهم بتشريع أشد العقوبات ضد الفساد والتدليس وإساءة استخدام السلطة.

وما نزال نتابع كل يوم أخبار إحالة أكبر المسؤولين إلى القضاء بسبب مخالفات بسيطة في إساءة استخدام السلطة، وقل أن ينجو رئيس أو مسؤول من ادعاء ضده في قضية ما، ويتولى القضاء الحكم بحياد ونزاهة، ويعد مثلاً: تعيين موظف في الدولة بلا مسابقة أصلية، أو استلام هدية من جهة لا ترتبط بالمسؤول بقرابة أو معرفة، واستخدام سيارة الحكومة في إجازة خاصة وأشياء مثل هذا تعد قضايا خطيرة يُحال المسؤول فيها إلى القضاء وقد تؤدي إلى استقالته أو عزله، في حين أن هذه الممارسات تعد ممارسات منهجية في كثير من الدول النامية والمتخلفة ولا يوجد عليها أدنى اعتراض.

وعلى كل حال فقد أفادت الدراسة من النقد المستمر وطورت أدواتها، وقد باتت اليوم كما أشرنا مؤشراً دولياً سنوياً يصدر عن هذه المؤسسة الدولية بعنوان: Islamicity index يمنح اهتماماً أكبر لحقوق الإنسان والتضامن الاجتماعي.

والخلاصة أن القيم الإسلامية الاجتماعية وقيم الحضارة الحديثة تتشارك في الغايات والأهداف والمنطلقات وإن اختلفتا في الوسائل والممارسات.

ومع ذلك فهذا التقارب المفترض في الحقل الاقتصادي لا يزال أدنى من التقارب في حقل حقوق الإنسان الذي يمكننا فهم المشترك الإنساني فيه على نطاق واسع كما سنبينه في فصول أخرى من هذه الدراسة.

### سورة اليابان

كانت أول زيارة لي إلى اليابان قبل سنوات، وفيها قدر لي أن أشاهد الحضارة اليابانية المذهلة التي فرضت احترامها على العالم، فهذه الأمة التي قامت بعد الحرب العالمية الثانية من بين ركام الأموات، وعلى رائحة القنابل الذرية الفاجرة التي ضربت ذلك الشعب الجريح، تخط سطوراً جديدة للمستقبل والحياة.

ليس لليابان ثأر تاريخي مع العرب، وطبيعة شعبها الودود تفرض عليك محبة هذا الشعب وإكرامه ومحبته، وهكذا فقد سعدت منبر الزهراء يوم الجمعة وقلت للناس: "منذ عشرين سنة وأنا على هذا المنبر في كل أسبوع أفسر لكم سورة الرحمن وسورة الفرقان ولكنني اليوم سأفسر لكم سورة اليابان!"

سورة اليابان كان استهلالاً صادماً محيراً دفع إلى ألف سؤال وسؤال!

قلت للناس: "لو افترضنا أن النبي الكريم قرر أن يزور أمته في الأرض للاطمئنان على صحتهم وأحوالهم، والكلام هنا محض افتراض مسبوق بـ(لو) وهي كما تعلمون حرف امتناع لامتناع. سنتصور أنه ركب البراق الذي ركبه الأنبياء وهبط به إلى الأرض، وعند طبقة الأتوموسفير بدأ يتطلع إلى الأرض ليوحى عن المكان الذي يحط

فيه ليجد أهله وأنصاره، وهم بالطبع أولئك الذين طبقوا تعاليمه وسنته، سيسأل أولاً عن أول كلمة جاء بها من السماء : اقرأ ، ولن يطول به الانتظار حتى يمتلأ تعجباً وغبابة حين يشاهد نسب الأمية المرتفعة في العالم الإسلامي، فأمة اقرأ لا تقرأ، والأمية ترتفع بين النساء في اليمن على مثلاً إلى معدل 70 بالمئة وتزداد في السودان والعراق لتصل إلى 75 بالمئة، وفي أفغانستان إلى 78 بالمئة وفي الصومال 85 بالمئة وفي النيجر 90 بالمئة، فيما دفنت اليابان آخر أمة عام 1961، والأمة اليوم هناك من لا يملك لغتين أو من لم يدخل عالم الحاسوب وهم هناك قلة على كل حال!

حين يتساءل عن تعاليمه في الوحدة والجماعة، "وَأِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً"، سيهوله أن أمته الواحدة المأمورة بالوحدة والجماعة تتوزع بين ثلاثة وعشرين كياناً سياسياً عربياً ، ويتعاضم الخلاف إلى سبع وخمسين دولة إسلامية محصنة بما شاء الله من أشكال الحدود المنيعة المتينة، لكل منها علاقاتها وأحلافها وأصدقائها وأعدائها ومشاريعها المنفصلة المتناقضة، ومؤتمراتها تنتهي إلى اتهامات وطوشات! في حين لا يصدر عن المئة وثلاثين مليون ياباني إلا قرار سياسي واحد يقره برلمانه ويلتزمه شعبه! حين يسأل عن قوله: "ما ءامنَ بي سَاعَةًٍ مِنْ نَهَارٍ مَنْ بَاتَ شَبَعَانَ وَجَارَهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ" سيشهد بعض أبناء أمته وهم يتقلبون في قصور الذهب والفضة الباذخة، وآخرون يعيشون في الخيام وبيوت الطين، وتسحقهم المجاعة الظالمة دون أدنى اهتمام بوصيته إن الله فرض في جيوب الأغنياء ما يسد جوعة فقرائهم، في

حين أن اليابان قد أدركت ذلك حتى لم تعد تشاهد فيها متسولاً، وتمكنت من تحقيق نظم كافلة جلبت للفقير حظه وكفايته.

حين يسأل عن وصاياه الخالدة في أمر الطهارة والنظافة التي هي شرط الإيمان، وأن الصلاة نفسها لا تقبل إلا بطهارة الثوب والبدن والأرض فإن نظرة واحدة إلى شوارع كثير من العواصم الإسلامية وما يتراكم فيها من ريش ونفايات وقمامات وتعتبر، ستجعله مقتنعاً بأن القوم لم يسمعوا بعد شيئاً من كلامه في الطهارة، فيما أصبحت شوارع اليابان بيضاء كأنها أرض حرم طهور، ولا يمكن أن تجد فيها عقب سيكارة، وهم يخلعون نعالهم إذا دخلوا أماكن عامة إحساساً ببركة الطهارة والنظافة ورغبة في المحافظة على البساطة التي طبعت حياتهم!

وإذا تساءل عن وصيته المشهورة إن الله يكره العبد البطال وقرأ معدلات البطالة التي ترتفع إلى أربعين وخمسين بالمئة في بعض مناطق العالم الإسلامي ناهيك عن البطالة المقنعة التي تفرزها المحسوبيات والواسطات في حين أن الأمة اليابانية اعتادت على معدلات بطالة لا تصل إلى ثلاثة بالمئة.

ولو سأل عن وصيته المشهورة: "لَا تُسْرِفْ وَلَوْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ"، ثم تأمل القصور العربية التي صارت تبني في حواشيتها القرى والمزارع والملاعب وحدائق الحيوان، وراح بعضهم ينشئ مقاصير الزجاج الباذخة داخل البحر بتكاليف مذهلة، في حين أن 85% من الشعب الياباني الغني والثري ما يزال يفضل السكنى في الاستوديوهات، وهو مجرد غرفة نوم وصالون تسكنها العائلة في جو مفعم بالرضا

ورغبة متجددة بالتنمية والبناء والازدهار، في حين أن أموالهم تنفق في المصانع والمعامل بدلاً من اكتنازها في نهم لا تنتهي!

وإذا سأل عن وصيته الكريمة: "بُورِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا"، ثم رأى يوم العمل الياباني يبدأ في الخامسة صباحاً؛ إذ تزدهم صالات المترو قبل طلوع الفجر بملايين الراكضين إلى أعمالهم كالنمل! في حين أن اليوم العربي يبدأ في التاسعة وربما في العاشرة وأكثر من ذلك بكثير.

فإذا تذكر الآية الكريمة: ﴿وَسَخَّرْنَا لَكُمْ مَاءَ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَعَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]

ورأى أن اليابانيين يركبون الفضاء ويخزنون الطاقة الشمسية ويوظفون الذرة للتنمية والبناء، في حين أن أمته لم تنزل تستورد مواردها من أعدائها بدءاً من النفط العربي المطور حتى لقمة العيش، وهكذا...

هنا هل يكون ملاماً إذا حرك مكوكه صوب اليابان وحط في طوكيو بواقع أنهم أكثر منا تحقيقاً لوصاياہ وتعاليمه؟

أما لو أنه أراد أن يبحث عن أشكال الحياة التقليدية التي كانت سائدة في جزيرة العرب من الثوب والدشداشة واللحية والقلنسوة والبرقع والهريس والثريد فإن أنسب مطار يحط فيه هو مطار قندهار!

## المذهب الإنساني في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:

تنطلق الرؤية الإسلامية من التأكيد على أن العالم أسرة واحدة، وأنَّ الخلق كلهم عيال الله، وأن الله ربُّ العالمين، وأنَّ الناس كلهم لآدم وآدم من تراب.

ويجب القول إن منطق صدام الحضارات الذي تبناه متطرفون في الغرب ومنطق الفسطاطين الذي يتبناه متطرفون في الشرق كلاهما مجاف للحقيقة وبعيد عن هدي الأنبياء، وإنَّ السبيل الوحيد لقيام عالم آمن هو التعاون والتواصل والتكامل.

ولا يخفي كاتب هذه السطور رأيه في هذه المسألة في وجوب تجاوز مصطلح الحوار إلى مصطلح الوحدة، فالحضارة الإنسانية في الواقع حضارة واحدة تعاقبت الأمم على بنائها خلال تاريخ طويل، انتقلت فيه شعلة الحضارة من الشرق الأدنى والشرق الأقصى إلى اليونان إلى فارس إلى الرومان إلى الحضارة الإسلامية ثم إلى الحضارة الأوروبية والأمريكية، وهي اليوم نتاج كفاح الأمم جميعاً، وبإمكانك أن ترى في مشافي كليفلاند في أمريكا أثراً واضحاً للرازي وابن سينا تماماً كما كنا نرى في بيمارستانات بغداد والأندلس أثراً واضحاً لأبقراط وجالينوس، والأمر نفسه في سائر العلوم الكونية، وكذلك في السنن الاجتماعية من الحرية والعدالة والمساواة والإخاء التي شاركنا فيها خلال التاريخ، وحين يتم إنجاز الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ويتم الإعلان عنه في نيويورك فإنني أبصر بين الرجال الذين حققوه (عمر بن الخطاب) و(عمر بن عبد العزيز) و(نور الدين زنكي)، وكفاح الأنبياء من قبل، فهؤلاء جميعاً

شركاء في شرعة حقوق الإنسان التي مرت عبر التاريخ في مواجهات كثيرة ضد الاستبداد والقهر، وشارك حكماء هذه الأمة صيحتهم في وجه العالم: "مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتُمُكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ أَحْرَارًا".

إنها إذن شعلة واحدة للحضارة الإنسانية، فالحضارات تتكامل ولا تتقاتل، وتتواصل ولا تتدابر، فالصراع لا يكون بين الحضارة والحضارة أو بين النور والنور، وإنما يكون الصراع والصدام بين الحضارة والتخلف، وبين العلم والجهل، وبين الظلمات والنور، وإنها إذن الأسرة الإنسانية الواحدة التي جاءت من نسل آدم، ومسؤولية أبنائه أن يتعاونوا لاستثمار خيرات هذه الأرض وضبط مقاطع الحقوق فيها وتوفير العيش الكريم للأمم والشعوب كافة.

إنَّ من المدهش أن الخطاب القرآني جاء علمياً إنسانياً بامتياز، ونادى الناس بصيغة يا بني آدم، ويا أيها الناس، وهي الصيغة التي أعلنها النبي الكريم في آخر أيام الرسالة في حجة الوداع: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ دِينَكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لِأَدَمَ وَأَدَمٌ مِنْ تُرَابٍ".

وقد افتتح القرآن الكريم بآية ذات دلالة، وهي قوله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، فلم يقل ربُّ المسلمين ولا ربُّ العرب ولا ربُّ المتقين، واختتم بقوله: «رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ»، ولم يقل رب المؤمنين أو العرب أو العجم، وما بين الفاتحة والخاتمة جاء بيان القرآن العظيم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]

وهذه الحقائق باتت اليوم في صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وهو الميثاق الوحيد الذي وقعت عليه دول العالم قاطبة وبات أكثر الوثائق إلزامية واتفاقية في التاريخ؛ إذ تمَّ في العاشر من ديسمبر عام 1948 الإعلان عنه في هيئة الأمم المتحدة وعُدَّ الميثاق أولى وثائق الأمم المتحدة، وبات من المتفق عليه أن الانضمام إلى الأمم المتحدة يقتضي الالتزام بنصوص الميثاق بلا تحفظ.

وتذهب هذه الدراسة إلى التأكيد على الوفاق التام بين هذا الميثاق وبين المذهب الإنساني في الإسلام وكذلك المذاهب الإنسانية في الأديان الأخرى والمذاهب الإنسانية خارج الدين كله، فقد وصل الإنسان في النهاية إلى أفق قانوني محسوم يمنح الإنسان حريته الكاملة في الاختيار، وحقوقه الأساسية في العيش الكريم، وبات هذا الميثاق نصاً علمياً ملزماً لكل دولة تنضم إلى الأمم المتحدة.

ومع أن النظام العالمي الجديد بات واضحاً في الحديث عن حقوق الإنسان، بغض النظر عن لونه وجنسه ودينه وماله، ولكن الإسلام أضاف بعداً جديداً على هذه القيم فعزز الأمر بثقافة الرحم والنسب والأخوة، وأن علاقة البشر بعضهم ببعض ليست مجرد نصوص قانونية تم التوقيع عليها في عصبة الأمم، بل هي حقيقة بيولوجية ووراثية ورحمية، وأنَّ أي لون من التعالي بين الأمم هو ردة عن قيم الإسلام العليا في المساواة والإخاء الإنساني.

إنَّ تفصيل القرآن لقصة آدم بكل تفاصيلها الدقيقة في نحو عشر سور في القرآن الكريم، يعكس إرادة واضحة في إحياء ثقافة الأسرة الإنسانية، والإخاء البشري،

والبحث عن الروابط والصلات ليس على أساس من المصالح والجوار فقط بل على أساس من رابطة الدم والرحم التي يجب أن تتعزز بالمعطى الحضاري يوماً بعد يوم.

وفي القرآن الكريم تكرر النداء الإلهي يا بني آدم أربع مرات، ﴿يَبْنَءَ آدَمَ فَقَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْوِي سَوْءَ تَكْوُرِي شَأْوَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]

ويمكن عدُّ مشاركة النبي الكريم في حلف الفضول أول إسهام في تكريس حقوق الإنسان وحمائيتها في جزيرة العرب، وهو حلف تداعى فيه العرب ألا يتركوا مظلوماً إلا نصره ولا شريداً إلا آووه، وبخاصة أولئك المساكين الغرباء الذين كان يتعرض لهم الأقوياء فيذلونهم ويأخذون أموالهم ولا يجدون من ينصرهم، وفي ذلك قال النبي الكريم: "لقد شهدت حلفاً في دار ابن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت"<sup>64</sup>

وقد تطورت مفاهيم حقوق الإنسان اليوم وغدت أبرز مسؤوليات الدولة الحديثة، وتم ترسيخ هذه الحقوق الأساسية في ميثاق الأمم المتحدة، وباتت أبرز عناوين التزام الدولة بمسؤولياتها وواجباتها، وأصبحت أهم شروط دخول الدول إلى الهيئات الدولية الرئيسية في العالم.

ولا أجد ضرورة لتمييز موقف الإسلام في مسألة حقوق الإنسان من موقف الحضارة الحديثة، وفي الواقع فإنَّ الحقوق الأساسية الواردة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان هي مطالب شرعية محمودة، ويمكن الاستدلال لها من الكتاب والسنة والفقهاء

<sup>64</sup> السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف، ج 2 ص 49.

الإسلامي، ولا أحد أي مبرر للقول بأن الإسلام يحمل رؤية أخرى لما تحمله الإنسانية من هذه القيم، ومع ذلك فإن هذا الإعلان ليس نصاً مقدساً، وهو يحتاج باستمرار إلى إغناء وتطوير عبر الأجهزة والوسائل الدولية، ويجب أن نشير هنا إلى نقطتين:

- نقاط تحتاج للتوضيح فيما يخص المادة 12 و16 ونظائرها بأن هذه الحرية يجب أن تلتزم المعايير التي يقرها المجتمع بعقده الاجتماعي.
- نقاط القيم المضافة التي أشار إليها الفقه الإسلامي، التي نعتبرها في روح الإعلان العالمي وليس نقيضاً له.

ويجب التذكير مرة أخرى بأن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ليس موقفاً يخص الدول الغربية، أو الحضارة الأوروبية، بل هو في العمق موقف كافحت من أجله الحضارات الإنسانية كلها، وما زال الإنسان يكافح من أجل الحرية والمساواة والعدالة منذ فجر التاريخ، وحين أقرأ نصوص الإعلان العالمي أجد أن الحضارة الإسلامية بإعلامها وقادتها ودراسات علمائها شاركت في صياغة هذا الإنجاز الإنساني النبيل، ومن حقنا أن نقول إنه إنجاز إنساني وليس إنجازاً شرقياً ولا غربياً.

إن الديمقراطية وحقوق الإنسان ليست منتجاً أوروبياً أو أمريكياً، إنها في العمق حصيلة الكفاح الإنساني الطويل في التاريخ ساهم فيه ملايين المناضلين من سائر

الأمم، يقاومون الاستبداد والقهر والظلم، من ثورة العبيد في روما بقيادة سبارتاكوس إلى تعاليم فلاسفة اليونان إلى حكمة الأنبياء وشرائعهم الكريمة إلى كفاح القادة التاريخيين للعدالة والمساواة عبر الثورات الإنسانية الشريفة والجهود العلمية التي توفر على بذلها آلاف الحكماء حتى توصل الإنسان في هذا العصر إلى تحديد معالم العدالة وكرامة الإنسان بوساطة المواثيق الدولية التي تم إقرارها في هيئة الأمم المتحدة. ونحن نعتقد أن سير الأنبياء الكرام كانت ملهمة للأحرار من رجال الكفاح الإنساني الذين ناضلوا طويلاً من أجل تحقيق آمال الإنسان الكبرى في الحرية والعدالة والكرامة.

ونعتقد أيضاً أن أئمة الهدى في الإسلام شاركوا في الكفاح الإنساني لتحرير كل في موقعه وتاريخ نضاله، وكما أشرنا إلى القادة السياسيين فإن من حقنا كذلك أن نشير إلى جهود كبيرة بذلها علماء الإسلام أيضاً لبناء علاقات إنسانية في الإطار الحقوقي أكثر عدالة ومساواة، ونشير هنا إلى جهود فلاسفة الإسلام في تعظيم النفس الإنسانية وخلود الروح وسنشير إلى عدد منهم في هذه الدراسة، وكذلك الفقهاء الذين دونوا كتبهم في الأحكام السلطانية والعلاقات الدولية ووجوب إنصاف الناس وتحقيق كرامتهم وتأمين العدالة الاجتماعية.

ويتضمن الاعتقاد الإسلامي الإقرار بحقيقة اعتقاده قاطعة وهي أن الخلق جميعاً عيال الله، وأن الروح التي فيهم هي نفحة من الله نفسه، وأن كل مولود يولد على الفطرة، ومقتضى ذلك أنهم مأمورون أن يبحثوا عن المشترك الإنساني في تحرير قيم

العدالة والمساواة، والبحث عن التواصل والتكامل بين نصوص الوحي وبين هدايات العقل وتجارب الإنسان.

وقد أصدر علماء الشريعة الإسلامية عشرات الأعمال العلمية المتخصصة التي كرست لتأكيد المعنى الإنساني للإسلام رسالة رحمة ومحبة وخير تركز في جوهرها على الجانب الإنساني، وتسعى إلى تحقيق التكامل بين جهود الشرفاء من الأمم كافة في سبيل الخير الإنساني، وهي جهود كبيرة اشتهر بها عبر التاريخ أئمة مسلمون كبار أمثال الفيلسوف الفارابي وابن سينا والكندي والرازي وإخوان الصفا وابن رشد والشيخ ابن عربي وجلال الدين الرومي وغيرهم من الفلاسفة الإنسانيين الذين تحدثوا عن إخاء الإنسان للإنسان، ووجوب البحث عن الخير في فطرة ابن آدم، وقد ترجمت أعمالهم ودراساتهم للغات الحية في العالم.

ولذلك فإنه من الطبيعي أن يتقارب الفكر الإسلامي في العهد الحضاري للإسلام مع ما تم إقراره في المحافل الإنسانية الدولية من أحكام وقوانين تهدف لتحقيق كرامة الإنسان وحمايته من الظلم والاستبداد والدكتاتورية والدعوة إلى تعزيز الديمقراطية والحريات في العالم.

ولتوضيح هذا التقارب بين ما ورد في القرآن الكريم وبين ما ورد في إعلان حقوق الإنسان فقد قمنا بإعداد الجدول المرفق؛ إذ تمكن المقارنة بين النص الإسلامي من قرآن أو سنة، وبين النص الذي ورد في إعلان حقوق الإنسان.

وغني عن القول أننا لا نزعم التطابق بين ما ورد في الشريعة الدولية وبين ما جاء في القرآن الكريم، فالقرآن كتاب موعظة وهداية وليس نصاً سياسياً، والقرآن خطاب بلاغي والميثاق نص حقوقي، والقرآن نص ديني دوغمائي والميثاق دستور توافقي، ولكن على الرغم من ذلك كله فإنك ستشعر بالدهشة ولا ريب من التقارب الشديد بين دلالة القرآن الكريم ودلالات النص العالمي لحقوق الإنسان، وهذا يعزز الحقيقة التي نتحدث عنها وهي أن مقاصد الوحي الشريف وما بشر به الأنبياء الكرام لإسعاد الإنسان، يلتقي مع ما توصل إليه الإنسان في كفاحه من أجل الحرية والعدالة والكرامة.

ومن المناسب تماماً أن يطلع القارئ الكريم هنا على نص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولكنني سأقدمه عبر جدول مقارنة يشير إلى نص الإعلان وما يقابله من النصوص العامة في الإسلام التي تؤسس لهذا اللون من الحق.

وأشير هنا إلى جهد مهم كنا قد أنجزناه في مؤتمر خاص تم تنظيمه في معهد ليوبولد سكرون في سالزبورغ بالنمسا عام 2008 عبر مؤتمر خاص نظمه المعهد تحت عنوان الإسلام والقانون الدولي، وقد قمنا بإجراء مقارنة دقيقة بين ما ورد في القرآن الكريم وما ورد في شريعة الأمم المتحدة وإعلان حقوق الإنسان، وقد صدر عن تلك الندوة مجموعة توصيات تؤكد على هذه الحقيقة.

وأحب التنويه هنا إلى الدور المهم الذي قام به الخبير الدولي هانس كوريل مساعد الأمين العام للأمم المتحدة، الذي جمعني به لجنة واحدة في المؤتمر؛ إذ كنا نلتقي

عند حديقة سالزبورغ الرائعة في فناء معهد ليوبولد سكرون، قريباً من بيت العبقري موزارت موسيقار العالم الذي عزف بألحانه للأمم كافة، وكُرِّس لشعوب الأرض لغة يتحدث بها العالم، وتعزفها ألحانه وتسمعها الأرواح دون مفسر ولا ترجمان.

وقد فوجئت في الواقع بقوة اطلاع السيد هانس كوريل على نصوص القرآن الكريم وهو فقيه سويدي يعدُّ من ألمع خبراء القانون الدولي في العالم، وأدهشني جهده الكريم لتحقيق المطابقة بين نصوص القرآن الكريم وبين شرعة حقوق الإنسان، وبعد أيام من العمل المشترك انتهينا إلى هذه الصيغة التي اعتمدها المؤتمر في توصياته وما تزال وثيقة مهمة من وثائق سالزبورغ التي أنجزها معهد ليوبولد في حوار الحضارات:

نص إعلان حقوق الإنسان	النص الإسلامي
<p>لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم. الديباجة فقرة 1</p>	<p>﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]</p>
<p>ولما كان تناسي حقوق الإنسان وازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال همجية آذت الضمير الإنساني، وكان غاية ما يرنو إليه عامة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحرر من الفزع والفاقة. الديباجة فقرة 2</p>	<p>﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤]</p> <p>﴿ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حَسَنًا ﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا ﴿٨٦﴾</p> <p>[الكهف: ٨٦ - ٨٧]</p>

<p>ولما كان من الضروري أن يتولى القانون حماية حقوق الإنسان لكيلا يضطر المرء آخر الأمر إلى التمرد على الاستبداد والظلم. الديباجة فقرة 3</p>	<p>﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]</p>
<p>ولما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أكدت في الميثاق من جديد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية وحزمت أمرها على أن تدفع بالرفعي الاجتماعي قدماً وأن ترفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح. الديباجة فقرة 4</p>	<p>﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]</p> <p>﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]</p>
<p>ولما كان للإدراك العام لهذه الحقوق والحريات الأهمية الكبرى للوفاء التام بهذا التعهد. الديباجة فقرة 5</p>	
<p>فإن الجمعية العامة تنادي بهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع، واضعين على الدوام هذا الإعلان نصب أعينهم، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات عن طريق التعليم والتربية واتخاذ إجراءات مطردة، قومية وعالمية، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الأعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها. الديباجة فقرة 6</p>	

<p>المادة 1.</p> <p>يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء.</p>	<p>"إن الله سبحانه وتعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بأبائها ، كلكم لآدم، وآدم من تراب" من خطاب النبي الكريم في حجة الوداع، أخبار مكة للأزرقي ج 2 ص 383.</p> <p>﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ ﴾ [النساء: 1]</p>
<p>المادة 2.</p> <p>لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء.</p>	<p>في خطاب حجة الوداع للنبي الكريم: "أيها الناس إن أباكم واحد وإن ربكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وأكرمكم عند الله أتقاكم" مسند أحمد رقم (8721).</p>
<p>المادة 3.</p> <p>لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.</p>	<p>﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: 33]</p> <p>﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: 32]</p>

<p>لا يجوز استرقاق أو استعباد أي شخص، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعهما.</p>	<p>﴿ فَشَدُّوا أَوْثَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [محمد: ٤]</p> <p>والآية تنص على تحريم استرقاق الأسرى بعد الحرب، وتحصر حق الدولة بين أمرين اثنين لا ثالث لهما: المن، (إطلاق الأسرى دون عوض) أو الفداء (إطلاقهم مقابل تعويض) وهذه الآية آخر ما نزل بشأن الأسارى.</p> <p>وفي آية أخرى: ﴿ وَطَعْمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْهٍ مَّسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨]</p> <p>وهي نص في وجوب إكرام الأسير وتوفير حقوقه الإنسانية</p>
<p>المادة 5.</p> <p>لا يعرض أي إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة.</p>	<p>قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لطم غلامه أو ضربه فكفارته أن يعتقه" صحيح مسلم ج5 ص90</p> <p>وفي عصر الخلافة الراشدة تم استدعاء حاكم مصر وابنه ومحاکمتهما في المدينة المنورة وتم جلده؛ بسبب ضربه لرجل مسيحي، وقال له عمر بن الخطاب: "يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟"</p>

<p>المادة 6.</p> <p>لكل إنسان أينما وجد الحق في أن يعترف بشخصيته القانونية.</p>	<p>كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس بأحب أسمائهم إليهم .</p> <p>معجم الطبراني 3499</p> <p>﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْبَسُوا أُنْثُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبَّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ١١]</p> <p>﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣]</p>
<p>المادة 7.</p> <p>كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة عنه دون أية تفرقة، كما أن لهم جميعا الحق في حماية متساوية ضد أي تمييز يخل بهذا الإعلان وضد أي تحريض على تمييز كهذا.</p>	<p>في ميثاق المدينة الذي كتبه الرسول الكريم لتنظيم أحوال المدينة:</p> <p>المؤمنون والمسلمون من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، أمة واحدة دون الناس، وأنه من تبعنا من اليهود، فإن له المعروف والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم...</p> <p>وأن يهود بني عوف أمة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم، ومواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (يسيء) إلا نفسه وأهل بيته...</p> <p>الأموال، لابن زنجويه ج2 ص117 وانظر الأموال للقاسم بن سلام ج1 ص479</p>

	<p>وقد تم فتح مكة في الإسلام انتصاراً لبعض المواطنين المظلومين من غير المسلمين من مشركي خزاعة.</p> <p>وفي القرآن الكريم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ قَائِلِينَ أَلْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]</p>
<p>المادة 8.</p> <p>لكل شخص الحق في أن يلجأ إلى المحاكم الوطنية لإنصافه عن أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التي يمنحها له القانون.</p>	<p>دعا الإسلام إلى إجراء المحاكمات العادلة ونبه أن العدالة مرتبطة بالبينات والشهود، وأن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.</p> <p>﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]</p> <p>﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]</p> <p>ونصَّ بصراحة أن النبي نفسه قد يخطئ في الحكم، وعليه إذن أن يتراجع ويقضي بالعدالة:</p> <p>إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وأقضي له على نحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذ فإنما أقطع له قطعة من النار.</p> <p>صحيح البخاري ج 2 ص 952.</p>
<p>المادة 9.</p>	<p>﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ فَخْرَانَ كَفُورٍ﴾ ﴿٥١﴾ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٥٢﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ</p>

<p>لا يجوز القبض على أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفاً.</p>	<p>لَهُدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِعَ وَصَلَوْتُ وَمَسَّجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَيَلْبَسُونَ اللَّهُ مِنْ بِنَصْرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣٨﴾ [الحج: ٣٨ - ٤٠]</p>
<p>المادة 10.</p> <p>لكل إنسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظراً عادلاً علنياً للفصل في حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية توجه إليه.</p>	<p>﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَجِدُ لِرَبِّكَ مِنَ الَّذِينَ يُخْتَلَفُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَتْ خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [النساء: ١٠٥ - ١٠٧]</p> <p>﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [الشورى: ٣٩ - ٤١]</p>
<p>المادة 11.</p> <p>1. كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئاً إلى أن تثبت إدانته قانوناً بمحاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه.</p> <p>2. لا يدان أي شخص من جراء أداء عمل أو الامتناع عن أداء عمل إلا إذا كان ذلك يعتبر جرمًا وفقاً للقانون الوطني أو الدولي وقت الارتكاب، كذلك لا توقع عليه عقوبة أشد من</p>	<p>في خطاب الوداع للنبي الكريم: "فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم قال ولا أدري قال أو أعراضكم أم لا كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم" هذا رواه أحمد ج 37 ص 474 .</p> <p>﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿٢٥﴾ [الحديد: ٢٥]</p> <p>﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبِئُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴿١٢﴾ [الحجرات: ١٢]</p>

<p>تلك التي كان يجوز توقيعها وقت ارتكاب الجريمة.</p>	
<p>المادة 12.</p> <p>لا يعرض أحد للتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته، ولكل شخص الحق في حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات.</p>	<p>﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ [النور: ٢٧ - ٢٨]</p>
<p>المادة 13.</p> <p>1. لكل فرد حرية التنقل واختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة.</p> <p>2. يحق لكل فرد أن يغادر أية بلاد بما في ذلك بلده كما يحق له العودة إليه.</p>	<p>﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَاهِرَةً وَفَدَّرْنَا فِيهَا السَّبِيحَ سَبِيحًا لِّيَأْتِيَ وَيَأْتِيَ مَا ءَامِنْتُمْ ﴾ [سبأ: ١٨]</p> <p>وفي ميثاق المدينة الذي أعده النبي الكريم وهو أول دستور في الإسلام:</p> <p>"وأنه من خرج آمن، ومن قعد بالمدينة أمن أبر الأمن، إلا ظلماً وأثماً"</p> <p>الأموال للقاسم بن سلام ج 1 ص (479).</p>
<p>المادة 14.</p> <p>1. لكل فرد الحق في أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هرباً من الاضطهاد.</p>	<p>﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْسُوقًا فِي مَنَآكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك: ١٥]</p> <p>﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَامًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۗ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ ثُمَّ يُدْرِكْهُ</p>

<p>2. لا ينتفع بهذا الحق من قدم للمحاكمة في جرائم غير سياسية أو لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.</p>	<p>أَمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ [النساء: 100]</p>
<p>المادة 15.</p> <p>1. لكل فرد حق التمتع بجنسية ما.</p> <p>2. لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفاً أو إنكار حقه في تغييرها.</p>	<p>قرر الإسلام حق الإنسان في التمتع بجنسية وطنية وفق العقد الاجتماعي</p> <p>كان في صلح الحديبية الذي وقعه النبي الكريم: من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل.</p> <p>سنن البيهقي ج 8 ص 99.</p>
<p>المادة 16.</p> <p>1. للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله.</p> <p>2. لا يبرم عقد الزواج إلا برضى الطرفين الراغبين في الزواج رضى كاملاً لا إكراه فيه.</p> <p>3. الأسرة هي الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة.</p>	<p>﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا رَوْحَهَا وَيَسَّرَ مِنْهُمَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء: 1]</p> <p>﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْنَ بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 232]</p> <p>﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 19]</p>

<p>المادة 17.</p> <p>1. لكل شخص حق التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره.</p> <p>2. لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفاً.</p>	<p>﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨]</p>
<p>المادة 18.</p> <p>لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سرّاً أم مع الجماعة.</p>	<p>﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالصَّابِغِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]</p> <p>﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِّمْنَا الْعِلْمَ وَالشَّهَادَةَ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦]</p> <p>وفي القرآن الكريم تأسيس لمسؤولية الدولة في حماية المعابد الدينية من صوامع (كنائس) وبيع (معابد اليهود) وصلوات (طقوس الأديان المختلفة) ومساجد:</p> <p>﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهَدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠]</p>
<p>المادة 19.</p> <p>لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل،</p>	<p>﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]</p> <p>﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]</p> <p>﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]</p>

<p>واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأي وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية.</p>	
<p>المادة 20.</p> <p>1. لكل شخص الحق في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية.</p> <p>2. لا يجوز إرغام أحد على الانضمام إلى جمعية ما.</p>	<p>﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨]</p>
<p>المادة 21.</p> <p>( 1 ) لكل فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشؤون العامة لبلاده إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون اختياراً حراً.</p> <p>( 2 ) لكل شخص نفس الحق الذي لغيره في تقلد الوظائف العامة في البلاد.</p> <p>( 3 ) إن إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة، ويعبر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة دورية تجري على أساس الاقتراع السري وعلى قدم</p>	<p>﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨]</p> <p>﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]</p> <p>وفي الحديث النبوي:</p> <p>"من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ومن لم يصبح ويمس ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه وإمامه ولعامة المسلمين فليس منهم"</p> <p>الطبراني ج 7 ص 268</p> <p>- "من استعمل رجلاً في قوم وفيهم من هو أرضى الله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين"</p> <p>رواه الحاكم انظر جامع الأحاديث للسيوطي رقم (45694).</p>

<p>المساواة بين الجميع أو حسب أي إجراء مماثل يضمن حرية التصويت.</p>	
<p>المادة 22.</p> <p>لكل شخص بصفته عضواً في المجتمع الحق في الضمانة الاجتماعية وفي أن تحقق بوساطة المجهود القومي والتعاون الدولي وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي لا غنى عنها لكرامته وللنمو الحر لشخصيته.</p>	<p>قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الناس سواسية كأسنان المشط وإنما يتفاضلون بالعافية، والمرء كثير بأخيه، ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له" جزء ما رواه الزبير ج 1 ص 29 وقال: "يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى" رواه أحمد ج 38 ص 474</p>
<p>المادة 23.</p> <p>1. لكل شخص الحق في العمل، وله حرية اختياره بشروط عادلة مرضية كما أن له حق الحماية من البطالة.</p> <p>2. لكل فرد دون أي تمييز الحق في أجر متساو للعمل.</p> <p>3. لكل فرد يقوم بعمل الحق في أجر عادل مرض يكفل له ولأسرته عيشة لائقة بكرامة الإنسان</p>	<p>﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة: 105]</p> <p>جاء في الحديث القدسي: {ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل أستأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره}</p> <p>الجامع الصغير رقم 6013</p> <p>وفي الحديث الشريف: "أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه، وأعلمه أجره وهو في عمله" سنن البيهقي ج 5 ص 23</p>

<p>تضاف إليه، عند اللزوم، وسائل أخرى للحماية الاجتماعية.</p> <p>4. لكل شخص الحق في أن ينشئ وينضم إلى نقابات حماية لمصلحته.</p>	
<p>المادة 24.</p> <p>لكل شخص الحق في الراحة، وفي أوقات الفراغ، ولاسيما في تحديد معقول لساعات العمل وفي عطلات دورية بأجر.</p>	<p>قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإن كلفتموهم فأعينوهم".</p> <p>رواه البخاري في الصحيح ج 1 ص 15</p>
<p>المادة 25.</p> <p>1. لكل شخص الحق في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولأسرته، ويتضمن ذلك التغذية والملبس والسكن والعناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة، وله الحق في تأمين معيشته في حالات البطالة والمرض والعجز والتمل والشيوخ وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته.</p>	<p>جاء في الحديث الشريف: "الناس شركاء في ثلاث الماء والكأ والنار"</p> <p>زوائد الهيتمي ج 1 ص 508</p> <p>وتشمل هذه الثلاثة الثروات القومية الطبيعية للأمم من الماء ومصادرها ومواردها والكأ وما يعنيه من الأرض المنتجة للزراعة، والنار وما يتصل بها من قوى الطاقة ومواردها الوطنية المختلفة</p>

<p>2. للأمومة والطفولة الحق في مساعدة ورعاية خاصتين، وينعم كل الأطفال بنفس الحماية الاجتماعية سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعي أو بطريقة غير شرعية.</p>	
<p>المادة 26.</p> <p>1. لكل شخص الحق في التعلم، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى والأساسية على الأقل بالمجان، وأن يكون التعليم الأولي إلزامياً وينبغي أن يعمم التعليم الفني والمهني، وأن ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع وعلى أساس الكفاءة.</p> <p>2. يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماء كاملاً، وإلى تعزيز احترام الإنسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية، وإلى زيادة مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام.</p> <p>3. للآباء الحق الأول في اختيار نوع تربية أولادهم.</p>	<p>"طلب العلم فريضة"</p> <p>رواه ابن ماجه ج 1 ص 80</p> <p>"إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع"</p> <p>رواه أبو داود ج 3 ص 354</p> <p>﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: 233]</p>

<p>المادة 27.</p> <p>1. لكل فرد الحق في أن يشترك اشتراكاً حراً في حياة المجتمع الثقافي وفي الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العلمي والاستفادة من نتائجه.</p> <p>2. لكل فرد الحق في حماية المصالح الأدبية والمادية المترتبة على إنتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني.</p>	<p>"من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة"</p> <p>رواه الترمذي ج 5 ص 16</p> <p>قال عمر بن الخطاب: "تعلموا العلم وعلموه الناس وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن يعلمكم عند العلم، وتواضعوا لمن تعلموه العلم، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم"</p> <p>بلوغ الأرب ج 1 ص 155</p> <p>وفي القرآن الكريم تحذير شديد من كتم العلم عن الناس:</p> <p>﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَزَلَّكَ اللَّهُ وَلَعَنَهُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة: 1٥٩]</p>
<p>المادة 28.</p> <p>لكل فرد الحق في التمتع بنظام اجتماعي دولي تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحقّقاً تاماً.</p>	<p>في ثمانية مواضع في القرآن الكريم فرض الله على الأمة وجوب إكرام ابن السبيل وهو المسافر في غير وطنه وتيسير حاجته وتحريم الاعتداء عليه وأمر بإنفاق الزكاة عليه طالما كان في دار الغربة عن وطنه تأكيداً لحقه في العدل والمساواة، انظر مثلاً النساء 36.</p>
<p>المادة 29.</p>	<p>﴿ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]</p>

<p>1. على كل فرد واجبات نحو المجتمع الذي يتاح فيه وحده لشخصيته أن تنمو نمواً حراً كاملاً.</p> <p>2. يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التي يقرها القانون فقط، لضمان الاعتراف بمحقوق الغير وحرياته واحترامها ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي.</p> <p>3. لا يصح بحال من الأحوال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.</p>	<p>﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام: ١٦٤]</p> <p>﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]</p> <p>﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤٠]</p>
<p>المادة 30.</p> <p>ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأديية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحرريات الواردة فيه.</p>	

وبعد هذه المقارنة فإنَّ من المنطقي تماماً أن نقول إن شرائع الله تهدف إلى الغايات النبيلة نفسها التي أنجزها الإنسان في كفاحه الطويل من أجل العدالة والكرامة والمساواة.

إنه لأمر مؤسف أننا خلال عقود طويلة مارسنا هنا في الشرق رجم الديمقراطية الغربية بالحجارة، واتهمنا حقوق الإنسان والحريات على أنها مؤامرة على الإسلام، وتم تخوينها عبر كتاب إسلاميين بأثماً جاهلية القرن العشرين، أو أنها استكبار عن العبودية لله وحاكمية الشريعة وانكفاء إلى استفتاء الناس بدل استفتاء الوحي المعصوم.

ولكن ذلك التوجه المتطرف لم يكن له أن ينتشر لولا الدور السلبي للاستبداد في تشويه الوعي، وبناء ثقافة عدائية مع العالم، وكذلك فإن فشل الأنظمة التي رفعت شعار الديمقراطية والحريات كان سبباً أساسياً في ثقافة الريب ضد كل ما هو ليبرالي وديمقراطي؛ إذ بدا للناس أن ممارسات الأنظمة العربية الاستبدادية هي صورة عن الديمقراطية المزعومة، وأن الديمقراطية الغربية هي تطور في الدرجة لا في النوع، وأنها تحقق لمواطنيها العدالة عبر ظلم الشعوب الأخرى، وأنها في المآل قائمة على المظالم والاستغلال.

وحتى إعلان حقوق الإنسان الذي يسجل أروع ما حققه الإنسان في نضاله من أجل الحرية والكرامة تمت مهاجمته بضراوة عبر جحافل الواعظين على أساس أنه

انحراف عن حاكمية الله، وأنه شرعنة للخطايا والإثم والفحشاء تحت ستار الحرية، فيما انصرف عدد من الكتاب والفقهاء إلى الدعوة إلى أسلمة هذا الإعلان أو تقديم إعلان بديل بعنوان إعلان حقوق الإنسان الإسلامي.

وفي المقابل كان هناك شرفاء أحرار يعملون بروح أخرى تعتمد العقل والعلم والواقعية الحضارية، ويؤسسون لمشترك إنساني يعلي من شأن الإنسان في حريته وكرامته، ويعزز الاحترام المتبادل للوحي الإلهي والكفاح الإنساني ويؤكد الأفق المشترك الذي يلتقي فيه الوحي مع الكفاح الإنساني النبيل.

إنه من الطبيعي أن تتقارب شرائع السماء في مقاصدها وغاياتها مع ما تم إقراره في المحافل الإنسانية الدولية من أحكام وقوانين تهدف لتحقيق كرامة الإنسان وحمايته من الظلم والاستبداد والدكتاتورية والدعوة إلى تعزيز الديمقراطية والحريات في العالم. ومع ذلك فإن احترامنا لهذه المقاصد الإنسانية النبيلة لا يحول بين تقديم الإضافة الضرورية التي نعتقد أن الإسلام دعا إليها وأمر بها، ومن هذه الإضافات:

**حق الإنسان في أن يولد بين أبوين:** وهو من هذه الحقوق التي نأمل أن تضاف إلى الإعلان العالمي؛ وذلك لمنع الآباء والأمهات من العبث بالمواليد والتخلي عن مسؤولياتهم في رعاية الأطفال، وهو حق أمر به الإسلام وتؤيدنا فيه النظم الحقوقية في العالم، وهو ما يمنع العبث والفحشاء والاستهتار، وهذه هي مطالب الشريعة في الجوهر.

إن تفاقم نسب الولادات التي يتخلى فيها الوالدان عن الأولاد هو أمر مرعب ولا إنساني، وتصل نسبة الولادات غير الشرعية إلى نسب عالية، ولا أرغب هنا بنشر هذه الإحصائيات؛ لأنها تختلف في معايير اعتبار الولادة غير الشرعية وما يهمننا هو الولد الذي يفقد حقه في احتضان أبوين، وهذه الإحصائيات تنشرها الدول المتقدمة جميعها في بياناتها الاجتماعية، ولكن ما هو أكثر سوءاً هو غياب هذه الإحصائيات تماماً في الدول التي لا تمتلك هذه الشفافية ومن المتوقع أن تكون أضعاف هذه الأرقام، ومن المؤسف أنه يتم التحفظ عليها بدافع الحفاظ على سمعة البلد وتقديم أرقام سارة.

**حق الإنسان في بر أبنائه وحنانهم ورعايتهم:** ويتأكد هذا الحق في هذا العصر الذي تتمزق فيه الروابط والتآصر، وهذا الحق طالبت به الأديان وتناضل لأجله منظمات الأسرة، ولكنه ما زال خارج الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

لقد أضاف الدين بعداً مهماً على الجانب الإنساني لجهة رعاية الكبار وحمائهم والحنان عليهم، فلم تعد محض علاقة دين ووفاء تنظمها قوانين الحق، ولا تعتمد الضمير الإنساني وحده الذي قد يعتريه الضعف والكمون، بل إن الدين قدم دافعاً إيمانياً غيبياً لرعاية الكبار والبذل في خدمتهم ابتغاء عطاء الآخرة ورضوان الله تعالى، ومن المؤكد أن هذا الدافع يعدُّ أقوى الدوافع التي تحمل الإنسان على التضحية في خدمة والديه بعد أن يبلغا أرذل العمر ولا يعلمان من بعد علم شيئاً.

حق الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة: وذلك أنّ الأنظمة تفرض على الناس التجنيد الإجباري ثم المشاركة في كلّ حرب يقرها السلطان، وهذا الأمر منافٍ لحرية الإنسان، وهو يتضمن إرغاماً كريها للإنسان على خوض الحروب التي لا يؤمن بها، ولا بدّ من موقف إنساني واضح لحماية حق الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة، ولا شك في أنّ حماية هؤلاء ستحول دون وقوع كثير من الحروب، وذلك حين يدرك المستبد أنّ الناس يملكون خيارات أخرى يحميها القانون الدولي وقد لا يندفعون معه في حروبه الانفعالية.

وقد كتبت مطولاً حول هذا الحق الإنساني، قبل أن تكشف مآسي الربيع العربي عن أكبر مآسينا في تغول الاستبداد الذي يقوم أساساً على سلطة الحاكم في إجبار الناس على القتال إلى جانبه، واستجرار نهر من المجندين البشريين باستمرار ليقفوا إلى جانبه في حروبه التي لا تنتهي، ومن المؤكد أن هذا الشرق البائس ما كان له أن يذهب إلى هذه الأهوال المظلمة لولا عقيدة التجنيد الإجباري التي تقتل في الإنسان حرّيته وترغمه على خوض حروب لا يؤمن بها ولا يفهم معناها.

وأشير إلى أن 131 دولة في العالم تخلت عن التجنيد الإجباري، وهذا الرّمق في تصاعد، وعن قريب سيتعجب أولادنا كيف كان المتغلب يأمر بزج النّاس معه في حروبه تحت شعارات التّراب والأوطان والسيّادة والسّموم، وكيف تمّ ابتزاز النّاس بهذه المصطلحات؛ لزعجهم في حروب تتناقض مع فطرتهم في البتلم والموادعة.

وإذا كان مطلب منع التجنيد الإجباري مطلباً مشروعاً لحركات التحرر على المستوى البعيد، فإنّ هذا المطلب سيرفع من رتبة الطّلب المشروع إلى رتبة الواجب الإنسانيّ

والأخلاقي الفوري حين تكون البلاد في حالة حرب أهلية، وإنني أطلب المجتمع الدولي أن يتحمل مسؤوليته في اعتبار التجنيد في الحرب الأهلية عملاً متوحشاً بمنزلة جريمة ضد الإنسانية مكتملة الأركان؛ إذ يزجُّ الإنسان للقتال ضدَّ أخيه الإنسان وقد يكون قريباً أو جاراً تحت شعار حماية الشرعية أو حماية الثورة، وهو ما مارسه النظام والمعارضة على السواء في أسوأ تحدِّ لكرامة الإنسان وحرّيته.

إنها محض أمثلة ومراجعات شرعية يجب أن نقوم بها باستمرار لنصِّر الميثاق الدولي ونعمل على إغنائه وتطويره، فمن المؤكد أن الوثائق لا تدوم إلى الأبد مهما كانت مقدّسة، وفي الواقع فإنَّ تطور حقوق الإنسان هو أمر حيوي، ولكلِّ أمة في العالم اليوم مقترحات لتطوير مفهوم حقوق الإنسان بعد مرور أكثر من سبعين عاماً على ظهور المصطلح وتطبيقاته.



## الخير الإنساني العابر للأديان

إذا الإنسان كف الشر عني فسقيا في الحياة له ورعيا  
ويدرس إن أراد كتاب موسى ويضمّر إن أحب ولاء شعيا

أبو العلاء المعري

في أكبر تبرع بشري في التاريخ أقدم (مارك زاكربورغ) على التبرع بما يعادل 99 بالمئة من ثروته للعمل الخيري، وهي خطوة تكمل سلسلة الأوقاف المذهلة التي ظهرت في القرن الجديد ابتداء بتبرع (تيد تيرنر) مالك CNN لمبلغ مليار دولار، وتلاه تبرع (بلومبورغ) عمدة نيويورك و(غوردن موور) صاحب شركة (أنتل) بأرقام مماثلة، وصولاً إلى التبرعات التي تجاوز كل منها ثلاثين ملياراً من قبل (بيل جيتس) و(ميلدا) و(الوليد بن طلال) و(إدوارد بافيت) وأخيراً التبرع الأكبر في التاريخ البشري لـ(مارك زاكربورغ) صاحب فيس بوك الذي يقدر 45 مليار دولار.

بالطبع لدي كما لدى القارئ رغبة جامحة أن أكتب عن هذه العبقريات الرهيبة التي تمكنت من تغيير وجه العالم وعن هذه التبرعات الهائلة والمؤسسات التي ستشرف على تنفيذها ومراقبتها ومن ثمّ فلسفة الإحسان الجديدة التي دفعت لقيام هذا

الشكل من التبرع، وما يمكن أن يتطور إليه هذا اللون من الأوقاف للعمل الخيري والإنساني...

ولكنني معني في هذا المقال بشرح الخيبة التي تلازم خطابنا الشعبي لدى تلقي مثل هذه الأخبار، وتنعكس أشد الأمراض النفسية بؤساً وشوزوفانيا؛ إذ يتولى المشايخ عادة تفسير هذا الخير بأنه لون من الرياء والعمل المردود الذي يقوم به نصارى ضالون، أو ملاحدة جاهلون لا قيمة له عند الله، فهو مجرد إنفاق رجل كافر لا أثر له في الآخرة؛ إذ سيقدم الله إلى ما عملوا من عمل فيجعله هباء منثوراً...

هذا بالطبع إذا لم نتحدث عن التآمر والعمل في خدمة الصهيونية والاستعمار والإمبريالية التي نشتم بها عادة مخالفينا في الرأي والدين، وندمغ بها كل شرفاء العالم وأحراره حين لا يقفون معنا في خندق السقوط والتخلف.

ربما لا يحتاج هؤلاء الرائعون لدفاع كهذا، وبالتأكيد لن يتاح لهم أن يقرؤوه، ولكنني معني هنا بالفعل بالكشف عن بؤس الوعي الذي نتخبط فيه حين نحمل هذه النظرة المتعالية المترعة بالغرور والجهل، والمنفصلة عن الأسرة الإنسانية الواحدة التي هدمت كثيراً من الأسوار بين الأمم.

يقول أصدقاؤنا إن ما تقوله صحيح ولا غبار عليه ولكن حكم العقل هذا مخالف لحكم النقل، والقرآن يقول غير هذا، وتقديم العقل على النقل زندقة، ويسوق في حوارهِ على الفور سلسلة من الآيات التي صارت شعبية ومحفوظة لكثرة ما يستدل بها المشايخ في مواجهة التيارات العقلانية:

﴿قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٦]

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

﴿وَإِنْ نُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]

﴿وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ﴾ [الشورى: ١٥]

وهناك أكثر من خمسين نصاً قرآنياً آخر كلها يمكن أن يدل ظاهرها على عدم جواز الاجتهاد، ووجوب الخضوع لحكم النص مهما بدا لك أنه ظالم وغاشم، وأن الاجتهاد واستعمال العقل عدوان على الله وعلى شرعه ودينه.

ولكن هذه النصوص موجودة في كل ثقافة وأدب تاريخي، ومن الممكن تماماً أن تجدها حتى في آداب أشد الناس دعوة للانفتاح والحرية؛ إذ يمكن لك أن تقتطع نصوصاً كهذه من سياقاتها وأن تجعلها سيفاً مصلتاً ضد كل تنوير.

وللجدل في هذه النصوص مكان آخر، ولكن الجانب الأكثر استفزازاً هو حشد الآيات التي تشير إلى بطلان عمل الكافرين وزهوق كل خير ينفقونه، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَاللَّظْمِلِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]

وأن جهنم هي دار العدل التي سيلقى فيها هؤلاء نفقاتهم وإحسانهم وإنسانيتهم يعذبون خالدين فيها كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب.

ويكاد يكون هذا القول في رفض كل خير يقوم به غير المسلم من أكثر المواقف اتفاقاً بين الواعظين والمشايخ، وتتداول للأسف نصوصاً وفيدوهات كهذه لشيخ

كبار لهم مكانتهم واحترامهم كالشعراوي والبوطي؛ إذ أجابوا بما يقطع كل جدل بأن الله يقول لهذا المنفق يوم القيامة ماذا أردت بإنفاقك فيقول أردت الرياء والسمعة والشهرة، فيقول أعطوه ما أردت، وجزاؤك في الدنيا نلته وليس لك عندي إلا نار جهنم!

هكذا يحتتم مشايخنا الواعظون جواب هذا التساؤل ويقهقهون سعداء بإعجاب الشعب المغفل بهذه الحجج الافتراضية في الحوار مع أكثر الأعمال نبلاً وطهارة في الأرض...

هكذا أجاب عنه بأنه ما أراد إلا الشهرة والسمعة والتنافس والتفاخر والرياء! وأنه لا يعرف الله ولم يسمع بالله، وكأن الإيمان والفطرة والضمير والإخلاص شيء لا يبلغه إلا من ولد في هذا الشرق التعيس وأن الله لم يجد بقية من الفطرة السليمة يوجد بها على بقية سكان الكوكب فتركهم للشيطان يمنحهم فطرته، وهكذا فإن على هذا المحسن الغيبي أن يذهب إلى إلهه فوق الصليب ليطلب منه جزاء ما أنفق حيث لن تجد عند رب العالمين شيئاً.

وما لم يقله حضرة الواعظ هو أن المنفق الذي افتريت عليه أنه قال له لا أريد جنتك، لم يقل قط إنني أريد نارك، فإذا كان من حقي ألا أدخل الجنة فمتى كان حقلك أن تدخلني السعير؟

وبدلاً من ذلك ننصرف إلى بيان ما أعده الله تعالى لمن يتصدق بصدقة الفطر (صاع من شعير أو قمح أو زبيب) وأنها تقع في يمين الرحمن وأنه يرببها لهم كما يربي الرجل

فلوسه فتكون أمثال الجبال، وهناك يسخر المؤمن من جود الكافر، فيدخل بصاع الشعير الجنة ويذهب الآخر بملياراته إلى الجحيم.

لست أدري أي لون من التربية يتلقاه أبنائنا في ثقافة الكراهية التي جعلتنا آخر الأمم وأشدهم خيبة وغروراً، وأصابنا جيلنا بالتناقض التام بين الواقع والنص، فليس من عاقل ينكر وجود الخير في الناس، ولكن خطابنا المشؤوم لا يرى في النص مكاناً للخيرين والطيبين من البشر ولا يراهم إلا أعداء يحادون الله ورسوله حتى ينخلعوا عما هم فيه من ثقافة ودين ويلتحقوا بنا في موروثنا المذهبي الذي يطل بهذه الأفكار الإقصائية الاتهامية اللقيمة.

إن احتكار الخلاص هو أكبر أمراض الأمم وأتباع الأديان في التاريخ، وبذلك فهو أحد الأسباب الهدامة التي تحول دون قيام تكامل حقيقي بين أبناء آدم في الأرض، وقد جاء الأنبياء ليحاربوا ذلك وهو ما ابتليت به الأمم؛ إذ تم تكريسه كما لو كان أحد الثوابت التي لا تتخلف في كل دين.

لقد ذكر الإسلام مسألة احتكار الجنة وعدها مباشرة واحدة من الأخطاء الكبرى التي انجرف إليها أتباع الديانات وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١]

وأخبر القرآن الكريم بصيغة استنكار شديد: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]

وحين قالت طائفة من المسلمين مثل ذلك، واستخدمت نفس الأمانى رد عليهم القرآن الكريم بقسوة في قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ﴿ [النساء: ١٢٣ - ١٢٥]

ولا تحتاج هذه الآيات البينات إلى أي تأويل أو استدراك فهي واضحة وضوح الشمس وهي تدفع عن الإسلام أي تهمة في احتكار الخلاص قد يصمه بها أعداؤه.

إن الإسلام لم يتردد قط في النص على أن الله سبحانه هو رب العالمين، وأول آية في القرآن الكريم هي: «الحمد لله ربّ العالمين» وآخر آية في القرآن هي أن الله «ربّ النَّاسِ ملك النَّاسِ إله النَّاسِ» فلم يقل رب المسلمين ولا العرب ولا المؤمنين بل جعل الخلق كافة دون استثناء عيالاً له، تماماً كما قال الرسول الكريم: "الخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله."

إنَّ الله واحد ولكن أسماءه كثيرة والحقيقة واحدة ولكن الطرق إليها كثيرة والإشراق واحد ولكن الأديان متعددة، والحب واحد ولكن القلوب كثيرة.

وفي القرآن الكريم تكرر مرتين قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿ [البقرة: ٦٢]

بل إن القرآن الكريم اشتمل على أربع عشرة مرة تكرر فيها قول الله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى﴾ [البقرة: ٩٧]

فهو لم يقل: مبطلاً لما بين يديه أو ناسخاً لما بين يديه أو ناسفاً لما بين يديه، أو ملغياً لما بين يديه، بل قال مصدقاً لما بين يديه ومهيماً عليه، وهذا المعنى يشمل التوراة والزبور والإنجيل من الكتب السابقة ويشمل الحكمة والعلم مما يتطابق مع المقاصد العظيمة للدين الحق.

ليس لدي أدنى شك في أن الإسلام لله هو دين الله للعالم، وأن التوحيد هو حق الله على العبيد، وقد شرحه القرآن بالآية: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]

فهل نحن بالفعل نعارض القرآن بخطاب الإنسانية، وهل يعدُّ تقديم العقل على النقل كفراً بما أنزل الله؟

إنَّ «خير أمة أخرجت للناس» مصطلح تربوي توجيهي لبناء الثقة والإرادة لدى الأمة، وهو مرتبط بإخلاصنا وجدنا واجتهادنا واستقامتنا، ولكن هذا المصطلح شديد الصلة بمصطلح شعب الله المختار، القائم على أساس من التمييز العنصري، ولا شك في أنَّ مصطلح الأمة المختارة أو الأمة المرحومة أو المعصومة أو الخاتمة على اختلاف المصطلحات، يصبح بلا معنى إذا نحن تخلينا عن قيم ديننا وحضارتنا، واخترنا التسكع والكسل، فليس لله شعب مختار، والناس سواسية كأسنان المشط، والأمة التي قال عنها القرآن بالنص: ﴿وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]

هي الأمة التي قال عنهم بالنص أيضاً ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ [مريم: ٥٩]

يؤسفني أن كثيراً من المتدينين والواعظين والأتقياء يقدمون النص القرآني للناس على أنه نص لئيم إقصائي ضيق الأفق لا يعترف بجهد الناس، ولا فكرهم ولا عملهم ولا عطائهم، ويكتفي بزجهم في السعير لمجرد مواقف في الفكر والاعتقاد، نحن غالباً لا نعلم عنها شيئاً فالله وحده هو من يعرف السرائر والضمائر.

لا أنكر أن القرآن فيه نصوص شديدة ضد الكفار المخالفين، ولكن قناعتي أن الكفر المذموم في القرآن ليس مجرد الموقف الاعتقادي بل هو موقف سياسي ضد من يحارب للمسلمين ودينهم، وفي القرآن عشرات النصوص التي تدل على قبول عمل الناس من المسلمين والمسيحيين واليهود والأديان الأخرى، وأن الله تعالى وحده هو الديان الذي يفصل بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

وحين يصدر الناس يوم القيامة ليروا أعمالهم، ونلاحظ أن الآية جاءت بصيغة الناس وليس المسلمين وحدهم، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧ - ٨] [الزلزلة: ٧ - ٨]

وفي القرآن في وصف عمل النصارى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥]

وفي القرآن أيضاً في وصف النصارى المنصفين قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]

وقوله عند ربهم لا يحتاج لتأكيد أن الثواب الموعود هو ثواب الله وليس مجرد ثواب الناس وتكريمهم.

الجدل في هذا الأمر طويل، ولكن ما تريد هذه المقالة تأكيده هو أن زهوق عمل غير المسلم الذي يستدل عليه بنصوص من القرآن يقابله قبول عمل غير المسلم التي تدل له أيضاً بنصوص من القرآن، والقرآن حَمَّالٌ أوجه، ولكن الله تعالى لا يمكن أن يكون جاحداً لئيماً ولا شك في أنه أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين.

إن ما أريد بيانه هو أننا منحنا هؤلاء الواعظين على مَرِّ التاريخ حق توظيف النص الديني فيما يرون واعتبرنا اختياراتهم مسلمات، وها أنا أسوق لك في مقابل الاستدلال اللقيم الذي يمارسونه عشرات النصوص الأخرى في القرآن طافحة بالرحمة والإنسانية والعدالة والإحسان، وكلها تمنح الناس مزيداً من الإيمان.

والفقيه أو الواعظ هو الذي يمارس تسخير القرآن الكريم في تبرير الشر والجهل ونكران الجميل، والنص حَمَّالٌ أوجه، فحين يقول مشايخنا في تأويل الآية ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]

إنه العمل الصالح، فلماذا لا يقبلون منا أن نقول إنه العمل الطالح، وأن الله يقدم إلى ما جمعه الكفار المحاربون لله ورسوله من أعمال شريرة وجيوش أعدوها لمحاربة المسلمين فيزهق الله ذلك كله ويجعله هباءً منثوراً، وأن الله يهلك الظالمين وجنودهم وما حشدوه لمحاربة الإسلام والمسلمين..

إنها في النهاية مسألة تأويل وتوظيف، وليست جدل العقل في مواجهة النص بل هي جدل النص مع ذاته، والتأويل السلي لظواهر النصوص، وكان يمكن أن نمارس فيها جميعاً التأويل الإيجابي، فهي تقبل كل تأويل، وقناعتي أن الله تعالى لا يظلم

مثقال ذرة من مسلم ومن غير مسلم وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً  
عظيماً.

## جيران على كوكب واحد

مع أن هذه الحقيقة واضحة في كتاب الله وهدى الأنبياء، ولكنها لم تكن واضحة للعيان في أي مرحلة من مراحل التاريخ كما هي اليوم، بعد ثورة المعلومات والاتصالات التي عززت فكرة القرية الكونية، وأكدت إخاء الإنسان للإنسان على إرادة الحرب الباطشة التي تتناوب على إشعالها في الأرض قوى متقابلة في الشر من الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولكن أدنى قدر من الثقافة صار يدعو الإنسان إلى معرفة أخيه الإنسان شريكاً لا بد منه لبناء الأرض وتسخير خيراتها في منافع العباد والبلاذ.

جيران على كوكب واحد حقيقة أكدها القرآن الكريم: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]

وشرحها السيد المسيح بقوله الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، ودلت لها حقائق العلم الحديث التي درست طبائع الإنسان وحاجاته ومقاصده وأكدت الأصل القرآني الكبير الذي دلت له عشرات الآيات: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ اللَّيْلِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]

"كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة"، أو كما تم التعبير عن هذه الحقيقة في مؤتمر الأديان الأخير بعنوان عريض: أسرة واحدة تحت الله!

الناس وفاقيون وفروقيون، منهم من يبحث عن المشترك ومنهم من يبحث عن المختلف، ومن عجائب القدر أن كلاً من الفريقين يجد بغيته وشواهدة في العقل

والنقل، ولا يخفي كاتب هذه السطور انخيازه إلى تيار الوفاقيين الذين يؤمنون بالإخاء الإنساني في الأرض، ويؤمنون بأنَّ الله خلق العالم من أجل نهاية سعيدة، ويؤمنون بكلمة إقبال :

لم ألق في هذا الوجود سعادة      كمحبة الإنسان للإنسان  
لما سكرت بخمرها القدسي لم      أحتج إلى تلك التي في الحان  
وعلى اختلاف الأعراق والأديان والثقافات ولكن الحقيقة التي تؤكدتها تجارب التاريخ  
شرحها من قبل الشاعر العربي بقوله:  
والناس للناس من عرب ومن عجم      بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وهذه الحقيقة هي التي شرحها الصوفي العارف بقوله: "الناس للناس والكل لله".  
الجميل كاسمه، والمعروف كرسمه، والخير كطعمه، وهي حقائق شرحها نص نبوي كريم  
رفعه الرسول إلى ربه: "ليس كل مصل يصلي وإنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي  
وكف شهواته عن محارمي وأوى الغريب ورحم المصاب وكسا العريان".  
إن فعل الخير كالمسك ينفع حامله وبائعه ومشتريه، ولو أن تلقى الناس بوجه طلق،  
وغفر الله لبغي من بغايا بني إسرائيل رأت كلباً يلحس الثرى من العطش فنزلت بهراً  
فمألت خفها ماء فسقت الكلب فشكر الله لها فغفر لها.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٩ - ٢١]

جيران على كوكب واحد حقيقة شرحها النبي الكريم بقوله: "ما من مسلم يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"، وشرحتها نصوص القرآن الكبيرة الظاهرة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة: ٧ - ٨]

ولكنَّ خطاب التَّعصّب يَمْضِي إلى الغاية في منع الخير عن المختلف في المذهب أو الدين أو الطريقة، ولأجل دفع هذه الأوهام راح النبي يضرب لهم أروع الأمثلة من الأفق الإنساني البعيد:

"قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية! فقال: اللهم لك الحمد على زانية! لأتصدقن الليلة بصدقة، فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غني! قال: اللهم لك الحمد على غني! لأتصدقن الليلة، فخرج فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق! فقال: اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق."

وهنا أخبر النبي الكريم أن الرجل أُنِي؛ أي: أُوحي إليه، فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زنا، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقة.

وهنا أختار لشرح هذه الحقيقة عند أهل الله كلام العارف الكبير (أبي الحسن النوري) حين سأله (حيران بن الأضعف) فقال: يا معلم: ما مراد الله من خلقه؟

أجاب فوراً: ما هم عليه!

قال مندهشاً: أو يريد من الكفرة الكفر؟ قال أفيكفرون به وهو كاره؟

ثم قال: أخبرني ماذا أراد الله باختلاف الشيع وتفريق الملل؟

قال أراد إبلاغ قدرته وبيان حكمته وإيجاب لطفه وظهور عدله وإحسانه.

وكل قبيح إن نسبت لحسنه      أتتك معاني الحسن فيه تسارع  
يكمل نقصان القبيح جماله      فما ثم نقصان ولا ثم باشع

في الحقيقة لم أكن أريد أن أقحم هذا النسق من كلام أهل الإشراق؛ إذ إن الدراسة في غالبها تنطلق من قراءة حقوقية معاصرة، ولكنني لا أكتمك أن إحساسي بإخاء الإنسان للإنسان لم يكن نتيجة قراءة سياسية، بل إن ذلك في الحقيقة كان نتيجة التأمل في مشهد واحد لا يزال يرتسم في خاطري مذ عرفت الله، وهو يقيني بروحه سبحانه التي يفتحها كل يوم في روح الإنسان، ويمينه سبحانه التي مسحت جبين خلقه، ويوم حشد الملائكة في مشهد عظيم، وقدم للجمهور الكبير في الملأ الأعلى مشروعه في الأرض المسمى آدم، سراً من سره، ونوراً من نوره، وأمر الملائكة جميعاً أن يخروا له ساجدين، لم يكن آنذاك نبي ولا كتاب، ولا وحي ولا شريعة، ولكن الإنسان كان محلاً للتكريم، وعلى الإنسان أن يكتشف سره في ذاته؛ إذ جعل الله أسرارها كلها في روح ابن آدم.

إن فكرة الجوار الإنساني على الكوكب ليست فكرة بلهاء تعفينا من التزام الحقوق، وتحولنا إلى مجرد دراويش على طرف الكوكب نرقص في الغسق، ونمز الرؤوس في

الضحى لإرادة المستبد كعنزة الزمخشري ، بل هو تشارك ومسؤولية، وكفاح وجراح، ودمعة وابتسامة، وحين نتخلى عن مسؤوليتنا في القرية الكونية فنحن إذن من يخرق وثيقة الجوار، وربما كان أوضح شرح لمسؤولية الجوار ما عبر عنه الرسول الكريم: "مثل القائم في حدود الله والراتع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً فلم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً".

جيران في كوكب الأرض، عنوان كبير لحقائق في الأرض تتعزز كل يوم، ويكتشف الإنسان كل يوم أنه أحوج لأخيه الإنسان من ذي قبل، وأن فكرة صبغ البشرية بلون واحد، وأن الناس على دين ملوكهم هي فكرة استبداد وقهر تنتمي إلى عصر الأباطرة والقيصرة، وليس إلى عصر الأنبياء الذين بشروا في الأرض بقول الله تعالى:

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]

ونادوا في العالم بحقيقة عميقة بعيدة الغور: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]

ومن شعر إيليا أبي ماضي:

حقيرٌ فصالَ تيهاً وعربدٌ  
ما أنا فحمةٌ ولا أنت فرقدٌ  
حسانٌ، فإنه غيرٌ جلمدٌ  
وعلى الكوخ والبناء الموطدٌ  
فلماذا . يا صاحبي . التيهُ والصّدُّ

نسيَ الطيّبُ ساعةً أنه طيّبٌ  
يا أخي لا تمل بوجهك عني  
ولقلبي كما لقلبك أحلامٌ  
قمرٌ واحدٌ يطلُّ علينا  
أنت مثلي من الثرى وإليه

## إخوان في القيم الإنسانية

لا تنتظر من الآخرين أن يتغيروا حتى يشبهوك، ولا  
تغيّر نفسك حتى تشبههم، لقد خلقنا مختلفين  
لنتكامل لا لنتناسخ.

فيكتور هيجو

المسلم صديق حبيب للناس والحياة، أليف ودود مع الناس والحياة، علاقته  
بهذا العالم الكبير من حوله ليست علاقة عدو بعدو، وليست علاقة حاسد بحاقد،  
وإنما هي علاقة الإنسان بالإنسان، نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن  
سيئاتهم، والخلق كلهم عيال الله، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله.

إنها قاعدة واضحة صريحة، فالمسلم في الدنيا جزء من هذا العالم والمؤمن الذي يخالط  
الناس ويصبر على أذاهم، خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على  
أذاهم، والمؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف.

لماذا نصر على أن الأصل بين المسلم والعالم الشقاق والصدام، ولم لا نبحث عن  
المشترك الإنساني؟ أفإن لبسوا البنطال في الأرجل نلبسه في الرؤوس! وإن لبسوا الإزار  
على الأكتاف لبسناه الأقدام! رغبة في المخالفة! أين هذا الفهم السقيم من موقف

رسول الله الذي كان ينظر إلى الحياة بالأمل والعمل، ويثني على كل قوم بما عملوا ولا يبخسهم نصحه.

لم يتردد في استقبال قبلة أهل الكتاب على الرغم من تنكرهم لرسالته، وأمضى نصف عمر الرسالة يشاركونهم قبلتهم، وأمضى كل عمر الرسالة يصلي على أنبيائهم، ويوصي باتباع ملة إبراهيم، لم يكن يرى أن رسالته تتمثل في هدم ما أنجزه الأول، بل كان يواصل ما صنعوه ويؤسس على ما أنجزوه، ويؤمن بالمشترك الإنساني، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أولى بها، ونصوص القرآن طافحة بهذه

الحقيقة، ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَآخِرُونَ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الزمر: ٦٥]

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]

﴿وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ [الزخرف: ٤٥]

إلى عشرات النصوص القرآنية التي تدعو الأمة إلى الاعتبار بما أنجزه الأوائل واقتفاء نجاحاتهم فيما وفقوا إليه وتجنب عثراتهم فيما سقطوا فيه.

إنَّ الأمة الإسلامية مدعوة أن تشارك في بنائها الحضاري الأمم جميعها، وليس أن تهدم ما أنجزوه ولا أن تكفر بما حققوه، وإنما نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم.

حين وصل الفاتحون المسلمون إلى بلاد الشام والعراق كان يدركون أنهم قادمون على حضارة عريقة، وأن ما أنجزه الإنسان فيها هو محل اعتبار واهتمام وليس من

شأن الأمة أن تتنكر لما أنجزه الأولون من خير، لقد كانوا يتعاملون بإيجابية واحترام مع كل منجز إنساني.

لقد سمعت عشرات المرات خطباءنا الأشاوش وهم يتحدثون في مجد الإسلام إن الإسلام حطّم الحضارة الرومانية! وحطّم الحضارة الفارسية! وحطّم الحضارة اليونانية! إنني أعتقد أن هذا ليس مجداً يفاخر به دين ولا هو مجد تفاخر به حضارة، بل الإسلام أكملها وهذبها وأصلحها، الإسلام لم يحطم وإنما بنى وعمر، الإسلام لم يهدم، إنما هدم الفساد وبنى الصلاح، هدم المظالم ورفع شعار العدالة، بنى المنجز الحضاري في حياده، وعلمنا كيف نميز الوسائل من المقاصد، فالكأس التي تشرب بها البرتقال يشرب بها الخمر، وهي هنا حلال وهنا حرام! والكاميرا التي تنقل لنا صورة الحرم هي التي تنقل صورة العاريات، فهنا حلال وهنا حرام، وثقافة الإسلام ثقافة تؤمن بما أنجزه الإنسان وتبني عليه.

ربما كان أجمل اختصار لهذه الحقيقة ما أخرجه البخاري في الصحيح عن الرسول الكريم: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها إلا موضع لبنة، فكان الناس إذا مروا بهذه الدار يقولون ما أحسن هذه الدار، لولا موضع اللبنة، فكنت أنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين".

ليس من شأن المسلم أن يحارب ما أنجزه الناس؛ لأنه لم يصدر عن جانبه، بل المسلم يؤمن بكل خير في الأرض ويعمل لكل صالح في الحياة والإنسان أخو الإنسان أحب أم كره، ولا شك أن مصطلح مصدقاً لما بين يديه المنصوص عليه أربع عشرة

مرة في القرآن الكريم يشمل النبوة السابقة والحكمة اللاحقة وكل ما ينجزه الإنسان على صعيد المعرفة والهدى والخير.

قاعدة من ذهب شرحها المعلم جودت سعيد: "نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم!"

ومن نفيس الشعر العربي الحديث في الإخاء الإنساني:

قال معروف الرصافي:

لسانٌ وأوطانٌ وبالله إيمانٌ	إذا القومُ عمَّتْهم أمورٌ ثلاثٌ
بها قال إنجيلٌ كما قال قرآنٌ	فأي اعتقادٍ مانعٌ من أخوَّةٍ
على رسلهِ إلا ليسعدَ إنسانٌ	كتابان لم ينزلهما الله ربُّنا

ويعد...

فقد استوفيت هذه الدراسة التي قصدت بها الاقتراب من الوعي بالمذهب الإنساني في الإسلام، والتأسيس لثقافة إنسانية متحضرة قادرة أن تشارك في بناء هذا العالم والانسجام مع المحيط الإنساني الإيجابي دون أن تتخلى عن قيمها الدينية ومقاصد الشريعة الكريمة.

إن كثيراً مما أخضعناه هنا للبحث والدراسة واجتهدنا في إثباته والاستدلال له هو في الواقع من باب البديهيات التي لا تحتاج لدليل ولا برهان، فكيف نتصور أن القيم الإنسانية تحتاج إلى تبرير أو تفسير.

وليس يصح في البرهان شيء... إذا احتاج النهار إلى دليل

ولكن لا بدّ من الاعتراف أن خطابنا الديني عموماً وقع في الغلو الذي نهي عنه القرآن الكريم، حين بالغ في تقديس وصايا الشريعة وعدّها وصايا عابرة للزمان والمكان، وهي في الواقع ليست كذلك، وإنما يدور الحكم مع علته وجوداً وعدمًا، ولا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان، وعدّها فوق الإنسان، وألغى أيّ اعتبار للمقصد الإنساني من هذه الأحكام وعدّ الغاية حاجات الله لا حاجات الإنسان، مع أنّ الله سبحانه غني عن العالمين وقد أنزل لنا من الشرع ما يبيّننا ويسعدنا، وليس ما يسعده ويحييه فهو سبحانه غني عن العالمين، وهي حقائق سبق إليها الفقهاء المسلمون منذ عصر الحضارة الإسلامي الذهبي، وهي حقائق اتفاقية على مستوى الفقهاء والحكماء وأهل البصيرة ولكنها في الواقع ليست كذلك على مستوى رجال الدين الذين لا يرون الإنسان مؤهلاً للفهم عن الله، ويجزمون بحجة

الإنسان إلى مبلغ عن الله وشارح عن الله ومنفذ عن الله، وهي قراءة خاطئة بالمطلق وتصطدم مباشرة بنصوص الوحي المبين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٤] ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام: ١٠٧]

نعم إن هذه الدراسة واضحة وصريحة بوجود اعتبار الإنسان غاية في تشريع الأحكام، واعتبار الإنسانية محوراً في مقاصد الأديان، وأن القيم الإنسانية باتت من الوضوح والبيان والاتفاق العالمي في حد لا يحتاج لأي مزيد.

إن السبب خلق من أجل الإنسان، وشرع الأحكام من أجل المجتمع لا من أجل القديس، وشرعت الجمعة من أجل الوحدة لا من أجل تقسيم المجتمعات.

يمكن للمذهب الإنساني أن يعبر عن ذاته في الإسلام وفق هذه المحورية المقاصدية، ولا نحتاج لكثير تفصيل حين نقول إن المذهب الإنساني في الأديان جميعاً يحمل التوجهات إياها، وسيبدو باستمرار متشابهاً في الأصول والفروع.

وتؤكد الدراسة أن الوعي الحضاري عزز من مكانة المذهب الإنساني، سواء ظهر في الأديان أم في الساحة الثقافية المطلقة، فالإنسانية دين وثقافة وفكر ومعرفة، وسيجد التيار الإنساني مهما كانت خلفيته مشتركاً كثيراً لا ينتهي بين الإنسان والإنسان، وسيجد الإنسانيون في مختلف الأمم والديانات والأعراق ما يجمعهم ويوحد جهودهم ويدفع نشاطهم إلى خدمة الإنسانية وبناء الأرض والإحسان إلى الخلق.

إنَّ دعم ظهور المذهب الإنساني في كل أمة بات أكثر من ضرورة بخاصة في ظلِّ وسائل التواصل التي توفر إمكان اللقاء على تباعد الأوطان، واختلاف البلدان.

## الفهرست

5	تمهيد .....
19	الفصل الأول: مصطلح المذهب الإنسانيّ .....
27	ظهور الاتجاه الإنسانيّ في الإسلام .....
31	المذهب الإنسانيّ في عصر النهضة الأوروبي .....
35	المذهب الإنسانيّ في عصر الأنوار الأوروبيّ .....
41	الفصل الثاني: المذهب الإنساني في الإسلام .....
43	ملامح المذهب الإنساني في الإسلام .....
48	الإنسان أم الشريعة؟ .....
50	المذهب الإنساني في نصوص القرآن والسنة .....
55	المذهب الإنساني في سورة الفاتحة .....
63	مبادئ المذهب الإنساني في الإسلام .....
63	مبدأ الأصل السماوي للإنسان .....
67	مبدأ الإنسان جوهر المشروع الإلهي للخلق .....
73	مبدأ عيال الله .....
81	مبدأ مساواة الأديان .....
87	مبدأ: عدالة الله في السماء .....

91	مبدأ الفطرة .....
107	الفصل الثالث: رواد المذهب الإنساني في الإسلام .....
107	في السيرة النبوية .....
107	وثيقة المدينة .....
110	المساواة والمواطنة .....
131	أئمة المذهب الإنساني في الإسلام .....
149	في الواقع المعاصر .....
154	في كرامة الإنسان عند إقبال .....
165	الفصل الرابع: تحديات المذهب الإنساني في الإسلام .....
167	ثقافة الكراهية .....
174	الأسئلة السبعة: مواجهة مع جذور ثقافة الكراهية .....
181	ثانيًا: ثقافة الجهاد .....
182	الأول: جهاد الطلب: .....
184	الثاني: جهاد الدفع: .....
184	ثالثًا: ثقافة تمجيد الفتوحات .....
201	رابعًا: نظام الحدود .....

219	خامساً: التمييز ضدَّ المرأة
237	سادساً: الإسلاموفوبيا
241	الفصل الخامس: الحضارة والأداء الإنساني
245	كرامة الإنسان في دول الحضارة الناجحة
254	اتحاد المقصد الإنساني بين الإسلام والحضارة الحديثة
267	المذهب الإنساني في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:
297	الخير الإنساني العابر للأديان
307	جيران على كوكب واحد
313	إخوان في القيم الإنسانية

نقدم للجمهور الكريم هذا الكتاب الجديد عن المذهب الإنساني في الإسلام، وهو مساهمات كثيرة قدّمها المؤلف في محافل مختلفة؛ للتأكيد على إحياء القيم الإنسانية في الإسلام، وضرورة تطوير الفقه الإسلامي إنسانياً ومواجهة الأحكام التي استقرت في الفقه الإسلامي مما يتناقض مع كرامة الإنسان، وبخاصة في نظام العقاب ونظام العلاقات الدولية والتمييز الاعتقادي وحقوق المرأة.

إن الثقافة الإسلامية السائدة اليوم لا تعبر عن علاقة الشريعة بالإنسان، وقد كشفت هذه الدراسة عن تحديات كبيرة وخطرة في الممارسات والسلوك لا تزال موجودة في مناهجنا التعليمية والتربوية وخطابنا الديني، وهي تفرض ممارسات تتناقض مع القيم الإنسانية؛ إذ تلقن ثقافة التمييز والإقصاء، وتراجع إلى درجة كبيرة المعايير الإنسانية في المساواة والعدالة والفرص، لصالح الإيديولوجيا، بل إنه لا مناص من الاعتراف بأن كثيراً من السلوكيات والموروثات ذهبت إلى تكريس الكراهية كواجب شرعي نمارسها ضد المختلف في الدين، وهو أسوأ ما يتصور من تربية وتحشيد.